PJ7846. A46K48 1952
(Arab)

32101014490096

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE
raritan college/NJ ILS- 12-26-90		JUN 15 2010	
CLOSED RE 3 Hours			
		OCT 31 2005	

Alcinos

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 014490096

الكتاب الذهبي

نجيب محفوظ

خان الخليلي

نجيب محفوظ

- ولد فى سنة ١٩١٢
- تخرج فى كلية الآداب
سم الفلسفة سنة ١٩٣٤
- ابتدأ كاتب أقصوصة
ل مجلة الرسالة
- كتب قصصاً فرعونية
ازت منها « رادوبيس »
جائزة السيدة قوت القلوب
« كفاح طيبة » بجائزة
زارة المعارف
- كتب قصصاً مصرية
صور الحياة فى الأحياء
وطنية تصويراً دقيقاً ،
زت منها « خان الخليلي »
جائزة مجمع فؤاد الأول ،
تعتبر قصة «زقاق المدق »
ن أبدع قصصه .
- قصاص يمتاز بتذوقه
حياة المصرية ، وتعمقه في
رفة دقائقها .
- يمتاز بين كتاب القصة
سعة اطلاعه على أصول الفن
قصصي .
- لم يتزوج بعد .

نجيب محفوظ

Mahfuz

خان الخليلي

القصة الفائزة بجائزة مجمع فؤاد الاول

الكتاب الذهبي

يصدره نادى القصة
العدد الثانى - يوليو ١٩٥٢

(Arab)
PJ 7846
.A46K48
1952

(١)

انتصفت الساعة الثانية من مساء يوم من سبتمبر سنة ١٩٤١ ، موعد انصراف الدواوين حين تنطلق جماعات الموظفين من أبواب الوزارات كالفيضان العارم ، وقد نهكها الجوع والملل ، ثم تنتشر فى الارض تطاردها أشعة الشمس الموقدة . انطلق أحمد عاكف ـ الموظف بالاشغال ـ مع المنطلقين . وكان من عادته أن يتخذ سبيله فى مثل تلك الساعة كل يوم الى السكاكينى ، أما اليوم فوجهته تتغير فتصير الازهر لاول مرة . حدث هذا التغيير بعد اقامة فى السكاكينى طويلة ، امتدت أعواما مديدة ؛ واستغرقت عقودا من العمر كاملة ، وادخرت ما شاءت من ذكريات الصبا والشباب والكهولة . وأعجب شىء انه لم يفصل بين التفكير فى الانتقال وحدوثه الا أيام معدودات . كانوا مطمئنين الى مسكنهم القديم ، يخال اليهم انهم لن يفارقوه مدى العمر ، وما هى الا عشية أو ضحاها حتى صرخت الحناجر : « تبا لهذا الحى المخيف » وغلب الخوف والجزع ، ولم تعد ثمة فائدة ترجى من مراجعة الانفس المذعورة ، واذا بالبيت القديم يضحى ذكرى الامس الدابر ، واذا بالبيت الجديد فى خان الخليلى حقيقة اليوم والغد ، فحق لاحمد

186075

عاكف أن يقول متعجبا :«سبحان الذى يغير ولا يتغير؟» . كان الرجل من أمر هذا الانتقال المفاجىء فى حيرة . كان قلبه ينازعه الى المقام القديم الحبيب ، ويمتلىء حسرة كلما ذكر انه قذف به الى حى بلدى عتيق ، الا انه لم ينس ما خامره من شعور الارتياح حين علم انه ابتعد عن جحيم ينذر بالهلاك المبين، ولعنه ان ينعم الليلة بأول رقاد آمن بعد تلك الليلة الشيطانية التى زلزلت أفئدة القاهرة زلزالا شديدا . وبين الحزن والتعزى، والأسى ، والتأسى ، مضى يذرع الطوار فى انتظار ترام يوصله الى ميدان الملكة فريدة ، وقد ابتل جبينه عرقا . وكانت الحال لا تخلو من لذة طريفة . ذلك انه مقبل على استجلاء جديد ، واستقبال تغيير ، مرقد جديد وجيران جدد ، فلعل الطالع أن يتبدّل ، ولعل الحظان يتجدد ، ولعل مشاعر خامدة أن تنفض عن صفحتها غبار الخمود وتبعث فيها الحياة واليقظة من جديد . هذه لذة الاستطلاع ولذة المقامرة ولذة الجرى وراء الامل ، بل هذه لذة استعلاء خفية ناشئة من انتقاله الى حى دون حيه القديم منزلة وعلما . ولم يكن رأى المسكن الجديد بعد ، اذ بوشر نقل الاثاث منذ الصباح الباكر وهو فى وزارته ، وها هو ذا يقصد اليه كما وصف له . وجعل يقول لنفسه انه مسكن مؤقت وانه ينبغى أن يحتملوه مدة الحرب وبعدها يأتى الفرج، وهل كان فى الامكان خير مما كان ؟ وهل كان من الحكمة أن يلبثوا فى الحى القديم على مرأى ومسمع من الموت المخيف ؟ . مضى يذرع الطوار لانه لم يكن يحتمل الجمود طويلا ، وكأنما سويت أعصابه من قلق ، وكان يدخن سيجارة بعجلة دلت على انشغاله ، فبدا فى اضطراب حركته وقلق مظهره وشذوذ هندامة كهلا متعبا ضيق الصدر تلوح فى عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله . كان يدنو من ختام الاربعين ، عسيا أن يسترعى الانتباه بنحافة قامته وطولها واضطراب ملابسه اضطرابا يستدر الرثاء ، والواقع أن تكسر بنطلونه وانحسار ذراعى الجاكتة عن رسغيه ، وتلبد العرق والغبار على حرف طربوشه ، وتقبض القميص ، ورثاثة رباط الرقبة ، وصلعته

البيضاوية ، وسعى المشيب الى قذاله وفوديه ، كل أولئك أوهم بتكبير سنه ، وفيما عدا ذلك فوجهه نحيل مستطيل ، شاحب اللون ، ذو رأس صغير مستطيل ينحدر انحدارا خفيفا الى جبهة تميل الى الضيق ، يحدها حاجبان مستقيمان خفيفان متباعدان ، يظلان عينين بالغتين في امتدادهما وضيقهما ، فهما يكادان ان يملئا صفحة الوجه الضيقة ، فاذا ضيقهما ليحد بصره أو ليتقى شعاع الشمس بدتا مغمضتين واختفى لونهما العسلى العميق ، وقد تساقطت أهدابهما واحمرت احمرارا خفيفا ، يتوسطها أنف دقيق وفم رقيق الشفتين وذقن صغير مدبب . ومن عجب انه عد يوما ممن يعنون بحسن هندامهم وأناقتهم ، وبدا اذ ذاك فى صورة مقبولة ، ولكن اليأس والحرص وما اعتراه بعد ذلك من داء التشبه بالمفكرين نزع به عن أية عناية بنفسه أو بلباسه .

استقل الترام رقم «١٥» وقد افترت شفتاه عن ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنان مصفرة من فعل التدخين . ومن ميدان الملكة فريدة أخذ الترام رقم «١٩» وقد ارتكب خطأ سهوا ، فرمى بحكم العادة بالتذكرة التى قطعها فى الترام الاول وكانت توصله الى الازهر ، واضبطر أن يقطع تذكرة جديدة ضاحكا من نفسه فى غيظ ، وآلمه حرصه على تفاهة الغرم ، والحق أنه تعود منذ زمن بعيد ان يكون رب أسرة ، وان بقى لحد الآن أعزب ، بيد انه لا ينفق مليما بغير تململ ، فحرصه ليس من العنف بحيث يغله عن الانفاق ، ولكنه لا يعفيه أبدا من التألم كلما وجب الانفاق .

وانتهى الى ميدان الازهر ، واتجه الى خان خليلى يتسمت هدفه الجديد ، فعبر عطفة ضيقة الى الحى المنشود ، حيث رأى عن كثب العمارات الجديدة تمتد ذات اليمين وذات الشمال ، تفصل بينها طرقات وممرات لا تحصى ، فكأنها ثكنات هائلة يضل فيها البصر . وشاهد فيما حوله مقاهى عامرة ودكاكين متباينة — ما بين دكان طعمية ودكان تحف وجواهر — ورأى تيارات من الخلق لا تنقطع ، ما بين معمم ومطربش ومقبع ، وملأت أذنيه أصوات وهتافات ونداءات حقيقة بأن تثير اعصابا قلقة كأعصابه . فتولاه الارتباك واضطربت حواسه ، ولم يدر أيان

يسير ، فدنا من بـــواب نوبى اقتعد كرسيا على كثب من أحد الابواب وحياه ، ثم ســـــأله قائلا :

ـ من أين الطريق الى العمارة رقم « ٧ » من فضلك ؟

فنهض البـــواب بأدب وقال مستعينا بالاشارة ٠

ـ لعلك تسأل عن الشقة ١٢ التى سكنت اليوم ؟ ٠٠ انظر الى هذا الممر ، سربه الى ثانى عطفه الى يمينك فتصير فى شارع ابراهيم باشا ، ثم الى ثالث باب الى يسارك فتجد العمارة رقم ٧٠

فشكر وانطلق الى الممـــــر مغمغما « ثانى عطفة الى اليمين ٠٠ حسنا هاهى ذى ٠٠ وهاهوذا ثالث باب الى اليسار، العمارة رقم ٧ » ٠ وتريث قليلا ليلقى نظرة على ما حوله ٠ كان الشارع طويلا فى ضيق ، تقـــوم على جانبيه عمارات مربعـــة القوائم تفصل بينها ممرات جانبيـــة تقاطع الشارع الاصلى ، وتزدحم جوانب الممرات والشارع نفسه بالحوانيت ، فحانوت ســـاعاتى وخطاط وآخر للشاى ورابـــع للسجاد وخامس رفاء وسادس للتحف وسابع وثامن الخ الخ ٠ وتقع هنا وهناك مقاهى لايزيد حجم الواحدة عن حجم حانوت ، وقد لزم البوابون أبواب العمارات بوجوه كالقطران وعمائم كالحليب وأعين حالمة كأنما خدرتهـــا الروائح العطرية وذرات البخور الهائمة فى الفضاء ٠٠ والجـــو متلفع بغلالة سمـــراء كأن الحى فى مكان لاتشرق عليه الشمس ، وذلك أن ســـماءه فى نواح كثيرة منهـــا محجوبة بشرفات توصل ما بين العمارات ٠ وقد جلس الصناع أمام الحـــوانيت يكبون على فنونهم فى صـــبر وأناة ويبدعون آيات بينات من أفانين الصناعة ، فالحى العتيق ما يزال يحتفظ لليد البشريـــة بقديم سمعتها فى المهارة والابداع وقد صمد للحضارة الحديثة يلقى سرعتها الجنونية بحكمته الهادئة وآليتها المعقدة بفنـــه البسيط وواقعيتها الصارمة بخياله الحالم ونورها الوهاج بسمرته الناعسة ٠٠ قلب فيما حوله طرفا حائرا وتساءل ترى هل يستطيع أن يحفظ هذا الحى الجديد كما كان يحفظ حيه القديم ؟! هل يمكن أن يشق سبيله يوما وســـط هذا التيه تقوده قدماه وقد انشغل فكره بما ينشغل به من أمـــور دنياه ؟! ٠٠ ثم اقتحم البـــاب

مغمغما : « باسم الله الرحمـــن الرحيم » وارتقى درجات سلم حلوزونى الى الطابق الثانى حيث عثر بالشقة رقم ١٢ . وابتسمت أساريره لرؤية الرقم كأنه قديم عهد به وآنس اليه فى وحشته، ودق الجرس ، فانفتح الباب ، وظهرت أمه على عتبته تلوح فى ثغرها ابتســـامة ترحيب . وأوسعت له مستضـحكة وهى تقول : « أرأيت الى هذه الدنيا العجيبة ! » فجاز الباب وهـو يقول مبتسما : « مبارك عليك البيت الجديد ! » . فضـحكت عن أسنان مصفرة لانها كانت مولعة بالتدخين كابنها وقالت بلهجة المعتذر :

ـ قصارى ما وسعنا اليوم ان نفرش حجرتك وحجرتنـا .. وكان يوما متعبا حقا ولقد كسرت قائمة أحد الكراسى على ما بذلنا من حرص وتقشر مسند سريرك فى بعض المواضع .

ووجد أحمد نفسه فى صالة صغيرة مزدحمة بأحزمة المتاع والمقاعد وقطع الاثاث ، ووضعت السفرة فى وسطهـا وحملت بالآنية ولفات الابسطة ، وكان بها بابان على يمين الداخل ، فى مواجهته . فنظر فيما حوله فى صـــمت ، أما الام فـراحت تقول :

ـ الله يعلم انى لم أذق للراحة طعما فى يومى هذا ، فيا لشقاء الام التى لم تنجب أنثى تستعين بها عند الحاجة . ولقـد هربت أنت الى وزارتك وقبع أبوك فى حجرته كعادته ولم يتورع ـ غفر الله له ـ ان سألنى منذ هنيهـة عما هيأت لكم من طعام كأنما يسأل ساحرة تقـدر على كل شىء ! ولكن من حسن الحظ أن حينا الجديد غنى بمأكولاتـــه السوقية ، ولقد أرسلت الخادم لتبتاع لنا طعميـــة وسـلطة وباذنجانا ..

فتحلب ريق احمـد لسماع اسم الطعمية ولمح الرضاء فى بريق عينيه ، ثم سأل أمه :

ـ وهل ارتاح أبى واطمأن ؟

فابتسمت المرأة ابتسامـــة لطيفة دلت على أن بلوغها الخامسة والخمسين لم يفقدها كل ما كان لها من دلال أنثوى ، وقالت :

ـ ارتاح واطمأن والحمد لله وعسى أن يصدق رأيه . ولكن

الشقة صغيرة والحجرات ضيقات فحشرنا الاثاث فيها حشر، أو «اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين » ..

وجعل يصغى الى أمه ويتفحص ما حوله. فرأى ردهة تمتد من الصالة على يسار القادم ، على يمينها تقع حجرتان، وفى الناحية المقبلة المطبخ والحمام . وقد أشارت أمه الى الحجرة التى تواجه باب الشقة الخارجى وقالت له : « حجرتك » . اما حجرتا الردهة فقد اعدت أولاهما لنوم والدته ، وقالت أمه عن الاخرى «سنحتفظ فيها بأثاث أخيك ونتركها خالية على ذمته» . ومضى الرجل الى حجرة والده فرأى الشيخ مقتعدا سريره تلوح فى عينيه نظرة هدوء واستسلام . وكان عاكفا افندى احمد — كابنه — طويلا نحيفا ، ذا لحية كثة بيضاء ، وقد وضع على عينيه عوينات غليظة بعثت فى نظرته الذابلة بريقا خداعا ، وقد حدج ابنه بحذر وريبة وتوثب لرد العدوان اذا حدثت الرجل نفسه بالتهكم به بسبب النقل الى البيت الجديد وحياه أحمد وقال له :

— مبارك يا أبتى !

فقال الشيخ بهدوء .

— الله يبارك فيك . كل شىء بأمره !

فهز احمد رأسه وقال :

— ولكننا بالغنا فى خوفنا مبالغة تنكبت بنا عن جادة الصواب . ألا ترى يا أبتى أن ما بين السكاكينى وخان خليلى أدق من أن يدركه الطيار المحلق فى السماء ؟! .

فقال الاب بحزم :

— هذا الحى فى حمى الحسين رضوان الله عليه ، وهو حى الدين والمساجد ، والالمان أعقل من أن يضربوا قلب الاسلام وهم يخطبون ود المسلمين ! .

فابتسم احمد وقال :

— واذا ضرب خطأ كما ضرب السكاكينى خطأ من قبل ؟! .

فقال الرجل وقد ضاق صدره :

— لا تجادل فى الحق ، انى متفائل بهذا المكان خيرا ، وأمك به راضية ، وان كانت ثرثارة لا تعرف الحمد والشكر ، وأنت

نفسك مطمئن راض ، ولكنك تدعى حكمة زائفة ، وتتظاهر بشجاعة كاذبة ، هلم فاخلع ثيابك ودعنا نتناول غداءنا !.

فابتسم احمد وتراجع الى حجرته وهو يقول لنفسه : « صدق أبى » . وألقى على حجرته نظرة فاحصة ، فوجدها قد وسعت أثاثه تحت ضغط محا ما كان لها من تناسق ، فعلى الشمال الفراش ، وعلى اليمين صيوان الملابس ، تليه المكتبة كدست على كثب منها الكتب ، وكان بها نافذتان فرغب أن يلقى نظرة عجلى من كل منهما ، فدلف من اليمنى وفتحها وكانت تطل على الطريق الذى جاء منه ، ومنها استطاع ان يتبين معالم الحى من عل ، فرأى أن العمارات شيدت على أضلاع مربع كبير المساحة ، وأقيمت فى مساحة المربع التى تحيط بها العمارات مربعات صغيرة من الحوانيت تلتف بها الممرات الضيقة ، فكانت نوافذ العمارات وشرفاتها الامامية تطل على أسطح الحوانيت ، وتأخذ نصيبها من الهواء والشمس ، ولا يحجب عنها بقية العمارات حجاب ، فكان الناظر من احدى النوافذ الامامية يرى مربعا كبيرا من العمارات ينظر هو من نقطة فى أحد أضلاعه ، ويرى فى أسفله مربعات كثيرة من اسطح الحوانيت تخترقها شبكة معقدة من الممرات والطرقات ، ورأى فيما وراء ذلك مئذنة الحسين ، فى علوها السامق تبارك ما حولها . فارتاح الرجل لانطلاق الفضاء أمامه لان أخوف ما كان يخافه ان ينظر فلا يرى الا جدرانا صماء . ثم تحول الى النافذة الاخرى التى تواجه باب الحجرة وفتحها ، فرأى منظرا مختلفا ، ففى أسفل طريق ضيق يوصل الى خان خليلى القديم مغلقة حوانيته فبدا مهجورا وعلى الجانب الآخر من الطريق ، جانب من عمارة تواجهه نوافذها وشرفاتها عن قرب ، ثم تبين له أن سطحى العمارتين متصلان فى أكثر من نقطة وان أطباقهما المتقابلة متصلة كذلك بالشرفات مما جعله يحسب أنهما عمارة واحدة ذات جناحين وفى الطرف الايسر من الطريق يبدأ خان الخليلى القديم ، وقد رآه الرجل من نافذته اسطحا بالية ، ونوافذ متداعية ، وأسقفا من القماش والاخشاب تظل الطرق المتشابكة ، وفيما وراء

ذلك تملأ الفضاء المآذن والقبات وقمم الجوامع وأسوارها، تعرض جميعا صورة من الجو للقاهرة المعزية ، وكان يرى ذاك المنظر لاول مرة ، فأكبره على نفوره من الحى الجديد ، ومضى يسرح الطرف فى مشاهده الغريبة ، المترامية، وهى مشاهد حقيقة بأن تدهش عينين لم تألفا غير الورق ، ولاعهد لها بآيات الطبيعة أوالآثار على أنه لم يجد من الوقت متسعا فمالبث ان سمع نقرا على الباب وصوت أمه يدعوه قائلا :

ـ الطعمية جاهزة يا سعادة البيك .

فأغلق النافذتين وخلع بذلته ثم ارتدى جلبابه وطاقيته ،وهو يدعو ربه قائلا : « اللهم اجعله سكنا مباركا » الا أنه ـ فى نفس اللحظة وقبل أن يغادر الحجرة ـ جاءه صوت أجش من الطريق يصيح غاضبا : « الله يخرب بيتك ويحرق قلبك يابن .. » فرد صوت آخر بأقبح مما قذف به ، مما دل على أن اثنين يتقاذفان بالسباب كعادة أهل البلد ، فامتعض الكهل ولعنهما ساخطا وغمغم قائلا : « أعوذ بالله من الشؤم والتشاؤم ! » . ثم غادر الحجرة .

(٢)

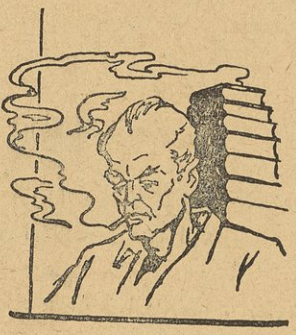

وأكل ألذ طعمية ذاقها فى حياته ، وأطراها بغير تحفظ ، فسر أبوه وعد ذاك الاطراء اطراء للحى الجديد ، فقال بحماس كبير : « أنت لا تدرى عن حى الحسين شيئا . فهاهنا ألذ طعمية وأشهى فول مدمس ، وأطعم كباب وأحسن نيفة وأمتع كوارع وأنفس لحمة رأس . هنا الشاى المنعدم النظير والقهوة النادرة المثال ، هنا نهار دائم وحياة متصلة ليلا ونهارا ... هنا ابن بنت رسول الله وكفى به جارا ومجيرا ! » .

ورجع بعد الغداء الى حجرته ، واستلقى على الفراش ينشد قسطا من الراحة ، وقد أقر فيما بينه وبين نفسه بأن دواعى سروره بالحى الجديد لا تقل عن بواعث ضيقة به . وقلب عينيه فى أنحاء الحجرة حتى استقرتا على أكداس الكتب المتراصة على كتب من المكتبة لم يهيأ لها التنظيم بعد ، فثبت عليها بصره فى ارتياح وسخرية . هذه كتبه المحبوبة ، وجميعها باللغة العربية ، لانه — على عهد الدراسة — لم يصب تفوقا فى الانجليزية فأهملها مضطرا بعد ذلك وانسيها أو كاد ، وأكسر من ثلثها كتب مدرسية فى الجغرافيا والتاريخ والرياضة والعلوم ، وبها عدد لا بأس به من مراجع القانون ومثله من كتب المنفلوطى

والمويلحي وشـــوقي وحافظ ومطران ، ومجموعة من الكتب الازهرية الصـــفراء في الدين والمنطق تاه بصفرتها عجبـــا واعتبرها آية العلم العســـير الذى لا ينفذ الى حقائقـــه الا الاقلون ، وهى لا تخلو كذلك من بعض مؤلفات المعاصرين التى يعد اقتناءها نفضلا منه . هذه هى مكتبته المحبوبة أو هى جل حياته جميعا . كان قارئا نهما لا ترى له غلة ، وقد أدمن على القراءة ادمانا قاتلا ، وأكب عليها عشرين عاما كاملة من عام ١٩٢١ ـ تاريخ حصوله على البكالوريا ـ الى عام ١٩٤١ ، فاستغرقت حياته جميعا . كان قارئا نهما لا تروى له غلة ، وقد أدمن على وآمالاله جميعا ، بيد انها امتازت منذ البدء بخصائص لم تفارقها مدى العشرين عاما . وهى أنها قراءة عامة لا تعرف التخصص ولا العمق ، نزاعة الى المعارف القديمة ، سريعة مضطربة ، لعل السبب فى عدم تركيزها ما كان من اضطراره الى الانقطاع عن الدراسة بعد البكالوريا ممالم يهيىء له فرصة منظمـــة للتخصص .

وكان لذلك الانقطـاع آثار بالغة فى حياته الاجتماعيـــة والنفسية ، لم ينج من شرها مدى الحياة ، أما سببه فهـــو ان أباه أحيل على المعـــاش فى ذاك الوقت ـ وكان يشـــارف الاربعين ـ لاضاعته عهـــدة مصلحية باهماله ، وتطاوله على المحققين الاداريين . فأجبـــر احمد عاكف على قطع حيـــاته الدراسية والالتحاق بوظيفـــة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما ، وصار الثـــانى موظفا ببنك مصر . وكان احمد طالبا مجدا طموحا واسع الآمال رغب من أول الامر فى دراسة القانون ، وطمـــع فى أن تنتهى به دراسته الى مثـــل ما انتهت بسعد زغلول نفسه ، وطوحت به الاحلام والامانى ، فلما أجبر على الانقطاع عن الدراسة أصابت آماله طعنة قتالة دامية ، ترنح من هولها ، واجتاحتـــه ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه ، فامتلأت نفسه مرارة وكمدا . ووقر فى أعماقه أنه شهيد مضطهد ، وعبقرية مقبورة ، وضحية مظلومة للحظ العاثر . وما انفك من بعـــد ذلك يرثى

عبقريته الشهيدة ويحتفل بذكراها لمناسبة وغير مناسبة ويشكو حظه العاثر ، ويعدد آثامه حتى انقلبت شكواه فصارت هوسا مرضيا . واعتاد زملاؤه ان يسمعوه وهو يقول بصوته المتهدج : « لو اتممت دراستي ـ وكان نجاحي مضمونا ـ لكنت الآن كيتا وكيتا ! » أو يقول متحسرا : « انى أدنو الآن من الاربعين ، فتصور ياصاح لو ان الحياة سارت كما ينبغي ، فلم يعترض مجراها الحظ العاثر أما كنت أكون محاميا قديما يعتز بخدمة في القضاء تناهز العشرين عاما ؟! . وماذا كان ينتظر من رجل في مثل جدى في غضون عشرين عاما ؟ » وربما قال متأسفا فاتتنا ظلما أخصب فترة في تاريخ مصر ، تلك الفترة التي تستهين باعتبارات السن والجاه الموروث ، ويقفز فيها الشبان الى كراسي الوزارة! . ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم ، وليس نادرا أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه ، ويقول بانكار : « أتعرفون فلانا الذى يقولون عنه ويعيدون ؟! .. زاملني عهد الدراسة فصلا فصلا ، وكان تلميذا خاملا لايطمع أن يدركني يوما ما! » . أو يهتف متهكما « يالطف الله !.. وكيل وزارة ! .. ذاك الغلام القذر الذى لم يكن يعى مما يلقى عليه شيئا ؟! .. هى الدنيا ! » . ثم يروح محدثا اخوانه بأى نبوغه المدرسى ، وما تنبأ له به المدرسون ، هكذا تلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق ، واعتداد كاذب بمواهبه ، مما جعل حياته عذابا متصلا وشقاء مقيما . ثم وجدت هذه العبقرية المزعومة نفسها مهملة في الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الاشغال ، ولكنها لم تسكن ، ولم تستسلم ولم تيأس . ومضت تلتمس السبل الى تحطيم الاغلال ، وشق الطريق الى الحرية ، والمجد والسلطان ، وكابدت التجارب وتوثبت للمحاولة تلو المحاولة . وقد فكر أول ما فكر في التحضير ـ من بيته ـ لشهادة القانون ، فهو العلم الذى انجذبت اليه آماله من بادىء الامر ، ولم يكن عن الشهادة من محيد ، لان المحاماة لم تعد اجتهادا كما كانت على عهد سعد والهلباوى . فراح يقتنى الكتب القانونية ، ويستعير المذكرات ، وأكب على الدراسة

عاما مدرسيا كاملا تقدم فى نهايته الى الامتحان . ولكنه سقط فى مادتين ! . وطعن كبرياؤه طعنة نجلاء ، وأحرج أمام الذين تتبعوا أنباء عبقريته باهتمام ، وجعل يعتذر عن اخفاقه بوظيفته ، وبادعاء مرض وهمى أقعده عن مواصلة الدرس، ولم ينثن عن ادعاء المرض بعد ذلك على سبيل الاحتياط والحذر، وخاف ان يجرب الامتحان مرة أخرى ، وأشفق من تعريض عبقريته للتجارب الظاهرة التى يطلع الناس على نتائجها ، فمال الى العمل الحر ، وبادر باعلان احتقاره للامتحانات والشهادات ، ثم أقنع نفسه بأن اخفاقه فى امتحان القانون ، جاء نتيجة لعدم استعداده له ـ لا لتقصير أو قلة كفاية ـ وعدل عند ذاك عن دراسته ليجد المجال الطبيعى الذى خلقت له عبقريته الشهيدة وهكذا خسر عاما وربحت مكتبته عددا لايستهان به من كتب القانون ، ثم فكر فى تكريس حياته للعلم وتحير بين الابحاث النظرية والاختراعات العملية أيها يختار ! . ثم أقلع عن فكرة الاختراع بحجة ان البلد خالية من المصانع والمعامل وهى ميادين التجارب ، ومهبط الوحى الابداعى ، وركز آماله فى العلم النظرى ، وطمع فى أن يكتشف نظرية يوما يغير بها آفاق العلم الحديث ، ويقفز الى سماء الخلود بين نيوتن وانشتين .. وتوثبت به الهمة ، فراح يبتاع ما وقعت عليه يداه من ملخصات الطبيعة والكيمياء ، ويطالعها باهتمام وشغف . وبعد دراسة عام طويل وجد نفسه حيث بدأ لم يتقدم خطوة نحو هدفه البعيد ، ثم اقتنع بأن التعمق فى العلم يتطلب دراسة تحضيرية لم تتح له .

وغلبه الجزع وكثيرا ماكان يغلبه فيئس من الدراسة العلمية النظرية .. وسوغ يأسه لنفسه بأن البحث النظرى ليس دون الاختراع حاجة الى المعامل ومعاهد الابحاث وان جو مصر بصفة عامة لم يتهيأ بعد للعلم . ولم يجد ضرورة للاعتذار هذه المرة عن اخفاقه للغير ، لانه كان تعلم ان يخفى أهدافه عن الناس جميعا ، بيد ان ذلك لم يمنعه من أن يذيع بين الزملاء والصحاب انه يكرس وقت فراغه للمعرفة والاطلاع .. المعرفة

الحرة التى تسمو على الدراسة المدرسية والشهادات الحكومية ، والاطلاع العميق الذى لايجعل من صاحبه عالما بعيد الغور . وضاع عام ثان زادت فيه المكتبة صنفا جديدا من كتب العلم . ثم تساءل متعبا متحيرا ترى لاى شىء خلقت مواهبه على وجه التحقيق ؟! .. لاشك أنه لم يعرف نفسه بعد ولو عرف نفسه لحفظ وقتا ـ أحق به ان يحفظ من الضياع هدرا بغير ثمرة . فما حقيقة ميوله ؟! . لقد انتهى من القانون والعلم ولكن ليس القانون والعلم بكل شىء . هنالك ما يضارعهما جلالا وجمالا ، فما سر ولعه بشوقى والمنفلوطى ؟! ما طربه للبيان الساحر ؟! ألا يجوز أن يكون استعداده الحق للأدب ؟! وأجمل به من فن لايستوجب التمرس به شهادة ولا دراسة مدرسية . فما عليه الا أن يقرأ كما قرأ شوقى وحافظ ومطران من قبل . وما عتم ان استقبلت مكتبته ضيوفا جددا من أزاهر الشعر والنثر أكب عليها بشغف وحماس بلغ حد الغضب . ووقع فى رحلاته على قول ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الادب وأركانه أربعة دواوين وهى كتاب الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب النوادر لابى على القالى البغدادى وما سوى هذه الاربعة فتبع لها وفروع منها » فتنهد ارتياحا كأنما وقع على كنز واقتنى الاركان الاربعة . وقرأها جميعا بما طبع عليه من حماس وسرعة فلما أن فرغ منها تساءل مسرورا : « هل صرت الآن أديبا ؟ » . وأمسك بالقلم وصدقت عزيمته على أن يكتب ، وكتب موضوعا سماه : « على شاطىء النيل » أفرغ فيه فنه والهامه ، وأرسله بالبريد الى احدى المجلات . ومضى يتخيل ما عسى أن يستقبله به القراء من الاكبار والاعجاب ، وكيف انه قد يكون أول درجات الشهرة والمجد ، وحسبه هذا فما يطمع فى أجر غير المجد الادبى وظهرت المجلة وفتش عن مقاله فما وجد له أثرا ففتر حماسه ، وتعثرت أمانيه فى الخجل ، ولكنه لم ييأس فناجى نفسه يستنظرها أسبوعا آخر ، ومضت أسابيع دون ان تتاح للمقال فرصة الظهور . لقد قرأ أركان الادب الاربعة التى

يعد ما سواها تبعا لها وفروعا منها ، فهو أديب يحكم ابن خلدون ، وما أدراك ما ابن خلدون ! . . فكيف لم ينشر مقاله !.. هل أهمل القوم نشره لان كاتبه غير معروف ؟. أولانه لم يستشفع اليهم بشفيع؟ أو تراهم عجزوا عن فهمه ؟! . وفكر فى أن يذهب الى المجلة بنفسه ليقف على حقيقة الامر ، ولكنه لم يستطع لان خجله كان يقف له بالمرصاد دائما . ثم تناسى آثار الصدمة الاولى وكتب مقالا ثانيا عن العدالة فلم يكن حظه أحسن من الاول ، فكتب ثالثا عن « جناية الفقر على النبوغ » فلم يكن خيرا من سابقيه .. وتوثب للكتابة بعناد واصرار من ناط بها أمله الاخير فحطمت محاولاته جميعا على صخرة الاهمال الباردة . وأعاد كتابة أكثرها وأرسلها الى مجلات مختلفة فلم يجد بينها من ترحم أمله المعذب ، وتنقذه من هاوية القنوط . وكان آخر مقال كتبه عن « تفاهة الادب » فضاع كما ضاع اخوته . وانكسر عن محاولاته محطم النفس مطعون الفؤاد . لقد تآمر عليه سوء الحظ ـ عدوه القديم ـ وخبث طوايا النفوس ولؤم الطباع فلم يساوره شك فى قيمة مقالاته الادبية ، بل ظنها خيرا مما بدأ المنفلوطى نفسه ومايتيه به كثير من المعاصرين ، ولكنه سوء النية وفساد الطوية !.. وتبددت الاحلام جميعا . ألا ما أضيق العيش وما اظلمه . ورمى بالقلم ، وتضاعف مابه من حقد وتمرد وألم ، ويئس أخيرا من المجد والسلطان ، وامتلأت نفسه سخطا وغضبا على الدنيا والناس ، والعظمة والعظماء خاصة !. وما العظمة؟. أو ما العظمة كما تعرفها مصر؟. أجاب على ذلك بكلمة واحدة « الظروف المواتية » . بل قال عن سعد نفسه على حبه « لقد مهد له صهره سبل النجاح ولولا صهره ماكان سعدا الذى نعرفه » . وكان يردد كثيرا : « ان الوظائف الكبرى فى مصر وراثية؟ أو يقول: اذا أردت التفوق مجتمعا فعليك بالقحة والكذب والرياء ، ولاتنس نصيبك من الغباء والجهل » أو يقول ساخرا : « ما هؤلاء الادباء الذين يملأون الصحف والمجلات ؟! . أمن الادب الحق ان تستعين على البروز فيه بالسياسة والحزبية ؟! . وهل يعجز عن بلوغ ما بلغوا من مجد

كاذب الا كريم ؟! » أو يقول محتدا غاضبا « والله لو أردت ان أكون عظيما فى مصر ماعجزت .. ولكن قاتل الله الكرامة ! » وحرق الغضب نفسه حتى تركها شعلة من لهب غير مقدس وحطاما من رماد . ولكن الحياة لا تحتمل الغضب فى كل حين ، فما من معدى عن سويعات راحة وان تكن راحة القنوط ، فكان يستريح الى اليأس كلما لج به الغضب أو الحقد . وفى تلك السويعات كان يقول لنفسه الا ماجدوى العناد فى هذه الدنيا ! .. اذا كنا نموت كالسوائم وننتن فلماذا نفكر كالملائكة ؟ .. هبنى ملأت الدنيا مؤلفات ومخترعات فهل تحترمنى ديدان القبر أو تلتهمنى كما التهمت جثتى رية وسكينة ؟! .. الدنيا أكاذيب وأباطيل وما المجد الا رأس الاكاذيب والاباطيل . وسلم نفسه الى عزلة عقلية وقلبية مريرة . يئس من الحياة فهرب منها ، ولكنه خال وهو يدبر عنها يائسا عاجزا ، أنه يزهد فيها متعاليا متكبرا . ولذلك لم يهجر عادة القراءة ، لان الكتب تهيىء للانسان الحياة التى يهواها ، فتعالى بحياة الكتب على حياة الدنيا ، وظفر منها ببلسم لآلام كبريائه ، واستعار مابها من قوة ، فخالها قوة ذاتية ، وكأن أفكارها أفكاره وسيطرتها سيطرته وخلودها خلوده . وقد عدل - بعد اخفاقه المتواصل - عن القراءة المنظمة المحددة الهدف ، واندفع يقرأ ما تقع عليه يداه وعنى عناية خاصة بالكتب الصفراء لانها فى نظره عسيرة وعزيزة المنال . وانكب على القراءة بسرعة وشراهة وأعصاب متوترة فلم يتمتع بقراءة مجدية ولا نافعة وأصابه سوء هضم عقلى فكان يعرف أشياء وأشياء ولكنه لم يتقن شيئا أبدا . ولم يتعود عقله التفكير مطلقا ولكن كانت الكتب تفكر له وتتأمل بدلا منه . ولم يكن يعنيه التفكير ولا التأمل وانما كان همه الحقيقى ان يحدث الغد بما قرأ بالامس ، وان يحاضر الزملاء من الموظفين والصحاب - بلهجة الفيلسوف المعلم - فيما وعته الذاكرة وحفظته ، ولذلك سماه موظفو المحفوظات بالاشغال «الفيلسوف» فسر بالتسمية وان كان ما بها من التوقير يعادل ما بها من

التحقير . ولم يكن للفيلسوف رأى يثبت عليه لانه كان يقرأ ولا يفكر ، وعسى أن ينسى ماقال بالامس القريب، وعسى أن يقول غدا ما يناقض قوليه جميعا ..وهو سباق الى أى رأى مادام فيه رضاء لكبريائه وغروره وولعه بالظهور ، فلهج بالمعارضة واللجاج فاذا قال محدثه يمين قال شمال ، وان قال أبيض قال أسود ، ثم يندفع فى النقاش بعنف واحتداد وضيق صدر حتى ليوشك ان يأخذ بتلابيب مناظره ! وليس يعنى هذا حتما انه غبى . والحقيقة انه كان عادى الذكاء . فلم يهبط عقله الى البلادة والغباء ولم يعل للنبوغ فضلا عن العبقرية ولكن خدعه عن حقيقة نفسه طموحة للمجد وهيامه بالعبقرية فضل ضلالا بعيدا . وزاد من أسباب تعاسته ما فطر عليه من حساسية مرهفة مضطربة فقلت فيه روح الصبر والمثابرة والتأمل والتفكير ، فصار دماغه وعاء خليط من معارف شتى بدل ان يكون رأسا مفكرا . ولا شك ان الارق الذى مرض به نصف عام من حياته كان من جملة الاسباب التى عقم بها عقله . وقد أشفى به على الجنون والموت وسهر الليالى ذاهلا أو هاذيا ، ثم أدركته رحمة الله فتعافى بعد يأس . ويرجع السبب المباشر لمرضه الى تجربة خطيرة خاض غمارها غير حافل بعواقبها . ذلك انه كان يؤمن بالسحر ولا يشك فيما يلقى على سمعه من أساطيره . وعثر يوما بموظف قديم راسخ الاعتقاد فى السحر والشياطين فأقبل عليه بشغف واهتمام ، وبعد ان توطدت الصداقة بين الاثنين أعاره الرجل بعض كتب قديمة عن السحر وتحضير الشياطين ككتاب خاتم سليمان ، والقمقم، ويا أسيادى . وطار بها الشاب سرورا وعدها أجل ما بلغته يداه من زبد العلم والحقيقة ، وعكف عليها بحماس ويقين يحل رموزها ويفقه أسرارها، ويتحرق شوقا الى وقت يتاح له فيه السيطرة على القوى الكونية والاستئثار بمفاتيح المعرفة والقوة والسلطان ! . أوشك أن يجن لهفة وأن يذوب هياما .. متى يدين له عرش النفوذ اللانهائى فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ، يعبث بما يشاء فيرفع ويخفض ويغنى ويفقر ويحيى

ويميت ؟! ولكن لم تحتمل أعصابه الجهاد طويلا ولا قدر على قضاء الليالى الطوال مختليا بأرواح الشياطين فاضطرب حبل أمنه وأرهقت أعصابه وصرعه الخوف والوهم فتلقفه المرض وأوشك أن يسلمه للجنون أو الموت ! . ولم يربدا من العدول عن سعيه والنزول عن اطماعه فأعاد الكتب الى صاحبها ويئس من المجد للمرة الاخيرة بعد ان جرب جميع السبل والمسالك المفضية اليه . وجعل يتساءل فى حزن بالغ : ماذا بى ؟ هل حل فى روح نجس؟ لماذا أصرع دائما اذ لا يفصل بينى وبين ما أريد سوى ذراع؟! وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والاوهام واطرد مجرى الايام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ ، بل جعل يجد لالمه لذة غامضة . وكان يتوهم حدوث الظلم بداع وبغير داع ويتلقى ما يقضى به عليه من ألم ممتزج بتلك اللذة الخفية . وعسى ان يتساءل متحديا ساخرا : أليس جليلا ان ينهض العالم جميعه لمقاتلة انسان فرد؟! .. أليس مما يطيب به الغرور ان يتوفر له سوء الحظ ذلك التوفر الذى ان دل على شىء فعلى الحسد والخوف ؟! بلى فقد قضى لحكمة سلفت أن يكون الشقاء نصيب العقول الفذة فى هذه الدنيا ! ..

وقد كان لالتذاذه الظلم هذا أثر فى توجيه ميوله السياسية المتقلبة ، فمال دائما الى الحزب المغلوب على أمره بصرف النظر عن مبادئه السياسية ، وسرعان ما يتمثل نفسه فى موقف زعيمه يتلقى من ضروب الاضطهاد والاعتداء وينوء بما ينوء به من ألوان التبعات والواجبات يجد فى هذا وذاك ألما لا حصر له ولذة لا شبهة فيها .

والواقع ان خلقه هذا لم يتكون اتفاقا ولا تحت تأثير الاخفاق فحسب ولكن له أصول بعيدة ترجع الى عهد نشأته الاولى ، حين كان الطفل الاول لوالديه ، فدرج على الرعاية والحب والتدليل .. ولكنه كان ـ كذلك ـ الطفل الذى أدخره حظه لكى ينهض بأعباء أسرة منحطة وهو دون العشرين ، فلم تتلطف معه الدنيا ـ فضلا عن أن تدلله ـ ساعة واحدة ! ..

لبث مستلقيا فى الفراش دون أن يغمض له جفن . وجعل يقلب عينيه فى سقف الحجرة وجدرانها وأرضها . وتساءل قلقا ترى هل تطيب له الحياة فى هذا الحى العجيب ؟! . ونازعه الحنين الى شارع قمر وحى السكاكينى والبيت القديم ، على أنه لم يفارقه كذلك ذاك الشعور المشرق بالامل الوضاء بالتطلع . ثم ملأت البيت حركة متصلة وأتاه صوتا أمه والخادم فأدرك أنهما يستأنفان نشاطهما لفرش الشقة واعداد الحجرات . وتصاعدت اليه من الطريق ضجة مزعجة وضوضاء فظيعة فأنكرها وأصغى اليها بانتباه فتبين له أنها أصوات أطفال يلعبون ويغنون . وكأنه ضاق برقاده ذرعا فنهض الى النافذة المطلة على العمارات وفتحها وراح ينظر منها الى الطريق ، فرأى جماعات من الصبيان والبنات يملأون الطريق متصايحين متضاحكين وقد انقسموا فرقا أكب كل فريق على رياضة ، فبدأ الطريق وكأنه ناد رياضى ساذج . فهذه جماعة تلعب بالجديد وتلهب الاكف بالطرة وهذه جماعة تلعب بالبلى ، وتلك عصبة تحجل وتلك أخرى تتصارع ، واقتعد الصغار الطوار يرقصون ويغنون ويصفقون . اضطربت الارض وضج الجو وثار الغبار فأيقن ان لا قيلولة منذ اليوم ! وسمع أناشيد عجيبة مثل « ياعم يا جمال .. » و « ياولادحارتنا توت توت » و « الجبل ده عالى يا عمى » الخ الخ . فحار بين الدهشة والحنق والسرور ! ثم تصاعد صوت جهورى أجش غليظ النبرات يصيح كالرعد القاصف « ملعون أبو الدنيا !» وكرر صياحه بصوت منغوم على ايقاع كفين شديدين !.. وكان الصوت صاعدا على الارجح من دكان تحت النافذة مباشرة ولكن من داخلها فلم يستطيع رؤية ذلك الذى يتغنى بسب الدنيا ولكنه لم يتمالك نفسه فأغرق فى الضحك حتى تورد وجهه الشاحب . واشرأب بعنقه من النافذة فاستطاع أن يرى لافتة الدكان وقد نقش عليها بخط جميل « نونو الخطاط » ! . . ترى هل يكتب الرجل لوحات فى سب الدنيا ويبيعها المتذمرين والساخطين ؟! . . الا ما أجدر أن يبتاع منها ما يشفى غليله !

(٣)

واختفى شعاع الشمس المنعكس على زجاج النوافذ العليا من العمارات التى تواجه نافذته ، فأدرك أن الشمس تغيب وراء قباب القاهرة المعزية بالجهة الخلفية ، وصعد بصره الى مئذنة الحسين السامقة تنطلق بجلال فى غلالة من ظلال المغيب فهزت مشاعره وأيقظت قلبه . ثم ارتفق حافة النافذة يردد ناظريه ما بين أسطح الدكاكين التى تتوسط العمارات ، والنوافذ والشرفات المطلة من واجهات المبانى ، والممرات المتقاطعة . رأى نوافذ مغلقة وأخرى شبه مفتوحة ، وشرفات تسعى فيها ربات البيوت يجمعن الغسيل أو يملأن القلل ، وقد أوشك الطريق ان يخلو من الصبية كأنما أفزعها دنو الليل . وكان يرغب ان ينطلق الى الخارج ليرى عن كثب مشاهد الحى الجديد ويكتشف طرقاته ومسالكه ، ولكن غلبه التعب لما بذل من جهد فى تنظيم مكتبته ، هذا الى تعوده لزوم البيت حتى يدر ان يفارقه بعد عودته من الوزارة ، فأجل تنفيذ رغبته ، وترك النافذة فتربع على شلتة ـ وهى جلسته المختارة اذا تهيأ للقراءة ـ واستخرج من المكتبة كتابا يقرأ فيه حتى يأزف ميعاد

النوم ٠ ٠

وكان والده فى تلك الاثناء يتربع على سجادة الصلاة والمصحف بين يديه يتلو ما تيسر منه فى صوت مسموع ، غير منتبه الى اخطاء القراءة العديدة التى يتتابع عثوره بها ٠ كان عاكف افندى احمد فى الستين من عمره ، وقد أرسل لحية بيضاء اكسبت وجهه النحيل وقارا ، وفرض على نفسه عزلة قاسية عقب احالته على المعاش وهو فى أواسط العمر ومشرق الآمال ، وبدا كأنه كرس حياته للعبادة وتلاوة القرآن ، ولم يكن يفارق البيت الا فترات متباعدة للتريض المنفرد أوزيارة الاضرحة ٠ وربما كان لعسره المالى ـ اذ لم يجاوز معاشه ستة جنيهات ـ الاثر الاول فيما اتخذ فى حياته من نظام ، ولكنه رضى أخيرا عن طيب خاطر بحياته وألفها بل وأحبها أيضا شاكرا حامدا ٠ وكانت أقسى أيام حياته وآلمها تلك التى أعقبت احالته على المعاش ٠ فقد انقطع مورد رزقه أو كاد ، وتهددت الفاقة أسرته البائسة ، وأجبر على اعتزال العمل والنشاط ، وأقصى عن الوظيفة وجاهها ٠ وهب كالمجنون للذوذ عن كيانه ، فسعى كل سعى واستشفع بكل شفيع ، ولكن ذهبت مساعيه أدراج الرياح ٠ قدم العريضة ، والالتماس وراء الالتماس دون جدوى أو رجاء ، حتى علم أخيرا بالحقيقة المحزنة وهى أن باب الحكومة قد أغلق دونه الى الابد ٠ وكان فى الحقيقة طاهر اليد الا انه ثبت اهماله وجاء تطاوله على المحققين فزاد الطين بلة ، ثم لم يسكت بعد ذلك عن شكوى الظلم والظالمين ، واستنزال اللعنات عليهم أجمعين ٠ وراح تحت تأثير الغضب والحنق واليأس يتهكم بالحكومة والموظفين ، ويقول انه أحيل على المعاش لانه أبى أن تمس كرامته ، وأن الوظيفة أضيق من أن تتسع لانسان يحترم نفسه ، وبعد أن دان ينكر تطاوله على هيئة المحققين ؛ جعل يفاخر به ويبالغ فيه ٠ ولم يعدله حديث سواه ، فصار ضحكة المتغامزين ، وفقد عطف الصحاب والاقارب ٠ وحافظ بادىء الامر على صلته بالناس ، فتردد على قهوة فيتا بغمرة يلاعب بعض الصحاب النرد ، ولكن خلقه ساء بعد فاجعته ، فأصبح

ضيق الصدر سريع الغضب ، فاحتد يوما على لاعب فانفجر الآخر هائجا وصاح به : « ياطريد الحكومة ! » فلم تطأقدمه قهوة بعد ذلك ، وانزوى بعيدا عن الناس والدنيا واختار العبادة ملاذا وسكنا ، ولم يعد للماضى من أثر فى نفسه ، وسارع بالشفاء اليه نهوض ابنه احمد بأعباء الاسرة ، وكأن الابن قد ورث عن أبيه تبعته ومرضه !

على أنه لاينبغى ان نهمل عاملا هاما فى شفاء الاب ،وهوالام. حوت منذ البدء مزايا لا يستهان بها فى حساب السعادة العائلية فتمتعت بنصيب موفور من الحسن الذى رمقته القاهرة على أيام شبابها بعين الاكبار والاعجاب،وما زالت ـ وقدشارفت الخامسة والخمسين ـ على وسامة وقسامة ، وولع بالصبغ والالوان وذوق فى الازياء ، وما زالت لحيمة جسيمةوان اعتورها الاسترخاء، خبيرة بوصفات السمن والتجميل ، مشهورة بخفة الروح والدعابة اللطيفة والنادرة الحلوة، لاتضاهيها امرأة فى قدرتها على أن تألف وتؤلف ، فكثرت صويحباتها وتعددت البيوت التى تزورها وتستزيرها ، واستقبلها النسوة والاوانس بالسرور والغبطة شأن أعضاء الاسرة ولذلك لم تتأثر بالضائقة التى نزلت بيتها فلما انقبضت يد بعلها عنها انبسطت لها أيادى الصديقات الحبيبات بالهدايا ، فحافظت على مستواها المعهودمن الاناقة والتجميل . وكانت لها على زوجها دالة ، فمسحت عن صدره الحزن بلطفها ودعابتها وتفاؤلها ، وكانت تقول له ضاحكة: « لقد انتهيت ياعاكف افندى من الحكومة فافرغ لى ! » أوتداعب لحيته قائلة : « من أجل الورد ينسقى العليق !» . ولكن كان صدرها يضيق اذا رأت بعلها مكبا على القرآن ، وبكرها عاكفا على كتبه ، فتصيح بهما : « هلا علمتمانى القراءة لاجاورمعكما؟!» ولشد ما أحنقها أحمد باهماله نفسه ،فكانت تروح على خديها كأنها تلطمهما وتهتف به مؤنبة : « كبرت أمك ، وجعلت سمعتها كالطين !. هاك الكواء فما لبدلتك مسترخية متقبضة ؟! .. وهاك الحلاق فما لذقنك مخضرا ؟! .. والدنيا بالافراح حافلة فما انزواؤك بين الكتب الصفراء ؟! كيف تركت رأسك يصلع

« قذالك يشيب ؟! .. كبرتنى .. كبرتنى .. كبرتنى!» فكان أحمد يبسم اليها ساخرا ويغيظها قائلا : « ألطمى كيف شئت ألست فى الاربعين ؟! » فيهولها التصريح بالحقيقة الفظيعة ، وتنهره قائلة « اخرس .. قطع لسانك الطويل .. هل رأت الدنيا قبل اليوم ابنا يدعى عمر أمه ؟! »

ومع ذلك فلم تخل حياتها من الحزن . كانت مريضة ، أو هكذا توهمت ، ولكن لم يأس على مرضها احدا ممن حولها . وقد اقتنعت على مر السنين بأن عليها أسيادا ، وبأن لاشفاء لها الا بالزار ، وطالما توسلت الى بعلها ليسمح لها باقامة حفلة زار ، ولكن الرجل لم يصغ الى توسلاتها . واستقبح احمد الفكرة وان لم يساوره شك فى وجود العفاريت ، وكان قريب عهد — وقتذاك — بالتجربة التى أوشكت ان تنتهى بجنونه ،فيئست المرأة استمالتهما وقنعت بشهود حفلات الزار اذا اتفقت فى بيوت الصديقات ، حتى قال أحمد يوما متعجبا : حقا أن أسرتنا ضحية الشيطان...ألم يغر والدى بتحد لكلب حقير من الموظفين ففقد وظيفته ؟! .. وألم يحضنى على تعلم السحر فأشفيت على الجنون ؟! وها هو ذا يركب أمى ويهيىء لها خرابنا ! »

ولكن الله سلم فقد غلب مرح الست دولت — أم احمد — على حزنها كما غلبت الحناء على ومضات المشيب بمفرقها ! ..

* * *

لم يستطع أحمد أن يركز انتباهه فى القراء لما أحدثه تغيير المكان فى نفسه من اليقظة والقلق ، فمضى فى مطالعة فاترة متقطعة . . . ومضى من الليل ساعة فسكتت ضوضاء النهار ، ولكن لتحل محلها ضوضاء أشد وأفظع سرعان ما جعلت الحى جمعه كمسرح من مسارح روض الفرج الشعبية . أما مصدرها فالقهاوى العديدة المنتشرة فى جوانب الحى ، فالراديو يذيع أناشيده وأحاديثه بقوة وعنف فكأنه يذيع فى كل شقة ، والندل لا يكفون عن النداء والطلب فى أصوات ممطوطة ملحنة « واحد ساده . . شاى أخضر . . تعميرة على الجوزة . . وشيشة حمى . . » ودق قطع النرد والدومينو

وأصوات اللاعبين ! فخال نفسه فى طريق مزدحم بالمارة لا فى شقة ، وعجب كيف يحتمل أهل الحى ضوضاءه أو كيف يغمض لهم جفن ؟! .

ولم يزل ملازما الشلتة حتى بلغت الساعة التاسعة فقام لينام ، وأطفأ المصباح ورقد على الفراش بعد أن أحكم غلق النافذتين ، ولكن الضوضاء لم تزل تملأ حجرته وتدوى فى أذنه ، فذكر سكون السكاكينى فى مثل هذه الساعة من اليوم وتأسف من الأعماق ، ثم لعن الغارات التى أجبرتهم على هجر مسكنهم القديم الهادىء ، فاستثار ذكرى تلك الليلة الجهنمية التى زلزلت القاهرة زلزالا مخيفا ، وملأت الذكرى شعوره وضاعف من تأثيرها جثوم الليل حتى لم يعد يحس من ضوضاء الطريق ركزا ولا همسا .

كانت الدنيا نائمة ـ تلك الليلة المفزعة ـ يستقبل ليلها هزيعه الأخير . وكما تعودت القاهرة فى مثل تلك الساعة من الليل أطلقت صفارات الانذار نعيرها المتقطع الذميم ، فاستيقظت الأسرة ونهض أحمد لاطفاء المصباح الساهر فى الصالة الخارجية ثم عاد الى رقاده ليغط فى النوم مرة أخرى شأنه كل ليلة ، اذ لم تعرف القاهرة قبل تلك الليلة الا الغارات الاستكشافية ولم تسمع سوى طلقات المدافع المضادة للطائرات . ولكنه لم يسكن الى النوم وراح يرهف أذنيه رافعا رأسه عن الوسادة فى دهشة وانزعاج ، فقد سمع بوضوح أزيز طيارات ما فى ذلك من شك ، اتصل وقعه لا يغيب ولا يهن ، بل جعل يزيد وضوحا ويعلو شدة فضاق به صدرا وامتلأ منه رعبا . ولكن خاطرا طمأنه بعض الاطمئنان ، فلم يفصل بين سكوت الصفارة وسماع الازيز الا دقيقة أو بعض دقيقة وهى مدة غير قصيرة كافية بطبيعة الحال لوصول الطيارات المعادية حيث يسبق الانذار وصول الطيارات بربع ساعة على الأقل ، فبات مرجحا أن تكون الطيارات انجليزية حلقت للمطاردة . وانتظر أن ينقطع الأزيز ولكنه اتصل اتصالا مرهقا للأعصاب وكأن الطيارات اختارت بيتهم مركزا تدور من حوله . ونهض ثانية وغادر الحجرة يتلمس طريقه فى الظلام الى

حجرة والديه وقال عند الباب بصوت مسموع « هل أنتما مستيقظان ؟ » فجاءه صوت أمه قائلا « لم ننم بعد ، أما تسمع شيئا ؟ » فأجاب أحمد « بلى أسمع أزيز طيارات . . وقد سمعته عقب الانذار مباشرة ! » فقال والده « الأغلب أن تكون انجليزية » فقال أحمد « لعلها ! » . وطمأنه اتفاق الظن بينه وبين أبيه فعاد الى حجرته . وقبل أن يمس جنبه الفراش أضاءت الحجرة المظلمة بنور عجيب آت من الفضاء أعقبه صفير مبحوح انتهى بانفجار شديد دوى فى سماء القاهرة دويا شديدا مزعجا ، فانتفض رعبا وتولاه فزع جنونى وقفز نحو الباب لا يلوى على شىء ، وضاعف من رعبه أن الحجرة لم تزل مضاءة بذلك النور الوهاج الذى اخترق نوافذها من الخارج داعيا القذائف الى أهدافها . وتتابعت الانفجارات الشديدة واختلط تفجرها بذلك الصفير المبحوح الممقوت ، فارتجت الأرض ارتجاجا وزلزل البيت زلزالا ، ولم ينقطع الضرب لحظة واحدة وبدا كأن السماء ستظل تقذف الأرض بهاتيك الرجوم الشيطانية فى ذاك العناد الشيطانى الجبار . ووجد والديه فى الصالة ، الأب معتمدا ذراع الأم يوشك أن يسقط صريع الفزع والارهاق ، فهرع اليهما وتأبط ذراع والده وصاح بهما « هلما الى مخبأ العمارة » ومضوا مسرعين تتقدمهم الخادم ، وتساءل الأب بصوت متهدج مضطرب « ما هذا النور ؟ هل شب حريق فى الخارج . » فقال أحمد وهو يعالج أنفاسه المضطربة ويتبين مواقع قدميه من السلم « هى مصابيح المغنسيوم التى قرأنا عنها فى الجرائد » فقال الرجل « ربنا يلطف بنا » . وكان السلم مكتظا بالهابطين الداعين الله من قلوبهم الواجفة ، وكلما حدث انفجار ارتجت الجدران وتعالى صراخ يصم الآذان وصوتت النسوة وأعول الأطفال . وانطفأ نور المغنسيوم فجأة والضرب فى عنفوانه والموت فى حومانه فساد الظلام ، وحدث هرج ومرج فزلت أقدام وعثر أناس وزاد الفزع والارتباك ، ثم بلغوا مخبأ العمارة ـ البدروم ـ بعد جهد جهيد . وكان مضاء بمصباح خافت ، مغطاة نوافذه بستائر كثيفة سوداء ، واعتمد سقفه على عمد أفقية قامت على عمد حديدية رأسية ، ووضعت

حول جدرانه أكياس من الرمل . وعلى ضوء المصباح الخافت لاحت وجوه تعلوها صفرة الموت ، جاحظة عيونها مرتجفة أوصالها ، هاذية السنتها . ووقفوا ثلاثتهم متقاربين يذوبون لهفة أن يكف الضرب لحظة واحدة فيأخذوا أنفاسهم ويبلوا ريقهم ولكن الضرب اشتد وبدأ من اشتداد الانفجارات أنه أخذ يقترب منهم !. وهنا حرك ساقيه فى الفراش فزعا من هول الذكرى وهو يغمغم « تبا لها من ليلة ! » وتنهد من أعماق صدره وفتح جفنيه ، فعادت ضوضاء الحى الى وعيه ، وذكر أنه رقد لينام لا ليستذكر آلام أفظع ليلة فى حياته ، ولكن هيهات . . لقد هجمت عليه الذكرى بقوة لا تقاوم . أجل ، أخذ الضرب يقترب ؛ بل انفجرت قذيفة خال القوم الفزعون أنها انفجرت فى صدورهم ورءوسهم ، فرفعوا أيديهم كأنما ليتقوا بها السقف اذا انهار عليهم ؛ واشتد الصراخ والدعاء وجرى اسم الله على كل لسان ، وقوى شعور مفزع بأن القذيفة التالية ستسقط على رءوسهم ! . وهوت القذيفة التالية ! . . رباه هل يمكن أن ينسى ذاك الصفير المبحوح ـ صفير الموت ـ وهو يهبط عليهم لا مهرب منه ولا مفر ؟ وكيف تقلقت العمارة وطقطقت النوافذ قبل أن تبلغ القذيفة الأرض ! . ثم كيف دوى الانفجار فصك الأسماع وصم الآذان ورج الأمخاخ ومزق الأعصاب وخنق الأنفاس ! . . لقد تقوست الظهور فى انتظار المقدور . . وقبض اليأس القلوب . . وتعجلت النفوس النهاية مختارة الموت على انتظاره . أجل لم يعد بينهم وبين الموت الا قذيفة لعلها تغادر فى تلك اللحظة مكمنها من الطيارة . . ولكن القذيفة ـ وهنا ابتسم ابتسامة حزينة ـ لم تسقط ! . . أو سقطت بعيدا ، فقد ابتعد الضرب سريعا كما جاء سريعا ، لم يجئهم الموت كما أوهمهم . . أراهم وجهه ولكن لم يذقهم طعمه . . أو أجل ذلك لليلة أخرى ، تباعد الضرب ، ثم خف عن ذى قبل ؛ وبات متقطعا ثم انقطع فلم يعد يسمع الا طلقات المدافع ، ثم ساد السكوت ! . . . واسترد التعساء أنفاسهم ، وتبادلوا نظرات الشك والرجاء ؛ وانفكت عقد ألسنتهم فهذوا كالمجانين ، ومضت ربع ساعة

رهيبة ثم انطلقت صفارات الأمان ! . . يا رحمة الله ! . . هل ذهب الموت حقا ؟ . . هل يدركهم نور الصباح ؟ . . ودبت الحركة وأضيئت الأنوار وانطلق أناس الى الخارج وجاء آخرون من الجهات القريبة ، وانتقلت روايات ؛ قالوا العباسية خراب . أما مصر الجديدة فقل عليها السلام ؛ وقصر النيل أمست أثرا بعد عين ومخازن الترام دمرت وجثث العمال أكوام !

وصعدوا الى شقتهم يغمر صدورهم سرور عصبى ، سرور من نجا من الموت وعقابيل الخوف لم تزل ناشبة فى صدره ؛ ومضوا بقية الليل أيقاظا يتكلمون . وفى نهار اليوم الثانى بدا الحى وكأنه قد أزمع الهجرة ، وتتابعت عربات النقل تحمل المتاع الضرورى الى الأحياء التى حسب الناس أنها آمنة أو الى القرى المتاخمة للعاصمة حتى خلت عمارات من ساكنيها . وضاعفت مناظر الهجرة من خوف الأسرة . خصوصا الأب الذى تضعضع قلبه الضعيف من عنف الغارة ، فنشأت فى رأسه فكرة الهجرة مع المهاجرين . واذ كان من المتأثرين بدعاية المحور الاسلامية فقد اعتقد اعتقادا راسخا فى أن حيا دينيا كحى الحسين لا يمكن أن يقصده المغيرون بسوء ، فجد فى البحث عن مسكن فيه ، فاهتدى الى هذه الشقة . وكان النقل . . وان ينس لا ينسى اليوم الذى أعقب ليلة الغارة . فلم يكن للقاهرة حديث الا حديث الليلة الماضية . واستفاض الناس فى الكلام بأعصاب متوترة ونفوس قلقة ، وضحكوا جميعا ضحكا فيه سرور النجاة وتوتر الخوف . وشعر أحمد بدنو الموت دنوا جعله يحس تردد أنفاسه على وجهه ، بل هنالك ما هو أفظع من الموت نفسه ، كأن يلقى به الى قارعة الطريق مقطع الأوصال أو مشطور الرأس ؛ وربما ألحق بعد ذلك بذوى العاهات المستديمة ، أو كأن ينجو من الموت ويدك البيت بما فيه فيجد نفسه وأسرته بلا مأوى وبلا أثاث وبلا لباس ! . . وجعل يدعو ربه ويستشفع بنبيه ، فالحياة محبوبة ولو كانت خائبة يائسة ، وأعجب من هذا أنه مال الى الترفيه عن نفسه وتهيئة السرور لها ما أمكن ، فغلب حرصه الطبيعى وابتاع لدى عودته الى البيت صندوق بسكوت

بالشيكولاتة وهو طالما اشتهته نفسه وحرمها أياه حرصا على القليل من النقود التى تعود أن يودعها صندوق التوفير كل شهر . ولكن عندما أتى المساء غشى القلوب هم وكآبة ، وبات الكل فى ذعر عظيم ، ولم يغمض لانسان جفن ، وتيقظت ذكريات الليلة المفترسة ، واختلت الحواس ، فصار كل نفير صفارة انذار ، وكل صفعة باب انفجار قنبلة ، وكل خشخشة أزيز طيارة ! . وها هم أولاء قد انتقلوا فهل تطمئن قلوبهم حقا ؟ ! العمارات حديثة البناء متينته ، ولها مخبأ يضرب بقوته المثل وهذا جوار الحسين . . ولكن ألم تدك حصون وتخرب جوامع ؟ ! . . آه لكم يعذبنا حب الحياة ، ولكم يقتلنا الخوف ، ومع ذلك فالموت لا يرحم ، وبالتفكير فيه يبدو أى جليل تافها ، كم حمل نفسه ما لا طاقة لها به من الحزن والغضب ؟ . . ففيم كان ذاك . وسمع عند ذاك الراديو يذيع السلام الملكى ، فأدرك أن ساعتين مضتا فى أرق وقلق فجزع وراح ينشد النوم بمطاردة الأفكار . ولكنه لم يظفر بأفكاره وبالعكس ظفرت هى به فغمره سيل الذكريات الزاخر . فذكر كيف اقترح على والديه أن يسافرا الى أخيه الأصغر فى أسيوط ـ مقر عمله ـ فيبتعدا عن الخطر حقا وكيف قالت له أمه : « بل نبقى الى جوارك فاما أن نعيش معا واما » ثم استضحكت مستعيذة بالله ! . . ماذا كان يفعل لو وافقا على السفر به . . كان أسهل الحلول أن ينزل فى بنسيون ، والحق أنه رحب بالفكرة فى أعماقه لأنه يروم التغيير وهو لا يدرى ، وكيف لا يروم التغيير أعزب قضى أربعين عاما فى بيت واحد يكابد حياة رتيبة لا فرق بين يوم منها وبين عام ترهقها عزلة وحشية ؟ ! . . فمهما ألف هذه الحياة وتعودها لا بد أن تنزع به النفس ـ ولو فى خفاء الى التغيير . . والتغيير الكامل ! . . الا أنه لم يستسلم هذه المرة طويلا الى أفكاره فقد طرقت أنفه رائحة غريبة أوقفت تيار أحلامه ! . . ذابت فى خيشومه فجأة كأنما حملتها اليه هبة نسيم كان من قبل راكدا . ونبهه اليها أنه كان يشمها لأول مرة فى حياته ، وتحير كيف يصفها ، فما كانت رديئة ولا كانت زكية ، ولكن تطيب بها

النفس ، وفيها هدوء ؛ وعمق ؛ والا فمـــا نفـاذها الى قرارة الاحســـاس ؟ ! ٠ وما كانت تنقطع الا لتعود ٠ ٠ فهل بخور يحترق فى هـذه الساعة من الليل ؟! ٠ أم يكون لهذا الحى الغريب أنفاس تتردد فى أعماق السكون ! ٠

وغاب به التفكير فى الرائحة الغريبة عن أفكاره فتهيأ للنوم وهو لا يدرى ٠ ٠ وما لبث أن استرق الكرى خطاه الى جفنيـه فأخذ بمعاقدهما ٠ ٠

(٤)

وعند الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى كان جالسا الى السفرة يتناول فطوره الذى يتكون عادة من فنجان قهوة وسيجارة ولقمات مع قطعة من الجبن أو قليل من الزيتون . وغادر الشقة فصار فى الردهة الخارجية التى تفصل بين الشقق وقبل أن يبلغ السلم سمع وقع قدمين خفيفتين وراءه فنظر خلفه فرأى فتاة فى أول سنى الشباب مرتدية مريلة مدرسية زرقاء ومتأبطة حقيبة الكتب ، وقد التقت عيناهما لحظة خاطفة ثم أعاد رأسه . وقد تولاه ارتباك ، والارتباك طبيعته اذا التقت عيناه بعينى أنثى ! . ولم يدر هل الاليق ان يسبقها الى الطريق أوأن ينتحى لها جانبا فزاد ارتباكه وتورد وجهه الشاحب وبدا فيلسوف ادارة المحفوظات بوزارة الاشغال كالطفل الغرير يتعثر حياء وخجلا !.. وتوقفت الفتاة كالداهشة وانتقلت اليها عدوى ارتباكه ، فلم يجد بدا من ان ينتحى جانبا وهو يهمس بصوت لا يكاد يسمع « تفضلى ! » فمضت الفتاة الى حال سبيلها وتبعها متثاقلا متسائلا أأصاب ياترى أم أخطأ ؟؟ .. وبم حدثت نفسها عن تردده وارتباكه ؟! .. وعند باب العمارة أيقظه صوت جهورى من أفكاره يصيح « ملعون أبو الدنيا » فالتفت الى يسراه فرأى المعلم نونو — كما ظن — يفتح دكانه ، فسرى عنه وابتسمت أساريره وغمغم « يافتاح ياعليم ! » ثم سار فى طريقه والفتاة على بعد منه غير بعيد حتى بلغت السكة الجديدة

فانعطفت الى يسارها ومضت نحو الدراسة وواصل هو مسيره الى محطة الترام · ولم يكن رأى من وجهها سوى عينيهـــا · استقرت عليهما عيناه لحظة التفاتته اليها · عينان نجلاوان ، ذاتا مقلتين صافيتين وحدقتين عسليتين ، بدتا لغزارة أهدابهما مكحلتين ، يقطران خفة وجاذبية ، فحركتا مشاعره · وكانت الفتاة تتخطى عتبة الشباب اليافع فلا يمكن ان يجاوز عمرها السادسة عشرة ، بينا هو فى الاربعين ، فأكثر من عشرين عاما تفصل بينهما ! ولو انه تزوج فى الرابعة والعشرين ـ وهو سن زواج معقول لكان من المحتمل أن يكون أبا لفتاة فى مثل عمرها ونضارتها ! · وأخذ مجلسه من الترام وهـــو مايزال يتصور تلك الابوة التى لم تتحقق ·

وسرعان ما خمدت نشوة التأثير بالعينين ، وفتر حمـــاس الحنين الى الابوة ، واجتاح صدره انفعال عنيف قاتم شأنه اذا اقترب من أنثى أو اقتربت أنثى منه ذلك أنه يحب النساء حب كهل محروم ، ويخافهن خوف غرير خجول ، ويمقتهن مقت عاجز يائس فأية أنثى تترك فى وجدانه انفعالا شديدا ، يضطرب فى اعماقه الحب والخوف والمقت · وقد كان لنشأته الاولى أكبـــر الاثر فى تكييف طبيعته الشاذة ، فخضعت طفولته لصرامة أبيه وتدليل أمه ، صرامة ترى القهر عنوان الحنان ، وتدليل محبـــة مغرم لو ترك الامر له ما علمه المشى خوفا عليه من العثار · فنشأ على الخوف والدلال ، يخاف أباه والناس والدنيا ، ويأوى من خوفه الى ظل أمه الحنون ، فتنهض بما كان ينبغى ان ينهض به وحده ؛ يخاف الدنيا ويبأس لاقل اخفاق ، وينكص لدى أول صدمة ، وماله من سلاح سوى سلاحه القديم البكاء أو تعذيب النفس ، ولكن لم يعد يجدى هذا السلاح ، لان الدنيا ليست أمه الحنـــون ، فلن ترق له اذا امتنع عن الطعام ولن ترحمه اذا بكى ، بل أعرضت عنه بغير مبالاة ، وتركته يمعن فى العزلة ويجتر العذاب · فهل يصدق الوالدان ان ذلك الكهل الاصـــلع الخائب قـــد ذهب ضحيتهما ؟! ··

سطر أولى كلماته وهو فى السنة الاولى من المدرسة الثانوية ،

وما يعنينا من سرده الا دلالته على طبعه . كان غلاما ناضرا متأنقا، ولعله ورث الاناقة عن والدته ، فجذب اليه يهودية صغيرة حسناء من بنات الجيران !. فأحمد عاكف ـ كما ترى ـ كان يوما ما جذابا ! .. كانت تلعب في طريقه وترقب مرجعه من المدرسة في نافذتها ، ولا تضن على عينيه بملاحتها ودلال أنوثتها فأصلت وجدانه نيرانا ولكنها لم تستطع أن تبعث في قلبه الجسارة أو الشجاعة . ألهبت قلبه وجدا ولكن قصارى ما كانت تدفعه اليه شجاعته أن يرمقها بلحاظ مغرم وجل سرعان ما يرتد أمام نظرتها وهو كليل . ولكنه على رغم خجله طارحها الغرام صراحة بفضل جسارتها هي .كانت جسورا لعوبا لا يردعها عن هواها رادع، فاستطاعت أن تعالج حياءه بجسارتها،وتبعته ذات أصيل حتى أدركته ثم نادته فالتفت اليها بوجه كالجمان ، فابتسمت اليه ابتسامة لطيفة فأجابها بابتسامة مقتضبة في حياء وخفر فقالت له « هلم نتمشى في شارع عباس ! » فأطاع دون ان ينبس بكلمة وسارا جنبا الى جنب والشمس تتقدمهما نحو المغيب . وتعمدت أن تدنو منه وان تلامسه في رفق فجعل يبتعد كأنما يخاف أن تحسب أنه المتعمد وهو يذوب شوقا الى اللمس الذى يجانبه . ثم تأبطت يمناه وهى تضحك ضحكة لم تخل من الارتباك ، فطرفت عيناه ونظر فيما حوله بخوف فسألته في في دعابة « أتخاف !؟ » فقال بصوت رقيق « أخاف أن يرانا أحد من بيتك !» فهزت كتفيها استهانة وقالت «لاتبال هذا ؟ فلاحت في عينيه نظرة عجب فاستدركت متسائلة « أما تزال خائفا ؟! » فقال بعد تردد « أخاف أن يرانا أحد من بيتنا ! » فأغرقت في الضحك وعاجت به الى بستان وهى تغمغم « نحن الآن في أمن من الرقباء ! » وتمشيا في سكون والشمس تذوب في الشفق ، وظلال المغيب تمتد في الافق فتجعل منه سرادقا قائما لاستقبال الليل الزاحف . ثم قالت الفتاة الجريئة لتحتال على حيائه « حلمت حلما ياله من حلم ! » فقال وقد أخذ يأنس بها « خيرا ان شاء الله » فقالت : « حلمت انك قابلتنى وقلت لى أريد ... ثم ذكرت كلمة لن أعطيها لك حتى تقولها بنفسك ،فحزر

ما هى ؟! » فاشتد عليه الارتباك وقال بلسان ملعثم «لاأدرى» فقالت بصوت عذب « بل تدرى وتدارى ٠ ٠ قل ! » فحلف لها بسذاجة أنه لا يدرى فقالت : لا فائدة من الكذب على ٠ ٠ أولى بك أن تتذكر ٠٠ كلمة أول حروفها ق!» فصمت وقد خفق قبله واضطربت انفاسه فقالت : « والحرف الثانى ب ! » فلزم صمته وغض بصره فاستطردت تقول « والثالث ل ٠٠ قل ما الحرف الاخير » فابتسم مرتبكا ولكنه لم يدر كيف يتكلم ، فقرصته فى ذراعه وهمست فى أذنه « اذا لم تخرج عن صمتك فلن أكلمك أبدا ! » وفعل التهديد فعله فرسم بأصبعه فى الهواء تاء مربوطة! فضحكت بسرور وقالت : « الآن اعترفت بما تريد ولن أضن به عليك !! » ثم أدنت منه وجهها وقد أيأسها خجله الشديد من الانتظار فأخذ قبلة مضت عقود من العمر كاملة وهو يتحرق توقا الى مثلها ٠ وهكذا كان دائما : احساسا عنيفا وخجلا مؤيسا ٠ وكان يحلو لتلك اليهودية الحسناء ان تداعبه بالسخرية من قسمات وجهه ، فآمن بسخريتها ، واستقبح وجهه أكثر مما ينبغى ، ووجد سببا جديدا يقوى به خجله الطبيعى فتضاعف، ولو أمكن رجلا أن يسدل على وجهه نقابا لكان ذاك الرجل ، وكان ذلك من بواعث المبالغة فى تأنقه حينا التى انقلبت فصارت اهمالا زريا حين أدركه اليأس ! ٠ ٠

واختفت اليهودية الحسناء من حياته فجأة ، فما هو الا ان خطبها شاب من بنى جنسها حتى هجرت لعبتها لتتقبل حياة الجد ، غير عابئة بالجرح الدامى الذى أحدثته فى قلب غض ٠ بيد أن القلوب الغضة سريعا ما تندمل جروحها ٠ وفى الفترة النهائية من المرحلة الثانوية دانت أسباب أيضا بينه وبين صبية حسناء هى صغرى بنات أرملة من صديقات والدته ، فألفت بينهما المودة وتشجيع الامين اللتين ما برحتا تدعوانهما بالعروسين ٠ ولم يكن ذاك الحب الثانى كالاول الذى كان أول يقظة لقلب مفطور على الاحساس ، ولكن حوت الصبية مزايا نادرة من رجاحة العقل ومتانة الخلق مما جعل ضياعها من بين يديه خسارة كبيرة أسف عليها أكبر الاسف ٠ وكثيرا ماكان يحدث نفسه قائلا :

انه لو تزوج من فتاته كما أرادت أمه وأمها لتمتع بحياة زوجية سعيدة قليلة الاشباه . ولكن عقب حصوله على البكالوريا حلت الكارثة بأسرته فأحيل أبوه الى المعاش ودفع به هو الى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمى به الى جحيم اليـــأس . وأصبح حتما على الفتاة اذا أرادت ان تبقى عليه ان تنتظر عشرة أعوام ريثما ينتهي من تربية أخيه . والظاهر أن أمها لم تشجع التضحية المطلوبة لما فيها من انتظار طويل ، وغلبت حكمة الفتاة ـ نفسها ـ على عاطفتها فانقطعت الاسباب وتبددت الاحلام . وكفر احمد بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا . فالحب الذى ثمل به قلبه بين يدى اليهودية وهم ضال ، أو مرض ملازم للمراهقة كتوعك التسنين للطفل . وقد قضت مرارة الحقيقة بالعقاب الصارم على من يركن لعهد بأمرأة . . سواه أكانت كخطيبته عقلا وفضلا أو كاليهودية التى علقته ما شاء لها الهوى ثم هجرته كما يهجر الانسان حجرته ، فى فندق بميـــدان المحطة ... !

وانقضت بعد ذلك عشرون عاما من حياته وقلبـــه من الحياة خواء . يكابد مرارة عيشة فقيرة حقيرة مترعة بالهموم مثقلة بالتبعات ضيقة بالامل . ولو سكتت ثائرته لامكنه أن يجد فى حياته من لذات التضحية والقيام بالواجب ما يعزيه عن خيبة آماله جميعا ، ولكن غضبه لم يسكت وحدته لم تلن فلم يزل ساخطا متبرما حاقدا ، لان انسانا ألف أن يكون المعبود الذى تقدم على مذبحة القرابين لا يحتمل أن يصير كبش التضحية . وشغل بأحزانه وتبعاته وعزلته عن الحياة فكأنما رمى بقلبه ـ الذى لبث طوال أربعة أعوام كقيثارة دائمة الترنيم ـ الى بئر آسن فاختنق وأنتن . عاش بلا أمل ، بلا حبيب ، وبلا قلب ، لا يأنس بالحياة ولا يدرك معنى أفراحها، فدفعه انقنوط من النجح الى العزلة ودفعه القنوط من الحب الى البغاء . وكأنه لم يكفه ما اعتنق من سوء ظن بالمرأة فألقى به سوء حظه بين يدى الانوثة التعسة المشوهة ليزداد ايمانا بعقيدته المريضة . فأقنع نفسه ـ بسوء نية ـ بأن المرأة الحقيقية هى البغى !.. فهى المرأة الحقيقية وقد

جلت عن وجهها قناع الرياء ، فلم تعد تشعر بضرورة ادعاء الحب والوفاء والطهر . على أن البغى قد نالت من نفسه أكثر من ذلك فقد أودت بالبقية الباقية من ثقته بجدارته كرجل، اذ أنه اعتقد ان البغى اذا أحبت رجلا فانما تحبه لما يجذبها فيه من فحولته وجاذبيته الطبيعية بصرف النظر عن اعتبار القيم الاجتماعية وظروف القربى أو الجوار ، فعسى أن تكون اليهودية وظروف القربى أو الجوار ، فعسى أن تكون اليهودية أحبته لانها لم تظفر بسواه ، أو أن خطيبته أحبته لدواعى الجوار وايحاء الامهات أما البغى فلا تختار حبيبا من بين عشرات الرجال الذين يترددون عليها لداع من هذه الدواعى ، فاذا كان لم يستطع أن يجذب اليه بغيا طوال هذا الدهر فما ذلك الا لانه عاطل من جاذبية الجنس !.. وهكذا عانى وهم نقيصة الجنس كما عانى نقيصة الدمامة من قبل ..

ولما أتم أخوه رشدى دراسته وحصل على بكالوريوس كلية التجارة وتوظف ببنك مصر منذ عامين ـ وكان أخوه الآخر نوفى منذ أمد بعيد ـ شعر بحق بأن مهمته قد انتهت بل وكللت بالنجاح ، وساوره أمل ـ وهل ينعدم من الحياة الامل؟ ـ أن يراود السعادة ، فقد يظفر بالسعادة وان يئس يأسا نهائيا من الجاه والسلطان . وسعى الى أن يخطب كريمة أحد التجار المقيمين فى غمرة ، ولكن والدها رده ردا جميلا وعلم الكهل أن أمها قالت عنه « ان مرتبه صغير وعمره كبير ! » .. وترنح من هول الضربة التى هوت على كبريائه ، وثار ثورة عنيفة، وكبر عليه ـ وهو العبقرى الذى حشد الكون ما به من سوء حظ لمكافحة عبقريته ـ كبر عليه أن ترفضه أنثى من بنات حواء بل أن ترفضه خاصة لانه حقير ! . أيقال عنه حقير ؟! . فمن العظيم اذا؟. وكور قبضته متوعدا الدنيا بالويل والثبور والشرر يتطاير من عينيه . بالامس هجرته حبيبته لانه صغير لا ترجى منه فائدة واليوم ترفضه فتاة لانه كبير لا ترجى منه من فائدة فمتى كان ذا فائدة ترجى ؟!.. اذهب العمر هباء ؟! .. «أضاع المجد وعزت السعادة وانتهى كل شىء ؟! . وصار دأبه بعد ذلك ذم النساء ورميهن بكل

نقيصة ، فهن حيوانات ماكرة ومكرهن سيء قوامه الطمع والكذب والتفاهة ، انهن اجساد بلا روح ، انهن مصدر آلام الانسان وويلات البشرية ، وما أخذهن بظاهر العلم والفن الا خدعة يختفين وراءها ريثما يوقعن فى شباكهن الضحايا ، ولولاشهوة خبيثة ألقيت فى غرائزنا ما ظفرن برجاء ولا مودة .. وهن .. وهن .. وكثيرا مايقول لزملائه « شرعت لنفسى ـ والحمد لله ـ ألا أتزوج على كثرة ما واتتنى الفرص ، لانى آبى أن ينتهبنى حيوان قذر لا روح له ولا عقل ! » لقد جعل منه عجزه عن النجاح عدوا للدنيا ، فجعل منه عجزه عن المرأة عدوا للمرأة ! ... ولكن أعماقه اضطربت بالرغبة الجائعة والعاطفة المنهومة المحرومة ...

ان انفعاله لامرأة عابرة ـ كما حدث اليوم ـ حقيق باهاجة اعماقه ، وسرعان ما يذكر تاريخه القديم الحديث مع المرأة فيثور ، ويساوره ذاك الشعور العميق الطافح بالحب والخوف والمقت ! ...

(٥)

وعاد ظهرا الى الحى الجديد ، وغمغم مبتسما وهو يدنو منه : « ثانى عطفة على اليمين ثم ثالث باب على اليسار ! » ، وذكر وهو يرتقى السلم الحلزونى فتاة الصباح ذات الوجه الاسمر والعينين العسليتين النجلاوين · ترى هل يراها مرة أخرى ؟· وفى أية شقة وفى أى طابق من هذه العمارة تقيم ؟! ·· ولبث فى البيت ـ وقد أكملت أمه فراشه وتنظيمه ـ حتى العصر · ثم بدا له ان يجول فى طرقات الحى الجديد مستطلعاومستكشفا فارتدى ملابسه وانطلق الى الخارج · وتريث قليـــلا أمام باب العمارة ، وجعل ينظر فيما حوله كأنما ليختار ناحية يبدأ منها استكشافه · ولكنه قبل ان يجمع على رأى شعر بشخص يدنو منه فالتفت اليه فرأى الرجل الذى حسب صباح اليوم أنه المعلم نونو ،وقد أقبل بخطوات ثقيلة مبتسما ابتسامة ترحاب وسرور ومد له راحة غليظة كخف الجمل ، وقال :

ـ أهلا وسهلا بالجار الجديد ! ·· ويا ألف نهار أبيض !

وسلم الجار الجديد · ولم يكن يتوقع تلك المفاجأة من صاحب « ملعون أبو الدنيا ! » ، وقال وقد ابتسمت أساريره :

ـ أهلا وسهلا بك يا معلم !

فأشار المعلم الى كرسى موضوع أمام دكانه وقال والابتسامة لاتفارق شفتيه الغليظتين :

ـ شرفنا بالجلوس دقيقة .. ذا يوم سعيد !

وتردد احمد ـ لا لان قبول دعوة المعلم يناقض الغرض الذى خرج من أجله ـ ولكن لان طبعه النافر لايستسيغ مثل هـذه الدعوة الكريمة بغير تردد . وقرأ الآخر فى وجهه ،فقال بصوته الجهورى الخشن ..

ـ حلفت بالحسين ـ ان لم تكن قاصدا غاية تستوجب العجلة ـ الا ما شرفتنا .. يا ولد يا جابر هات شـأيا .. وهات نرجيلة !

وقبل احمد ـ بسرور يعادل تردده ـ الدعوة شاكرا .ومضى الى الكرسى بينما غاب المعلم لحظة ثم عاد بكرسى آخر وجلسـا متقابلين . كانت دكان الخطاط مثل بقية الدكاكين حجماوأناقة وقد غطيت باللافتات الجميلة ، وتوسطتها طاولة رصت عليها قنينات الالوان والاقلام والمساطر ، وأسندت الى احدى قوائمها لافتة كبيرة كتب فى أعلاها بالالوان الزاهية «محل بقالة خان جعفر» وتحت ذاك العنوان لاح اسم صاحب البقالة مرسوما بالرصاص لم يلون بعد . وكان الرجل يرتدى جلبابا ومعطفا أبيض وطاقية . فى الخمسين أو نحو ذلك ، ربع القامة متين البنيان ، كبير الوجه والرأس واضح القسمات ، يمتاز وجهه بصدغين وفم واسع ، وشفتين ممتلئتين ولون قمحى مشرب بحمرة . وقد جلس وهو يقول :

ـ محسوبك نونو الخطاط .

فرفع أحمد يده الى رأسه وقال :

ـ تشرفنا يا معلم . محسوبك أحمد عاكف بوزارة الاشغال !

وكان لا يحب ذكر وظيفته ارضاء لكبريائه ، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب، بيد انه لم يتألم هذه المرة كعادته لايقافه بما يكنه أمثال المعلم نونو للموظفين من احترام . وقد رفع الرجل يديه الى رأسه احتراما ثم ابتسم ابتسامته اللطيفة ، وقال بما طبع عليه من صراحة :

– انتم شرفتم حينا يا سادة . ولكن هل جئتم حقا الى هنا خوفا من الغارات ؟ !

وعجب أحمد عاكف كيف عرف سبب هجرتهم ولما يمض عليهم فى الحى الجديد سوى ليلة واحدة . فحدج الرجل بنظرة انكار وتساءل :

– من قال لك ذلك ؟ !

فقال المعلم ببساطة :

– الحوذى الذى نقل أثاثكم . الناس جميعا تهاجر هذه الايام!

فقال أحمد عاكف يدافع عن « شجاعة » أسرته :

– الواقع أن أحياءنا المعرضة للخطر كادت تخلو ، وقد حملنا مرض والدى بالقلب وخوفنا عليه على هجر بيتنا القديم أسفين ! .

وعند ذاك جاء غلام المعلم بالشاى والنرجيلة فوضع النرجيلة أمام المعلم ، ثم أتى بكرسى من الدكان وضعه أمام الضيف ووضع الابريق عليه . وعزم المعلم على ضيفه أن يحسو الشاى وأقبل على النرجيلة بلذة وشهوة ، وأخذ نفسا طويلا روى به غلة خيشومه ثم استدرك قائلا :

– حسن أن يلتمس الانسان سبيل الطمأنينة وان كان العمر واحدا والرب واحدا ، والمكتوب حتما تشوفه العين . انى يا عاكف أفندى من المتوكلين على الله ، وما عرفت حتى الآن طريق المخبأ . أى مخبأ يا سعادة البيك ؟« . هل يستطيع نونو أن يراوغ القدر ، أو يؤجل قضاء الله ؟» . ألم تسمع صالح عبد الحى وهو يغنى « نصيبك فى الحياة لازم يصيبك » ؟ ! . . بيد أنى أدعو الله أن يكفينا شر الأيام ، وأعود فأقول ان حظنا حلو ، فلولا حكمة بعض الناس ما فزنا بهذا الجوار السعيد !

ولاحظ احمد أن كلام الرجل حوى أوله سخرية به – وان كانت سخرية غير مقصودة – بينا حوى آخره ما يستوجب الشكر ! . فابتسم قائلا :

– شكرا يا معلم ، فطالما قال لنا الحكماء أن حى الحسين آمن!

فأخذ الرجل نفسا عميقا ثم زفره سحابة من الدخان كثيفة

وقال :

ـ صدقوا ثم صدقوا . انه حي مبارك محبوب ، مكرم من أجل صاحبه ، وسوف ترى فيما يقبل من الأيام أنك لن تستطيع السلو عنه أو الزهد فيه ، وسوف يدعوك شيء من الأعماق اليه . . تفضل خذ نفسا من النرجيلة

فشكره أحمد معتذرا ، وكان يحتسي الشاي بلذة مصغيا لصاحبه ، وكأنما أراد أن يجاريه في التدخين ولكن على طريقته هو فاستخرج سيجارة من علبته وأشعلها مبتسما . وقد أحس نحو محدثه بارتياح لما وجده فيه من غرابة لم يعهدها في أحد من الناس قبله ، وأعجبته بساطته وصراحته وقوته ، وأهم من هذا جميعا أنه شعر نحوه باستعلاء تملق غروره المعذب فمال اليه . أما المعلم نونو فاستدرك قائلا :

ـ لماذا ترغب عن النرجيلة ؟! . ان هي الا سيجارة بماء ، أو دخان مكرر مطهر ، وفوق ذلك فلحضرتها سلطنة ، وقرقرتها موسيقى ، وفي شكلها « سكس أبيل »

فلم يملك عاكف نفسه من الضحك فأرسل ضحكته الرفيعة ضاعت في جلجلة ضحكة المعلم التي تصاعدت كخوار عال متصل انتهى بسعال متقطع استمر حتى انقطع نفسه . ثم قال وأساريره ما تزال ضاحكة :

ـ أتحسب أن البلدي جاهل ! . ألم تعلم أن زوار هذا الحي من الانجليز أضعاف أضعاف أمثالهم من أولاد العرب ؟ ! . . ودين الحسين ورب الحسين ليسرنك حينا سرورا لا مزيد عليه وليكن جوارا ، وأياما سعيدة رغم هتلر وموسليني !

ـ باذن الله . . ان شاء الله !

وقال المعلم بلغة الاغراء :

ـ وفينا أفندية محترمون كحضرتك !

فقال أحمد بسرعة :

ـ أستغفر الله يا معلم أستغر الله . .

ـ والحسين وجده . . بل ان جل أصدقائي أفندية من خيرة هذا الحي . فالعمارات الجديدة جذبت الينا أسر طيبة كثيرة .

يوجد هنا كل ماتريد .. القهوة والراديو واللطف والنرجيلة ، بل هنا متسع لمرضية الله ومعصيته على السواء !

فضحك أحمد قائلا :

ـ أعوذ بالله من معصية الله !.

فحملق المعلم فى وجهه ، ثم قال مستدركا بصراحته الغريبة كأنه يعرفه منذ سنين طويلة لا منذ دقائق :

ـ المرضية والمعصية ، كالنهار والليل لا ينفصلان وفوقهما مغفرة الله ورحمته .. أحنبلى أنت ؟ ! .

ـ كلا .. كلا ..

ـ تعجبنى !.

ـ ولكن كيف يتسع هذا الحى لمعصية الله ؟ .

ـ أوه .. ياما تحت الساهى دواهى .. فصبرا حتى يأتيك اليقين . ومع ذلك فليس الذنب بذنب حينا ، الذنب ذنب الأحياء الأخرى ، لقد ضاقت بالفساد ، فصدرت ما يزيد عن حاجتها الينا على حد قول الراديو . عن التجارة العالمية . هنا نحن نصدر المواد الأولية والأحياء الاخرى توردها مصنوعة . فمن بعض أطراف هذا الحى تصدر الخادمات فتحولها الأحياء الأخرى الى غانيات . فى هذه الحرب قلبت الدنيا رأسا على عقب . تصور يا انسان أنى سمعت بالأمس بنت بائعة فجل تدعو أختها فتقول « تعالى يا دارلنج ! » .

وضحك أحمد بسرور ، وانبسط وانشرح صدره ، وقال وغرضه الأول أن يستدرج محدثه الى الكلام .

ـ حيكم طاهر يا معلم رغم هذا كله ، فالفساد هناك فوق ما يتصوره العقل ! .

ـ اللهم احفظنا . الا أنه من الحكمة ألا نركب الهم أنفسنا . دع الهموم واضحك واعبد الله . الدنيا دنيا الله ، والفعل فعله ، والأمر أمره ، والنهاية له . فعلام التفكير والحزن ؟ ! . ملعون أبو الدنيا ! .

ـ هذا شعارك المحبوب يا معلم طالما صعد الى فى حجرتى ترديدك له ! .

ـ أجل ملعون أبو الدنيا . هذا شعار الاستهانة لا اللعن أو السب ، ولكن هل تستطيع أن تلعنها بالفعل كما تلعنها باللسان ؟ هل تستطيع أن تستهين بها وتضحك منها اذا أفقرتك ؟ واذا أعزتك ؟ واذا كربتك ، واذا أجاعتك ؟ صدقني ان الدنيا كالمرأة تدبر عمن يجثو بين يديها ، وتقبل على من يضربها ويلعنها ، فسياستي مع الدنيا ومع النساء واحدة ، واتكالي من قبل ومن بعد على الله سبحانه ، ورب يوم يستدير ، ولما يفتح الله علينا بمليم ، ولا يدري أحد ماذا يأكل العيال وما أملك ثمن النرجيلة . فما أزال آخذا في الغناء واللعن والتنكيت ، وكأن العيال عيال جاري والفقر راكب عدوي . ثم تفرج ، فيطلب منا عمل وأقبض مقدم الأتعاب . افرح يا نونو . أشكر الله يا نونو ، خذي يا زينب اشتري لحمة وأنت يا حسن هات فجلا ، اجري يا عائشة ابتاعي بطيخة ، املأ بطنك يا نونو ، كلوا يا أبناء نونو ، واشكرن يا زوجات نونو . .

ولفت سمع أحمد قوله : « زوجات نونو ؟ فتساءل ترى كم زوجة يضم حريم نونو ؟ ! . . وهل يحدثه بأسراره الداخلية بمثل صراحته هذه عن فلسفته العامة ؟ ! . . ولم يجد سبيلا الى غرضه الا بالحيلة ، فسأله :

ـ كان الله في العون ، الظاهر أن أسرتك كبيرة .

فقال الرجل ببساطة .

ـ أحد عشر كوكبا ، وأربع شموس .

ثم أشار الى نفسه وكمل قائلا :

ـ وقمر واحد ! .

فتردد عاكف لحظات ، ثم قال :

ـ زوجات أربع ! .

ـ كما شاء الله .

ـ وان خفتم ألا تعدلوا ؟ .

ـ ومن قال عني اني ظالم ؟ !

ـ وهل تستأجر تبعا لذلك بيوتا أربعة ؟ .

ـ بل شقة واحدة كشقة حضرتك ، مكونة من حجرات أربع

فى كل حجرة أم وأبناؤها ! ٠

فلاحت الدهشة فى وجه الرجل ونظر الى محدثه بانكار ، فضحك المعلم ضحكته العظيمة بفخار ، وقال :

ـ ما الداعى للدهشة يا أحمد أفندى ؟ ٠

فاتت أحمد جراءة ليست من طبعه ، وسأله :

ـ لماذا لم تقنع بواحدة ؟ ٠

ـ واحدة ؟ ! ٠ ٠ أنا خطاط ، والنساء كالخط أنواع لا يغنى نوع عن نوع ، فهذه نسخ ، وتلك رقعة ، وثالثة ثلث ؛ ورابعة فارسى ٠ أنا لا أوحد الا الله ٠

ـ ولكن أليس الأربع بأكثر مما ينبغى ! ٠

ـ ليتهن كفيننى ٠ ٠ أنا والحمد لله أكفى مدينة من النساء ، أنا المعلم نونو والأجر على الله ! ٠

ـ وكيف تجمعهن فى شقة واحدة ! ألم تعلم بما يقال عن غيرة النساء ! ٠

فهز المعلم منكبيه العريضتين استهانة وبصق على الارض ، ثم قال :

ـ هل تصدق ما يقال عن النساء وغيرتهن ومكرهن ؟ ! ٠ كل أولئك سجايا خلقها ضعف الرجل ٠ المرأة فى الأصل عجينة طرية ، وعليك أن تشكلها كما تشاء ٠ واعلم أنها حيوان ناقص العقل والدين فكملها بأمرين ، بالسياسة والعصا ! فما من واحدة من نسائى الا مطمئنة الى أنها الأثيرة المفضلة ، وما من واحدة استوجبت أكثر من علقة واحدة ، ولن تجد مثل بيتى سعادة وهدوءا ، ولا مثل زوجاتى حشمة وتنافسا فى ارضائى ٠ ولذلك لم يجرؤن على مغاضبتى حين علمن بأن لى خليلة ! ٠

فصاح أحمد عاكف :

ـ خليلة ! ٠

ـ سبحان الله ربى ! مالك تدهش لأتفه الأشياء ؟ ! أقول : ان طعمية البيت لذيذة ، ولكن ما رأيك فى طعمية السوق ؟ ! ٠

ـ وهل ترضى زوجاتك عن خليلتك ؟ ٠

ـ الرضى يساوى التعود على الرضى ٠ وأنت برجولتك

تستطيع أن تحمل المرأة على ما تريد فتعمل ما تشاء ، وتؤمن بما تشاء ، والرجل القوى لا يلجأ الى الطلاق الا اذا وافق هواه ·

فابتسم أحمد ، وقال :

ـ عوفيت يا معلم ! ·

وأخذ المعلم أنفاسا متتابعة ، ثم سأل ضيفه :

ـ هل أنت متزوج يا أحمد أفندى ؟ ·

فأجاب باقتضاب وقد امتعضت نفسه :

ـ كلا ·

ـ ولا واحدة ؟ ! ·

ـ ولا نصف واحدة ·

فضحك الرجل ، وقال بصراحته المعهودة :

ـ أنت بغير شك نطاط كبير ! ·

فابتسم أحمد ابتسامة غامضة ، ولم يعرض لقوله بنفى أو اثبات ، فقال نونو ضاحكا :

ـ عوفيت · · عوفيت ! ·

وبلغ المعلم نونو من نفسه مالم يبلغه سواه ، فأحدث فيها يقظة عنيفة · كان شيئا يناقضه قوة وصحة وابتساما ، واقبالا على الحياة ، وفوزا وسعادة ، فأعجب به اعجابا استمده من عجزه عن مجاراته ، وحقد عليه لتفوقه وسعادته ، الا أنه كان حقدا خفيفا لا يقاس بما أحدثه فى نفسه من شعور بالاستعلاء ، فغلب ميله اليه حقده عليه واستثار فيه رغبة جديدة للاختلاط به وبحيه العجيب ·

وعندما استأذن فى الانصراف ، قال له المعلم :

ـ عليك بقهوة الزهرة · هى قهوة صغيرة ، ولكنها تجمع أفندية هذا الحى المحترمين ، وستعرف فيها الصفوة من جيرانك · هلا حضرت هذا المساء ؟ ! ·

فقال أحمد وهو يودعه :

ـ ان لم يكن هذا المساء ، فمساء الغد ان شاء الله ·

وسلم عليه شاكرا ، ثم مضى الى ماكان بسبيله من استكشاف أنحاء الحى الجديد · ·

- ٦ -

وعند مساء اليوم الثانى غادر العمارة ووجهته قهوة الزهرة • فوجدها عند مدخل شارع محمد على الكبير وهو السابق لشارع ابراهيم باشا • وكانت فى حجم الدكان وذات مدخلين أحدهما على شارع محمد على والثانى على الممر الطويل الذى يؤدى الى السكة الجديدة • وقد وجد فى الحى من أمثال هـذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحى بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان وأقبل على القهوة متمهلا مترددا لأنه لم يتعود ارتياد المقاهى ولا ألف جوها قط • وما كاد يعبر بابها حتى رأى المعلم نونو يتوسط جماعة من الأفندية بينهم واحد من أهل البلد • ورآه المعلم فنهض قائما مبتسما وقال بصوته الجهورى الخشن :

ـ أهلا وسهلا تفضل يا أحمد أفندى •

فاقترب منه بقامته الطويلة النحيفة تلوح على شفتيه ابتسامة ارتباك وحياء ، مادا يده بالسلام ، فتلقاها المعلم براحته الغليظة ، ثم التفت الى الجماعة قائلا :

ـ جارنا الجديد أحمد أفندى عاكف الموظف بوزارة الاشغال •

فنهض الرجال نهضة واحدة فى لطف واحترام زادا من ارتباكه وحيائه ، ومضى يسلم عليهم واحدا فواحدا والمعلم يقدمهم قائلا :

ـ سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الأولى • سيد افندى عارف بالمساحة • كمال أفندى خليل بالمساحة أيضا • الاستاذ

أحمد راشد المحامى · المعلم عباس شفة من الأعيان ·

وأوسعوا له مكانا بينهم ، ورحبوا به أيما ترحيب · فأخذ يأنس بهم وينفض عن نفسه الارتباك والحياء · وما لبث أن ساوره شعور سعيد بالعزة والاستعلاء أحسن اخفاءه بابتسامة حلوة ونظرة حيية ·

لم يخامره شك قط فى تفوقه على هؤلاء الناس من جميع الاعتبارات والوجوه ، فهو من أهل السكاكينى وهم من أبناء الدراسة أو الجمالية ! وهو المفكر والعقل الكامل وهم لاشىء من هذا جميعه · بل خال أن وجوده بينهم تعطف جميل وتواضع محبوب ، بيد أنه تساءل متحيرا ترى كيف السبيل الى تفهيم هذه الجماعة حقيقة قدره واطلاعهم على مزاياه العقلية والثقافية؟ كيف يقنعهم بعظمته ويدعوهم الى احترامه ؟ لاشك ان ذلك آت لا ريب فيه اذا اتصلت المودة وتكرر اللقاء · فلا عليه من تأخيره جلسة أو اثنتين ! · ونقلب بصره بين الوجوه الجديدة يعانيها باهتمام · فهذا سليمان عتة المفتش رجل فى الخمسين أويزيد، قبيح الصورة لحد الازدراء ، قمىء ذو احديداب ، يذكرك وجهه بالقرد فى انحدار جبهته وبروز وجنتيه واستدارة عينيه وصغرهما وكبرفكيه وفطس أنفه ، الا أنه حرم من خفة القرد ونشاطه ، فبدا وجهه ثقيلا جامدا متجهما كأنه سيؤخذبجريرة قبحه ، أما اجمل ما فيه فمسبحة قهرمانية لعبت أنامل يمناه بحباتها · ومن عجب أن صورته على قبحها لم تهج مقته ولكنها استثارت هزءه وسخريته · والمدعو سيد عارف كهل فى مثل سنه على وجه التقريب ، صغير الحجم رقيق الاعضاء ، لبشرة وجهه نعومة وفى نظرة عينيه براءة · أما كمال خليل فرجل تلوح فى عينيه الرزانة ، كبير العناية بهندامه وأناقته ، معتدل القامة يميل للبدانة ، وكان أحفل القوم استقبالاللجارالجديد· ثم تحول الى احمد راشد باهتمام خاص ، فوجده شابا فى ريعان الشباب ، مستدير الوجه ممتلئه كبير الرأس تكاد تخفى صفحة وجهه نظارة سوداء عميقة السواد · أثار هذا الشاب اهتمامه لانه محام ، والمحامى رجل متعلم ، والمحاماة مهنة طمع فيها

أول عهده بالآمال وعجز عنها وان لم يقر بعجزه قط . فما يزال يحقد على المحامى حقده على الاديب والعالم ، وقد اعتاد أن يشعر نحو الواحد منهم كما يشعر الرجل نحو آخر تزوج من فتاة يحبها ، فوجد فيه عدوا وتوثب للانقضاض عليه . ولم يبق من الجماعة الا المعلم عباس شفة وهو شاب ذو سحنة زنجية توحى ملامحه الغليظة الدميمة بالدناءة والوضاعة وقد ارتدى جلبابا فضفاضا وشبشبا وترك رأسه بلا غطاء فانتفش شعره المفلفل وزاده دمامة وقبحا وبدا شيئا حقيرا لاينقصه سوى لباس السجن ! . واحتلت الجماعة على صغرها أكثر من ثلث القهوة ، وجلس القهوجى الى صندوق الماركات على كثب منها وكأنه ـ لاشتراكه فى أحاديثها ـ واحد منها ! وبينا أقبل المعلم نونو وكمال خليل افندى على احمد عاكف أيما اقبال ثابر سليمان عتة على جموده وتجهمه كأنما نسيه نسيانا تاما ، أما الاستاذ احمد راشد فجعل ينصت الى حديث يذيعه الراديو ..

ووجه كمال خليل الخطاب الى عاكف قائلا :

ـ علمنا ان حضرتك آت من السكاكينى ؟

فحنى احمد رأسه قائلا :

ـ أجل يا استاذ . .

فسأله الرجل باهتمام :

ـ أحقا لم ينج من بيوت الحى الا عدد قليل ؟

فضحك احمد قائلا :

ـ الحقيقة انه لم يهدم سوى بيت واحد .

ـ ياللناس من الاشاعات ! .. فماذا فعلت تلك الفرقعة الهائلة التى خلناها فى بيوتنا ؟!

ـ كانت فرقعة فى الهواء !.

فتحول الاستاذ احمد راشد عن الراديو ـ مما دل على أنه لم يستغرق كل انتباهه ـ وسأل الجار الجديد :

ـ وهل سقط طوربيد حقا ولم ينفجر ؟

فقال أحمد وقد شعر بسرور لتحول الشاب اليه :

ـ وقيل طوربيدان ولكن أحيط بهما وعالجهما الخبراء .

فقال احمد راشد :

ـ من لنا بذاك الخبير الكندى الذى قرأنا عنه فى انباء الحرب؟ يقال انه انقذ أحياء كاملة فى لندن !

فتساءل سيد عارف كالمتهكم وكان من محبى الالمان :

ـ أما تزال توجد أحياء كاملة فى لندن ؟!

فابتسم احمد راشد وقال لعاكف :

ـ صاحبنا من أنصار الالمان !

وضحك المعلم نونو قائلا مكملا قول المحامى :

ـ لاسباب طبية !

ـ وتورد وجه سيد عارف ، ولكن المعلم نونو لم يرحمه فأرسل ضحكته العظيمة مرة أخرى وقال :

ـ يحسب ان الطب الالمانى يستطيع ان يعيد الشباب !

وقطب سيد عارف جبينه مستاء ، والظاهر انه كبر عليه أن يصارح بمثل هذا الكلام أمام رجل مايزال جديدا فى جماعتهم، وأدرك احمد عاكف أن وراء ملاحظة نونو ماوراءها ، ولكنه لم يبد على وجهه انه سمع شيئا ، وأراد نونو ان يستدرك هفوته فراح يحدث الضيف عن الحى الجديد مثنيا عليه بما يعلم حتى علق احمد راشد على كلامه قائلا :

ـ هذا الحى هو القاهرة القديمة ، فهو بقايا متداعية حقيقة بأن تهز الخيال وتوقظ الحنان وتستثير الرثاء ، فاذا نظرت اليها بعين العقل لم تر الا قذارة تقتضينا المحافظة عليها التضحية بالبشر وماأجدران نمحوها لنتيح للناس فرصة التمتع بالحياة الصحية السعيدة !

وتنبه احمد الى مافى قول صاحبه من جدة عسى ان تنزله من القوم منزلة المحدث الماهر والمفكر الذكى خاصة ، وأن لشهادته الحكومية ـ ليسانسيه القانون ـ مكانة يدين لها الجهلاء والسذج فخاف أن يمتاز عليه ، فتوثب للنضال ، وأجمع على معارضته بأى ثمن ، فقال :

ـ ليس القديم من البقاع مجرد قذارة ، فهو ذكرى قد تكون أجل من حقائق الواقع ، فتبعث فى النفوس فضائل شتى !..

ان القاهرة التى تريد أن تمحوها من الوجود هى القاهرة المعزية ذات المجد المؤثل ، أين منها هذه القاهرة الجديدة المستعبدة ؟!

ووقع هذا الكلام من نفوس القوم موقعا حسنا قرأه احمد فى أعينهم ، فسر به ، وأراد أن يبتهل الفرصة ليعلن عن علمه فقال :

ـ معذرة يا أستاذ أحمد فقد قرأت عن تاريخنا مجلدات جعلت تعلقى به أمرا مقضيا !

فقال سيد عارف :

ـ الظاهر ان احمد افندى من عشاق التاريخ !

فسر أحمد بما هيأه كلام الرجل من فرصة أطيب للحديث عن معارفه ، فقال مبتسما :

ـ الواقع انى لاأعشق التاريخ اكثر من غيره من فروع المعرفة ، والحقيقة انى انفقت أكثر من عشرين عاما فى تحصيل المعارف المختلفة !

فولاه القوم نظرات دلت على اهتمام ، وفسرهو ذاك الاهتمام بأنه اكبار فرقص قلبه طربا ، ولكم ودلو يستطيع ان ينفذ الى عينى احمد راشد خلال عويناته السود ليقرأهما . وقد سأله كمال خليل :

ـ ولماذا تدرس هذه المعارف يا « أستاذ » ؟ . . أتحضر لشهادة ما ؟!

وعلى قدر سروره بلقب استاذ غص ببقية السؤال ، فقال باستكبار :

ـ أية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة ؟! . ما الشهادة الا لعبة يستبق اليها الشبان ، اما دراستى فلا غاية لها الا العلم الحق ، وربما مهدت بها يوما الى التأليف المنتج !

فسأله احمد راشد وعلى ثغره ابتسامة أحنقته :

ـ ما معنى أن الشهادة لعبة ؟!

فقال احمد كاظما حنقه :

ـ الشهادة ليست دليل العلم !

ـ أهى دليل الجهل ؟!

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده ان يكتمه ، ثم استدرك قائلا :
ـ أعنى ان الشهادة هى الدليل على أن شابا حفظ بعض المواد فى بضع سنين ، والعلم الحق شيء غير هذا البتة !

فابتسم احمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل · وكان يعطف على رأى محدثه فى الشهادات ، الا انه لم تغب عنه الحدة التى يسوق بها رأيه ، مما جعله يميل الى فرض احتمال وجود اسباب أخرى لذاك الرأى غير التى أعلنها · ورحب احمد عاكف بصمته لانه يرجح كفته عليه أمام « العـــوام » الذين يجالسونهما ! · وساد الصمت برهة ، وجعل المعلم نونو يفرغ الشاى فى أكواب الجلوس · ودار عاكف ببصره فى المكان ، فلاحظ لاول مرة ان غلاما يجلس على كرسى جنب كمال خليل افندى ، ولم يدر اكان موجودا قبل مجيئه أم أنه جاء فى أثناء اشتغاله بالحديث ، ولكنه أيقن من أول وهله انه ابنه ، لمشابه لاتخفى على النظر العابر · وتركه بصره الى غيره ولكنه عاد اليه سريعا ؛ فقد استوقف انتباهه «شيء» فى وجه الغلام لم يدر ما هو على وجه التحقيق · ولم يستطع ان يرمى اليه بطرفه طويلا ، فجعل يختلس من وجهه نظرات حائرة من وراء كوب الشاى وهـــو يحتسى منه رشفة بعد أخرى · ما الذى جذب انتباهه الى ذاك الوجه فكاد أن ينسى آثار المعركة التى خاض غمارها ؟! ··لعله شعور غامض بأنه رآه من قبـــل ، بأنـــه رأى هاتين العينين الواسعتين ونظرتهما الحلوة الساذجة · ومثل ذلك الشعور لا يريح صاحبه حتى يتضح الغامض من الذكريات على ضـــوء التذكر والعرفان ، وان كان فى الغالب لا يفيد شيئا ذا بال · ولذلك ألح عليه هذا السؤال « أين رأيت هذا الوجه ؟ ومتى كان ذلك ؟ »··فى السكاكينى ؟···· فى الترام ؟·فى الوزارة ؟· وردت ذاكرته على عناده والحاحه بعبث ساخر معذب ، فجعلت تدنى الى وعيه الصورة وترميه بأطياف الزمان والمكان حتى خال انه ظفر بها أوكاد ، ثم لاتلبث أن تبتلع الاطياف فى ظلمة عميقة ، وتتراجع بالصورة عن الوعى المشوق ، فيعود الغموض والابهام والحيرة الى ماكانت عليه · ورغب أخيرا أن يعرض عن تذكر

شيء ليست معرفته بالمطلب الهام ، ولكن الحقيقة ان ذاكرته لم تعد الشيء الوحيد الذى يحيره ويلح عليه ! • الحقيقة ان رغبة صادقة أو شعورا عميقا راح ينزع بقلبه الى العينين النجلاوين ونظرتهما الحلوة الساذجة ! فكلما اختلس نظرة استثار فى اعماقه حنانا وودادا وانجذابا ! وتملكته الحيرة • وتولاه الحياء ، وحذر أعين الجلوس حذر مريب مذنب ! فأطرق ممسكا بعروة الكوب وقلبه شديد الخفقان • وأبى خياله أن يفارق الغلام ، فعلق وجهه وتمثل نظرة عينيه ، ودر قلبه عطفا وودادا وهيـــاما ، وهمت عيناه ان تخونا ارادته ولكنه شد عليهما بخوف وغضب ، وتساءل متحيرا عما دهاه !؟ •• بيد أن المعلم نونو انتشله من خلوتـــه النفسية المحيرة فسأله :

ـ ألا تحب ان تتسلى بلعب شيء ؟

فنظر اليه كمن يتنبه من سبات بغتة وقال ببساطة :

ـ لاأدرى عن الالعاب شيئا !

فضحك كمال خليل قائلا :

ـ اليك الاستاذ احمد راشد قرينا وشبيها فى ذلك ، فتسامرا معا ريثما نلعب ساعة •••

ثم التفت الرجل الى ابنه ، وقال له :

ـ هلم الى البيت يا محمد ! •

فخفق قلب عاكف ، وأرسل نحوه ناظريه ، فتبعاه وهو يسير بخطى لطيفة حتى غيبه الباب ؛ فعاد يقول لنفســه متحسرا : « هلا ذكرت متى عرفت هذا الغلام ؟! » • وكانت الجماعـــة قد انقسمت فريقين ، فلعب المعلم نونو ، وكمال خليل الدومينو ، ولعب سليمان عتة ، وسعيد عارف النرد • أما عبـاس شفة ؛ فتزحزح بكرسيه الى مجلس المعلم « القهوجى » وتنحى احمد راشد ليوسع للاعبين ، فصار جنب احمد عاكف • وشـــعر الرجل باقترابه فتغير شعوره العجيب وتوثب مرة أخرى للنضال والعراك • ذهب الهيام وجاء الغضب والحقد !•• والتفت الشاب نحوه قائلا برقة :

ـ كيف حالك يا استاذ ؟! لا تحسبن انى قديم عهد بخان

الخليلي . لقد سبقتك الى هنا بشهرين ! فابتسم عاكف مسرورا بتودد الآخر اليه ، وقال كالمتسائل :

ـ الغارات أيضا ؟! .

ـ تقريبا ! .. الواقع ان مسكننا القديم فى حلوان أخلى لاغراض عسكرية فرأيت أن أنتقل الى القاهرة قريبا من مكان عملى ، ووجدت مشقة فى البحث عن شقة خالية ، حتى أرشدنى صديق الى هنا ! .

فقال احمد عاكف وقد أخفض صوته :

ـ ياله من حى مزعج !

ـ أجل . ولكنه مسل وغريب وحافل بالفنون والنماذج البشرية المدهشة . أنظر الى القهوجى الذى يحدثه عباس شفة ، انظر الى عينيه الذاهلتين ! .. انه يزدرد نصف درهم من الافيون كل اربع ساعات ، ويمضى فى عمله كالحالم لايفيق أو بالاحرى لا يرغب أن يفيق .

ـ وهل تطيب الحياة على هذا النحو ؟!

ـ لا أدرى ! .. المؤكد فقط أن البقظة التى نحبها ونستزيد منها بالقهوة والشاى يمقتها هذا الرجل وكثيرون أمثاله ، وتراه اذا أجبر بسبب ما ، على البقاء فيها مدة ، متثائبا ، دامع العينين ، شرس الخلق ولا تسكن ثائرته ، ويصفو مزاجه حتى يغيب عن الوجود ، ويهيم فى عوالم الذهول . أهى لذة عصبية تكتسب بالعادة ؟! .. أم سعادة وهمية تهرب اليها النفس من شقاء الواقع ؟! . علم هذا عند المعلم نفسه !

انه يخاف شقاء الواقع ، كواحد من هؤلاء المدمنين ، ويهرب منه أيضا لائذا بعزلته وبكتبه ، فهل هو اسعد حالا منهم ؟! ورغب عن الاسترسال فى ذاك الموضوع ، فسأل محدثه وقد غير لهجته .

ـ هل استطيع ان أكب على دراستى فى مثل هذه الضوضاء ؟ .

ـ ولم لا ؟.. الضوضاء قوية حقا ، ولكن العادة أقوى ، وسوف تألف الضوضاء حتى ليزعجك سكوتها . وقد كنت

بادىء الامر ألقاها متجهمامتكدرا يائســـا ، أما الآن فترانى أكتب مرافعاتى وأراجع مواد القانون هادئا مطمئنا وسط هذا الدوى الذى لاينقطع . ألا ترى ان العادة أمضى سلاح نواجه به غير الدهر ؟! .

فهز الرجل رأسه موافقا ، وقال وكأنه يستكثر ان ينفرد الآخر ولو بهذا القول المبتذل .

ـ ولذلك قال ابن المعتز :

ان للمكروه لذعة هم فاذا دام على المرء هانا

فابتسم أحمد راشد ابتسامته الغامضة . وكان لا يحفظ الشعر ويحتقر الاستشهاد به فتساءل فى رفق .

ـ أأنت يا أستاذ عاكف من الذين يستشهدون بالشعر ؟

فتساءل عاكف بانكار :

ـ وماذا ترى فى ذلك ؟ !

ـلا شىء البتة الا اننى أعلم أن الناس عادة لا يعدلون بالشعر القديم شعرا حديثا مما يوجب أن يكثر استشهادهم ـ اذا أرادوا أن يستشهدوا بشعر ـ بالقديم وأنا أكره النظر الى المـاضى !

ـ لا أكاد أفهم !

ـ أريد أن أقول اننى أكره الاستشهاد بالشعر لأننى أكره الرجوع الى المـاضى . أريد أن أعيش فى الحـال وللمستقبل وحسبى ما فى عصرنا من حكماء هم أهل للارشاد والتوجيه !

وكان أحمد عاكف على عكس صاحبـه يحسب أن المـاضى انطوى على العظمة الحقيقية ، أو أنه لم يعرف غير بعض نماذج العظمة المـاضية ولا يدرى شيئا عن عظماء « عصرنا » فثارت ثائرته وقال منكرا .

ـ وفيم انكار عظمة الغابرين وفيهم الأنبياء والرسل !

ـ لعصرنا رسله كذلك !!

وأوشك الرجل أن يعلن دهشته ولكنه كان أحرص من أن يبدى ـ فى حديث ـ دهشته الا اذا أوجب ذلك جهل محدثه ـ لا علمه ـ طبعا ! فتساءل فى هدوء .

ـ ومن رسل العصر الحاضر ؟!

ـ أضرب مثلا بهذين العبقريين العظيمين : فرويد وكارل ماركس !

وشعر بيد تضغط على عنقه فتكتم أنفاسه ! ، بل شعر بجرح عميق فى كرامته لانه لم يسمع قبل الآن بهذين الاسمين وأضمر لصاحبه غضبا جنونيا ، ولكن لم يسمعه اظهار جهله فهز رأسه هزة العارف العالم وتساءل .

ـ أتراهما يضارعان العباقرة الأولين ؟!

وكان سرور المحامى الشاب بعثوره على انسان مثقف لا يعادله سرور فرغب فى المناظرة رغبة قوية ، وأدنى كرسيه الى كرسى صاحبه حتى لم يعد يفصل بينهما شىء وقال بصوت لا يسمعه سواه :

ـ لقد هيأت فلسفة فرويد للفرد فرص النجاة من أمراض الحياة الجنسية التى تلعب فى حياتنا الدور الجوهرى . ونهج له كارل ماركس سبل التحرير من الشقاء الاجتماعى ، اليس كذلك ؟

وخفق فؤاد الكهل الحاقد الغاضب ، ولم يدر هذه المرة كيف يعارض فضلا عن أن ينتصر ، فراغ عن مواجهته الى التحايل عليه فقال بهدوء وصدره يغلى :

ـ مهلا ... مهلا يا أستاذ . لقد كنا مثلك متحمسين ولكن تقدم العمر ومداومة الفكر حقيقان بالزام الانسان حدا من الاعتدال !

فقال أحمد راشد بلهجة لم تخل من حدة :

ـ ولكنى أحسن التفكير فيما أطلع عليه !

ـ بغير شك الا أنك شاب وستكتسب بالعمر حكمة حقيقية ، ألم تسمعهم يقولون « أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة !»

ـ مثل قديم أيضا !

ـ وحكيم !

ـ لا حكمة فى الماضى !

ـ رباه !

– لو وجدت فى الماضى حكمة حقيقية لما صار ماضيا قط !
– ودينا ؟!

فرفع الشاب حاجبيه دهشة ولو استطاع عاكف أن يستشف ما وراء النظارة السوداء لرأى نظرة احتقار تورث الجنون . وغمغم الشاب :

– يا للسذاجة !

وكان عاكف قرأ فلسفة اخوان الصفاء الدينية فرغب أن يلخصها فى كلمات لمحدثه البغيض ليدفع عن نفسه تهمة الأخذ برأى العوام فى الدين من ناحية، وليغمض على صاحبه كما غمض عليه ، فقال :

– ان فى الدين ظاهرا حسيا للعوام وجوهرا عقليا للمفكرين فهناك حقائق لا يضيق المثقف بالايمان بها مثل الله والناموس الالهى والعقل الفعال !

فهز الشاب منكبيه استهانة وقال :

– ان العلماء المعاصرين يعلمون بما فى الذرة من عناصر وبما وراء عالمنا الشمسى من ملايين العوالم فأين الله ؟ وما أساطير الديانات ؟ ! وما جدوى التفكير فى مسائل لا يمكن أن تحل وبين أيدينا مسائل لاحصر لها يمكن أن تحل وينبغى أن نجد لها حلا !!

ثم ابتسم الشاب ابتسامة سريعة وقال وقد غير لهجته المتدفقة :

– لا يجوز أن نشرك ثالثا من جماعتنا فى هذا الحديث !!

– طبعا ... طبعا يا أستاذ ولكن لا تنس أن أول العلم كفر دائما !!

وقطع عليهما الحديث ارتفاع صوت سليمان عتة بالغضب . والظاهر أن ملاعبه سيد عارف أغاظه بهذره فتهيج القرد وصاح به :

– ان الله الذى سلبك قواك عادل حكيم !

ذكر احمد عاكف ماقيل عن سيد عارف منذ ساعة فنظر الى احمد راشد مبتسما فرد الشاب على ابتسامته ابتسامة ذات

معنى وقال :

ـ صاحبنا يجرب الأقراص ويعقد بهارجاء صادقا !

ولفت انتباههما جماعة من لابسي الجلابيب أحاطوا بمائدة عند مدخل القهوة ومضى كل منهم يعد رزمة ضخمة من الأوراق المالية وكان منظرا يستدعى الدهشة لما فيه من أوجه التناقض فقال أحمد عاكف :

ـ لعلهم من أغنياء الحرب ! ٠

فقال الآخر موافقا :

ـ سيهجرون طبقة ويلحقون بطبقة أخرى !

ـ ان الحرب ترفع كثيرين من السفلة !

ـ السفلة ! ٠٠ هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة والطبقة العالية ، فأرستقراطيو اليوم كانوا سفلة الأمس ٠ ألا تعلم أن رعاع الغزاة انتهبوا فى الماضى أراضينا بحكم الغزو ؟ ٠٠ وها هم أولاء يكونون طبقة عالية ممتعة بالجاه والسؤدد والامتيازات التى لا حصر لها ٠

ولأول مرة يميل الى موافقته دون نزوع الى المعارضة ، فقال :

ـ هذا رأيى ! ٠

فاستدرك الشاب قائلا :

ـ ويرى كارل ماركس أن العمال سيظفرون بالنصر النهائى فيصير العالم طبقة واحدة ممتعة بالضروريات الحيوية،والكمالات الانسانية وهذه هى الاشتراكية ! ٠

ولزما الصمت كأنما أجهدهما التعب ، فجعل عاكف يفكر متألما : يالها من آراء ٠٠ فرويد وماركس ، الذرات وملايين العوالم ، الاشتراكية ! ٠ واختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق ، فما كان يظن قط أنه سيعثر فى خان الخليلى على من يتحدى ثقافته ،ويجبره على التسليم بأن فوق كل ذى علم عليما ؟ ! ٠ أفلا يظفر بالراحة فى هذه الدنيا ؟!٠

وعند ذاك خلع الشاب المحامى نظارته ليمسح عينيه بمنديله فاكتشف أن عينه اليسرى زجاجية ! ٠ ودهش أول وهلة ،

ثم غمره شعور بالارتياح خبيث ، لأنه وجد فى عوره وجها للاستعلاء عليه أيا كان هذا الوجه ! ..

ولبث فترة قصيرة ، ثم غادر القهوة عائدا الى البيت هائج النفس ، ثائر الكرامة . ولحسن حظه ذكر فجأة الغلام ! .. وسرعان ما تغيرت حاله ورفت على حواسه الملتهبة نسمة رطيبة أذهبت رياح الحقد والغضب . وتمثلت لخياله العينان النجلاوان والنظرة الفاتنة ، فتنهد متحيرا ، وهمس لفؤاده « سأراه حتما مرة أخرى آ » .

- ٧ -

ونهض فى الصباح المبكر نشيطا ، ففتح النافذة وأطل منها على الحى العجيب ، فوجد الحى يتمطى مستيقظا فالدكاكين ترفع أبوابها ونوافذ الشـــقق تفتح على مصاريعها وباعة اللبن والصحف ينطلقون الى الطرق المتشابكة منادين بغير انقطاع . وجذب انتباهه قدوم جماعات من « مشايخ » المعاهد الأولية الغلمان يسيرون زرافات نحو معهدهم فى جبب سوداء وعمم بيضاء فذكروه « بالفشار » فى المقلى وأنصت اليهم مستلذا وهم يرتلون معا « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » وجعل رأسه يروح معهم ويجىء حتى ختموها « يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » فذكر لتـوه أحمد راشد المحامى فهو من الذين أعد لهم هذا العذاب الأليم ! وانه به لحقيق !

وعند عصر ذاك اليوم وقـد جلس وأمه فى الصصالة يشربان القهوة قالت له المرأة بسرور :

ـ زارنى اليوم بعض نساء الحى من الجيران للترحيب بى والتعرف الى كما جرت العادة ..

فابتسم أحمد الذى يقدر سرور أمه بمعرفة الناس وولعها بالزيارة وقال لها :

ـ هنيئا لك !

فضحكت وهى تتناول منه سيجارة ، ثم أشـعلتها وهى

تقول :

فيهن نساء لطيفات سيملأن غربتنا حرارة وحبورا آ

ـ لعلك أن تنسى بهن الصديقات القديمات من نساء السكاكيني والظاهر والعباسية !

فكبر عليها قوله وصاحت به :

ـ أينسى الكريم أحبابه ؟ ! ... هن روحي وحياتي ، ولن يفرق بيننا البعد مهما امتد وطال .

ـ ونساء الحي من أي نوع هن ؟!

فقالت المرأة باهتمام وبلهجة من ينبري للدفاع :

ـ لسنا من السفلة ولا من الغجر كما ظننت ، وبعض الظن اثم . وكان بين اللائي زرنني زوج موظف بالمساحة يدعى كمال خليل ، وزوج آخر بالمساحة أيضا يدعى سيد عارف ، وجاءتني أيضا زوج صاحب قهوة الزهرة وشقيقته والزوجة امرأة طيبة القلب ، أما شقيقة زوجها فينطق في عينيها المكر والشر ، وان سترت ذلك كله بغلالة شفافة من الرقة والابتسام !

ـ داريها هي وأمثالها باللطف ، فانه ان يبلغها شيء عنك من وراء وراء كشفت وجهها علينا !

ـ لا سمح الله يا بني . أما أعجب ماصادفت اليوم فهو أن الست توحيدة حرم كمال افندي خليل ـ وهي جسيمة كالمحمل أو كأمك أيام شبابها ـ صديقة قديمة ! .. عرفتها في دكان بهلة العطار بالتربيعة ..

ـ وانتما تسعيان معا الى وصفات السمن !!

ـ هو ذلك .. وتبادلنا التحية هناك مرات ، ولكننا لم نتقدم وراء ذلك في سبيل التعارف ،

ـ ها هي ذي الايام تعارف بينكما !

ثم ذكر أن هذه السيدة أم الغلام محمد ! .. ولم يكن ذكره في نهاره الا حين جاء ذكر أمه ، فعجب كيف نسيه طوال ذاك الزمن ، وقد كان قبل عشرين ساعة ملء القلب والخيال ! . ولكن أمه لم تدعه لأفكاره فضحكت ضحكة عالية وقالت :

ـ وأخذنا في كذب النساء طويلا ، وكذب النساء لذيذ .

فهذه أبوها فقيه كبير يتبارك الناس بتقبيل يديه ، وتلك كريمة تاجر واسع الثروة ، والثالثة قريبة مدير حسابات الداخلية والرابعة مرضت مرضا أنفقت على علاجه عشرات الجنيهات !

وضحكا معا . ثم سألها الكهل وما زال ضاحكا :

ـ وكيف كان كذبك ؟!

فقالت وهى تحدجه بنظرة ضاحكة :

ـ يسيرا لا تثريب عليه يوم الحساب . فأبوك أحيل على المعاش منذ زمن يسير ، وكان مفتشا بالاوقاف . وأما أبى ـ جدك ـ فكان تاجرا . وأنت يا نور عينى رئيس قلم بوزارة الأشغال ، ولك من العمر اثنان وثلاثون عاما لا غير فتذكر !

ـ يا خبر !

ـ لا فائدة من الاعتراض ، واياك وتكذيب الكذب ! . وأنا أكبرك بثلاثة عشر عاما . فأنا فى الخامسة والأربعين .

ـ هل ولدتنى وأنت طفلة !

ـ الأنثى تلد فى الثانية عشرة من عمرها !

ـ هذه أخت وليست بأم .

ـ صدقت فالولد الاكبر أخو والديه . أما أخوك فوكيل بنك مصر بأسيوط !

فهز الرجل رأسه عجبا وقال :

ـ كيف تؤاتيكن الجرأة على تزييف حقائق لن تخفى طويلا عن عين الجار ، ولابد أن تنكشف حقيقتها يوما ما ؟!

فقالت ببساطة :

ـ غدا تؤلف العشرة بين قلوبنا ونعرف الحقيقة رويدا رويدا بلا سخرية ولا تعيير . ولو اننى قلت الحقيقة بغير زيادة لما صدقتنى كما لايصدقننى الآن ولاتنقصن من رأس المال بدلا من أن ينتقصن من الفائدة !

ـ يالكن من كاذبات لا يشق لهن غبار !

ـ وماذا عليك من هذا ؟! . طوبى لكذب غايته الرفعة والفخر ان كذب النساء بلسم لجراح دامية ، متعك الله بعروس تعاطيك أجمل الكذب وأشهاه !

فضحك الكهل على امتعاضه لذكر العروس وكرر قوله السابق قائلا :

ـ يا لكن من كاذبات لا يشق لهن غبار !

فلحظته غامزة بعينيها وسألته :

ـ وأنتم يابنى ألا تكذبون ؟

وصمت قليلا لا لأن الجواب غائب عنه ، ولكن لأنه يفكر قليلا فيما تنوء به حياته من ألوان الكذب ، ثم قال :

ـ نكذب ، ولكن فى أمور أجل !

ـ عسى أن يكون تافها عندنا ما هو جليل عندكم ، ولكن هل تعد العمر والفخر بالجاه والسؤدد أمورا تافهة ؟!

ـ كذب الرجال جليل كالرجولة نفسها ! .. فأين أنتن من كذب التجار والساسة ورجال الدين ؟! .. كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التى تشاهدين آثارها فى معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد ، بل هو محور هذه الحرب الهائلة التى رمت بنا الى هذا الحى الغريب .. !

وعلم أنها لم تفهم من قوله الا أقله فسر لذلك سرورا مضاعفا ثم ذكر أمرا فسألها :

ـ ألم تزرك زوجة من حريم المعلم نونو ؟

ـ ملعون أبو الدنيا ؟! .. لقد حدثننى بسيرته طويلا ، ولكن الرجل يحرم على أزواجه الخروج أو النظر من النوافذ وربما انقضى العام فى أثر العام وهن قابعات فى دارهن راضيات قانعات !

ـ حقيق بمن يتغنى بلعن الدنيا ألا يأمن اليها !

ـ والله يابنى المرأة مظلومة كالدنيا ، ولكن ما علينا من هذا فهل سمعت بشخص يدعى سليمان عته ؟

ـ المفتش ؟ !

ـ تدعوه توحيدة هانم بالقرد !

ـ لعل قولها هذا أول صدق تقع فيه !

ـ وقالت عنه ضاحكة انه يفكر فى الزواج !

ـ وأية فتاة ترضى بهذا القرد العجوز بعلا ؟!

ـ كثيرات لا حصر لهن فالمال نصف الجمال على الأقل ، فالفتاة هى التى تتصيده وتجد فى طلبه حتى لا يفوتها الزواج منه قبل الخامسة والخمسين ٠

فسألها ضاحكا :

ـ وهل ينتهى الرجل عند هذه السن ؟

ـ لاقدر الله ، ولكنها لا تستحق فى معاشه اذا تزوجت منه بعدها ٠

ـ فهى ترغب فى الزواج منه وتراهن على موته ! ٠٠ فمن عسى أن تكون هذه العروس الحكيمة ؟

ـ قالت الست توحيدة هانم انها كريمة يوسف بهلة العطار، وانها الجمال عينه ، فقد جمعت الحسن من طرفيه : الطبيعى والصناعى !

فتمثل أحمد عاكف صورة القرد العجوز باشمئزاز ، وعجب كيف يحظى بمالا يطمع هو فيه من اقبال الحسان !

ألم تنبذ يده امرأة ـ ليست بحال الجمال عينه ـ قائلة ان عمره كبير ؟! ٠٠ وأراد أن يتخيل صورة كريمة العطار ، فذكر فجأة وهو لا يدرى السمراء الحسناء ذات العينين النجلاوين التى التقى بها فى الردهة الخارجية ! فانقبض صدره وسأل أمـه :

ـ هل يقيم العطار فى عمارتنا ؟

فقالت :

ـ كلا بل يسكن فى بيت القاضى !

فتنهد ارتياحا »٠ ثم تساءل لاى أسرة تنتمى الفتـاة ؟ وما لبث أن كتم صيحة كادت تفلت من بين شفتيه !! ٠٠ فقد ذكر فى تلك اللحظة عينى الغلام محمد ، وذكر أين رآهما أول مرة فى وجه السمراء الحسناء فى الردهة الخارجية ! ٠ ٠ وهذا ماحاول تذكره فعز عليه ساعتئذ وأضناه ٠ فالغلام شـــقيق الفتاة بغير شك ! وخفق فؤاده ، ولكنه شعر بارتياح عميق وسرور لذيذ وانجابت وساوسه وحيرته وخجله ! ٠ وكان سروره باكتشافه من القوة بحيث لم يعد يلقى بالا الى حديث أمه ٠ فما زالت تتكلم وما زال يتيه فى أحلامه ٠٠٠

- ٨ -

وعندما أتى المساء مضى الى الزهرة • ولم يمض دون تردد فان ارتياد المقهى حدث جديد عليه لم يتعوده ولم يألفه • وكان حرصه على عزلته الثقافية يعادل تباهيه بها، فلولا ما يدعوه الى هناك من مصاولة أحمد راشد والظهور على الآخرين ما وجد خروجه على عزلته أمراميسورا• لم يلتق فى الزهرة بأحمد راشد ، وسأل عنه فقيل له انه كثيرا ما يمنعه العمل عن الحضور الى القهوة • على أن الجلسة لم تصر – رغم ذلك – فاترة ، وأحياها المعلم نونو والمعلم زفتة « القهوجى » بظرفهما الجميل • وتكلم أحمد عاكف كثيرا وضحك طويلا ، وقد أخذ يستهويه الاجتماع بالناس أو بالظرفاء من الناس خاصة ، ويجد فى الأنس بهم ما يجد التعب المنهوك أسلم جنبه للرقاد • وعاد الى البيت فى العاشرة ، فعكف على المطالعة زهاء الساعتين وأطياف الحياة الجديدة تتراقص أمام عينيه بين السطور – وما عهد قط الاستغراق فى القراءة – ثم نهض الى فراشه وراح فى النوم • ولم يدر أطال به النوم أم قصر • ولكنه استيقظ على صوت منكر ، لم ينتبه الى حقيقته فى الثانية الأولى من استيقاظه ، ثم أدرك كنهه فخفق قلبه خفقة فزعة ، وقفز الى أرض الحجرة بسرعة جنونية ، ، وتحسس شبشبه بقدميه فوضعهما فيه ، ثم اندفع الى الصالة الخارجية فالتقى بشبحى والديه تتقدمهما الخادم

الصغيرة . وسأله أبوه بصوت متهدج .

ـ هل تعرف الطريق الى المخبأ ؟

فأجابت الخادم عنه بسرعة :

ـ أنا أعرفه يا سيدى .

وسبقت الاسرة الى الباب فى ظلمة حالكة ، وخرجوا جميعا الى الردهة الخارجية متحسسين الحائط الى السلم الحلزونى . وهناك بلغت آذانهم جلبة اليقظة التى شملت الدور جميعا . ومزق السكون صفقات الأبواب وهى تغلق ، ووقع أقدام المهرولين على السلم ، وتصاعد أصواتهم بالكلام والضحكات العصبية . وهبطت القافلة مهتدية بالدرابزين تخوض بحار الظلمات ، ويسوقها الخوف والفزع . وفى الطريق أرشدتهم أشباح السكان وأصواتهم الى الطريق فلم يحتاجوا الى الاستدلال بخادمهم . وكانت الطرقات المسقوفة تبدو كداخل البيوت ظلمة ، أما الأخر فيخفف شعاع النجوم الشاحب من شدة ظلمتها . وعاد بهم الخوف الى ذكريات تلك الليلة الجهنمية فانقبضت صدورهم وجعلوا يقلبون وجوههم فى السماء كلما لاحت لهم . ثم بلغوا مدخل المخبأ فى تيار من الهوم غير منقطع ، وهبطوا مع سلمه فى باطن الأرض حتى وجدوا أنفسهم فى مكان متسع بهر أعينهم ـ المخدرة بالظلام ـ بمصابيحه الكهربائية القوية ، وكان سقفه وجدرانه تترك فى نفس الشاهد أثرا عميقا بصلابتها وشدة مراسها . وقد التصقت بجوانبه مقاعد خشبية مستطيلة وبعثرت فى وسطه كثبان من الرمل . ومضت الأسرة الى احد الاركان واتخذت مجالسها ، وتفرق القادمون الى الاركان والمقاعد ، ووقف خلق كثيرون وسط المخبأ ممن ضاقت عنهم المقاعد . وشاع الخوف أول الأمر فلم ينفع الاجتماع ولا النور ولا صلابة الجدران فى تلطيف حدته ، ومضت فترة انتظار مؤلمة نطقت فيها الأعين بعذاب الصدور . ونظر أبوه فى ساعته ثم غمغم قائلا :

ـ الساعة الثانية صباحا ! .. نفس ميعاد الليلة الفظيعة .

وكان أحمد يعانى ما يعانيه أبوه وأكثر ، ولكنه قال بلهجة

هادئة ما استطاع :

ـ كان الضرب خطأفلن يتكرران شاء الله !

ومضت الدقائق متتابعة والسكون مطبق ، وطالت فترة السكون فأخذ الأمن يتسرب الى الجوانب الخافقة ، وشاع الهمس والكلام ، وعلا ضحك كثير ، ثم طمأن القوم بعضهم بعضا . ونظر أحمد فى الوجوه القريبة فوجدها غريبة وقد استبقوا الى الحديث فى جلبة . قال رجل منهم :

ـ لن يبلغ الاذى مهبط رأس الحسين .

فقال له آخر :

ـ قل ان شاء الله !

ـ كل شىء بمشيئة الله ...

ـ وهتلر ينطوى على احترام عميق للبقاع الاسلامية !

ـ بل يقال انه يبطن الايمان بالاسلام !

ـ ليس هذا عليه ببعيد ، ألم يقل الشيخ لبيب التقى النقى انه رأى فيما يرى النائم على بن أبى طالب رضى الله عنه يقلده سيف الاسلام !!

ـ فكيف ضربت القاهرة فى منتصف هذا الشهر ؟!

ـ ضرب السكاكينى وهو حى غالبية سكانه من اليهود !!

ـ ترى ماذا ينتظر الامم الاسلامية على يديه ؟!

ـ سوف يعيد ـ بعد فروغه من الحرب ـ الى الاسلام مجده الاول ، وينشىء من الامم الاسلامية اتحادا كبيرا ، ثم يوثق بينه وبين ألمانيا بعهود الصداقة والتحالف !

ـ لذلك يؤيده الله فى حروبه .

ـ وما كان الله لينصره لولا جميل طويته ، وانما لكل امرىء ما نوى !

استمع الكهل الى المتحاورين بلذة واتكار ، وكانت غالبيتهم من أهل البلد ولكنه لم يكن يتصور أن تبلغ بهم سذاجة التفكير هذا الحد من الاوهام ، أو أن تؤثر فيهم الدعاية ـ ان كان هناك دعاية ـ هذا التأثير المضحك . ولكنه لم ينكر على حوارهم لذته وفكاهته غير المقصودة ، وما كان ليحرم نفسه

من متعة لولا أن وقع بصره اتفاقا على غريمه الاستاذ أحمد راشد متمشيا على كثب منه ، فنهض اليه فورا فتصافحا ثم قال له عاكف :

ـ لم نرك اليوم ٠

فقال الشاب ذو المنظار الاسود :

ـ شغلت بدراسة قضية ٠

واستثار القول غيرته فلم ينبس بكلمة وراح المحامى يقول ملقيا نظرة شاملة على ما حوله :

ـ رأيت جميع الاخوان هنا معنا الا المعلم نونو طبعا ٠

فابتسم عاكف قائلا :

ـ أعجب به من رجل غريب الاطوار !

ـ يتلخص فى الكلمات الآتية « ملعون أبو الدنيا » ٠

ـ هذا شعاره أو قل أنه نشيده !

ـ ما كان أجدره أن يعيى الموت لولا قضاء الهرم ٠

ـ هو الايمان !

انه يشعر بالله شعورا عميقا ، ويحسه فى كل مكان يحله ، ويتوكل عليه بكل قلبه ، ويطمئن كل الاطمئنان الى أنه لن يتخلى عنه ، وتراه يلم بالمعصية دون أدنى شك فى غفرانه ورحمته ٠ فتنهد عاكف وقال :

ـ هذا رجل سعيد كما علمت ٠

فهز الشاب رأسه بما يشبه الاحتقار وقال :

ـ سعادة عجماوات ٠ سعادة الجهل والايمان الأعمى ٠ السعادة التى يعيش الطغاة بفضل تملكها رقاب البلهاء ٠ ومن المضحك أن تجد هذه السعادة الحمقاء من يأسى عليها بين الحكماء !! فتش عن السعادة الحقة على ضوء العلم والعرفان ٠ فاذا وجدت مكانها قلقا وسخطا وشقاء فتلك آيات الحياة بالانسانية الفاضلة الحقيقة بتطهير المجتمع من نقائصه والنفس من أوهامها ، الحقيقة ببلوغ السعادة الحقة ٠ ان سعادة نونو لا تفضل شقاءنا ـ نحن دعاة العلم والاصلاح ـ الا كما يمكن ان يفضل الموت براحته المزعومة نعمة الحياة

بمتاعبها وكفاحها !

ولم يجد عاكف من نفسه لتوتر أعصابه بجو المخبأ قوة يتوثب بها للنضال والمعارضة فقال مبتسما :

ـ ألا ترى أنـــه ينعم الآن بفضل سعدته العمياء برقادلذيذ بينما نشقى نحن جميعا برطوبة الليل ! فضحك الشـــاب وكان أملك لجنانه من الآخر وقال :

ـ لا شريك له فيه الامعشوقة الازواج !

فبدا على وجه عاكف ما يشهد بأنه لم يفهم شيئا فابتسم المحامى واستدرك قائلا :

ـ الم تسمع عنها بعد ؟! ... انها امرأة هائلة ، وظيفتها الرسمية « زوج عباس شفة » ، أما تذكره ؟ ... أما بيتها فيستقبل كل مساء جمهرة أرباب البيوت بهذا الحى ، فسمها المعلم زفتة القهوجى « معشوقة الازواج » !

فلاح فى وجه عاكف الاهتمام الذى يثيره مثل هذا الحديث وتساءل :

ـ أتعنى ... ؟!

ـ نعم .

ـ وعباس شفه ؟!

ـ زوج رسمى ، زوج وجد فى الزوجية مهنة ومرتزقا !

ـ ألذلك تحتفـــون به على حقارته وقبحه ؟

ـ انه عزيز ذو مقام عظيم !!

وتمثل عاكف وجه الرجل الدنىء وشعره المنفوش باحتقار شديد . وتحرك فى تلك اللحظة شاب فتحرك معه يسيران فى بطء شديد مستعرضين الجلوس والواقفين ، حتى رأيا سيد عارف جالسا الى جوار حسناء نصف واضعة على حجرها طفلا ، فغمغم الشاب :

ـ صاحبنا سيد عارف وحرمه ..

فسأله عاكف باهتمام واستحياء .

ـ حرمه ؟! .. وكيف تزوج ؟!

ـ كما يتزوج الناس ، وهو رجل عادى لولا حالة طارئة

غير ميئوس منها ، ورجاؤه كبير فى الاقراص الالمانية ، ولن ..

ولم يتم احمد راشد كلامه فقد قطعه دوى طلقة شديدة ، تابعتها طلقات متقاربة . وارتجف قلب عاكف وخال أن جسمه كله ارتجف فخاف أن يكون غريمه اطلع على رجفته . وساد سكون عميق وحارت فى العيون نظرة قلق وخوف . وقال أناس « هذه طلقت مدافع مضادة » يطمئنون أنفسهم ويطمئنون الآخرين ، ولكن الكلام ـ أيا كانت مقاصده ـ أحدث فى النفوس القلقة المنصتة جزعا وحنقا . وجاء رجل من الخارج مهرولا وقال وهو يلهث «السماء ملأى بالأنوار الكاشفة ! » فاشتد الخوف بلا فائدة . ثم سمعت طلقات أخرى بعيدة استمرت فترة وجيزة قبل أن يطبق السكون مرة أخرى ، وطالت فترة السكون وامتدت فعادت الطمأنينة الى النفوس ، وتعالى الهمس ثم ضج المكان بالكلام :

ـ لن تعاد مأساة الضرب الاعمى ..

ـ لقد اعتذر راديو برلين عن غارة منتصف سبتمبر !

ـ كانت غارة ايطالية فالالمان لا يخطئون !

فابتسم أحمد راشد ـ استطاع أن يبتسم ثانيا ـ وقال لصاحبه :

أرأيت الى هؤلاء المتعصبين للالمان ؟! .. وأنت ؟! ... هل أنت كهؤلاء ؟

وكان عاكف يتلذذ ـ كعادته ـ بمشاركة المغلوبين عواطفهم ، ولما كانت الغلبة للالمان فى ذاك الوقت فقد قال بغير تردد .

ـ كلا انى مع الحلفاء قلبا وقالبا . وأنت ؟!

فسوى المنظار الاسود على عينيه وقال :

ـ لى أمل واحد : ان ينتصر الروس ويحرروا الدنيا من الاغلال والاوهام !

وابتعدا قليلا عن جماعة المتحدثين فرأيا فى نهاية الجناح الآخر من المخبأ ـ على يمين الداخل ـ صاحبهما كمال خليل وأسرته ! . ورمى عاكف نحوه بناظريه باهتمام شديد فرأى سيدة مفرطة فى السمن ، والغلام محمد فى بيجامة ، والفتاة

السمراء ذات العينين النجلاوين الساذجتين ، رأى جهرة ما جعله الشوق يلتمسه خطأ فى غير موضعه ، وجاءت الحقيقة مطابقة لما سر باكتشافه منذ ساعات معدودات ، ولم يسعه ادامة النظر فرد الطرف متمليا ممتلئا ، ثم سمع أحمد راشد يقول بصوت خافت :

ـ كمال خليل وأسرته !

فسأله :

ـ أهذه الفتاة كريمته ؟

ـ نعم . له محمد ونوال وفتاة كبرى متزوجة !

واختلس منها نظرات ليملأ عينيه من النظرة الساذجة تقطر خفة . وكانت ملتفة فى معطف شتوى وقد أرسلت شعرها الاسود فى ضفيرة غليظة ، ومضت تتثاءب مرسلة نظرة ناعسة . ورآهما كمال خليل فأقبل نحوهما مبتسما ووقفوا معا يتحدثون وأدرك عاكف أن اقبال الرجل عليهم لابد ملفت أعين أسرته اليهم وانه لا يبعد أن تتفحصه العينان النجلاوان ـ ان لم تكونا تفحصتاه بالفعل ـ فى جلبابه الفضفاض ، وطاقيته البيضاء ، فتوزد وجهه حياء وقلقا وتساءل ترى هل تذكره ؟ ... ولم يطل المطال بوقوفهم معا فانطلقت صفارة الأمان ودبت فى المخبأ حركة عامة شاملة ، فحيا عاكف صاحبيه ومضى الى والديه ، وانتهره أبو قائلا بحدة :

ـ أتتخلى عنا ساعة الضرب وتهرع نحونا عند الامان !

فقالت أمه ضاحكة :

ـ الله معنا فى جميع الاوقات .

واندسوا فى التيار المتجه نحو الباب يسيرون فى بطء شديد حتى ارتقوا السلم الى الطريق ، وعادوا الى عمارتهم وقد أضاء الطرقات ما انبعث اليها من نور النوافذ ، وصعدوا الى شقتهم فى جمع من السكان عرف أحمد صوت كمال خليل بين أصواتهم . وسارع الرجل الى فراشه يراود النوم كرة أخرى ، ولكن فرقت بينهما طويلا ذات العينين النجلاوين والنظرة الحلوة ...

- ٩ -

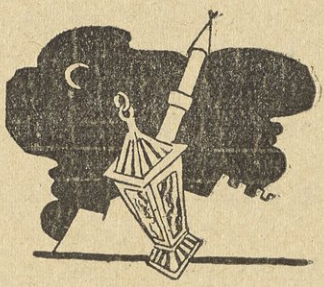

واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل ، ولكن رمضان لا يأتى على غرة أبدا ، وتسبقه عادة أهمة تليق بمكانته المقدسة ، ولم تغفل أم احمد عن ذلك - وكانت فى الواقع المسئولة الاولى عن جلال الشهر وجماله - فجعلت منه يوما حديث الاسرة قائلة انه شهر له حقوقه كما له واجباته ، وكان قولها موجها لاحمد فأدرك مغزاه وقال مدافعا عن نفسه :

رمضان له حقوقه ما فى ذلك من شك ولكن الحرب ضرورة قاسية جارت على جميع الحقوق !

فقالت الام بلهجة دلت على عدم الارتياح :

- لا قطع الله لنا من عادة !

فاستيقظ نجله وقال بشىء من الحدة :

- ليمض رمضان كما مضى غيره من الشهور ، وسنعوض ما فاتنا منه فيما يقبل من أيام السلم !

- والنقل والكنافة والقطايف ؟!

ووقعت هذه الاسماء من نفسه موقعا ساحرا - على استيائه - ليس لاشتهائها فحسب ، ولكن لما دعته من ذكريات الشهر المحبوب وعهود الصبا خاصة ، بيد أن الذكريات الحنونة لم

تغن عن حقيقة الغلاء الواقعة ولم تلطف من حدة حرصه ، فقال بلهجة حازمة رغم تحرك الحنان فى قلبه .

ـ لندع الكماليات فى ظروفنا الحاضرة القاسية ولندع الله الكريم أن يعيننا على توفير ضروريات الحياة .

واصغى الوالد باهتمام الى أقوال ابنه وان تظاهر بعدم الاكتراث ، ومال الى تأييد الام فيما تقول ولكن شجاعته لم تؤاته ، فلما صاغ الابن رأيه فى تلك اللهجة الحازمة قال الوالد بصوت هادىء .

ـ ولا تغل يدك الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .

وأدرك أحمد أن أباه من حزب أمه ، ولم يسعه أن يواجهه بمثل صراحته فى مخاطبة أمه ، لتعوده مهابته منذ نعومة أظفاره واشفق ـ كما أشفق دائما ـ من أن يعرض عن يده اذا امتدت له بطلب بعد أن صار أكبر اعتماده عليه ، فسكت مرتبكا متحيرا حتى قال عاكف أفندى أحمد الأب :

ـ حسبنا قليلا من الصنوبر والزبيب لضرورتهما فى الحشو ، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق ، ولنقنع من الكنافة بمرة واحدة ، ومن الفطائف ـ وهذه لا تقلى فى السمن ـ بمرتين ، وليس هذا عليك بكثير ..

فهاله الامر ، وأيقن أنه سينفق هذا الشهر ما اعتاد توفيره كل شهر من النقود القلائل ، ربما أجبر على سحب مبلغ آخر من صندوق التوفير ، الامر الذى ينغص عليه صفوه . ثم ذكر شيئا آخر لا يقل خطورة عن الكنافة والنقل فقال :

ـ واللحوم ؟ !

فقالت أمه بما لها عليه من دالة :

ـ سمحت الحكومة ببيع اللحوم طوال الشهر الكريم ، وما ذلك الا لان قطعة اللحم حقيقة بأن تسند قلب الصائم المتهالك !

فقال أحمد معترضا :

ـ ولكن ميزانيتنا أصغر من أن تقوم بابتياع رطل لحم كل يوم مع الحاجيات الاخرى !

فقال الوالد مستعينا بقليل من الدهاء :

ـ صدقت والافضل أن نمتنع عن اللحوم مرة كل ثلاثة أيام !

وانشغلت الام فى الايام الباقية بتهيئة المطبخ ، وتبييض الاوانى وتخـزين ما تيسر من النقل والسكر والبصل والتوابل وكان لمقدم رمضان فى نفسها فرحة وسرور ، ولو انها لم تؤد فريضة الصيام الا منذ سنوات قلائل ، اذ أنه شهر المطبخ كما أنه شهر الصيام ، أولانه شهر الصيام واجل من هذا انه شهر الليالى الساهرة ، والزيارات الممتعة ، حيث تدار الاحاديث على قزقزة اللب والجوز والفستق • ومن حسن الحظ أن رمضان وافق ذاك العام شهر أكتوبر ، وهو شهر معتدل ، وغالبا ما يصفو جوه ويطيب فيلذ فيه السهر حتى يتبين الخيط الاسود من الخيط الابيض من الفجر •

وجاء مساء الرؤية ، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون وعند العشى أضاءت مئذنة مسجد الحسين ايذانا بشهود الرؤية ـ وقد اجتزأوا بالاضاءة عن اطلاق المدافع لظروف الطوارىء ـ وازينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العـالمين ضياء لألاء فطاف بالحى وما حوله جماعات مطبلة هاتفة « صيام صيام كما أمر قاضى الاسلام » فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد ، وشاع السرور فى الحى كأنما حمله الهواء السارى ، فلم يملك أحمد عاكف أن يقول :

ـ أين من رمضان شارع قمر هذا الرمضان البهيج ؟!

فابتسم والده وقال :

ـ وما رأيت مما رأيت ياغلام؟ ! • • أشهدت رمضان فى حينا الجديد هذا قبل اندلاع الحرب ؟•• انه النور والسرور، انه الليل المنير اليقظان ، انه الليل العامر بالسمار والمنشدين واللهو البرىء • وفى أيام الفتوة والصحة كنت أسرى قبيل السحور بساعة فى جمع من الاخوان من السكاكينى الى حينـا هذا نسحر كوارع ولحم الرأس وندخن البـــــورى فى مقهى الحسين ونستمع الى آذان الشيخ على محمود ثم نعود مع الصبح الباكر •••

فسأله أحمد :

ـ متى كان ذلك ؟
فقال الرجل بلا جهد :
ـ وأنت فى العاشرة !
آه ... تلك الايام العذاب ، أيام السرور والمرح والتدليل . لقد اتفق له ولوالده عهد واحد يبكيانه معا . ومضى أحمد ذاك المساء ـ كعادته الجديدة ! ـ الى مقهى الزهرة ، وقد استسلم لهذه العادة الجديدة التى استأثرت بنصف الوقت المخصص للمطالعة ، ووجد فى المعاشرة لذة ليست دون لذة القراءة والعزلة .
واجتمع بالصحاب الذين أخذ يألفهم ويألفونه . ودار الحديث عن سهرات رمضان وكيف يقضونها فقال عباس شفة ـ زوج معشوقة الازواج ـ بصوته المبحوح .
ـ لا تتعبوا أنفسكم فى التفكير فلنا فى سهرات رمضان الماضية أسوة . نجىء الى قهوتنا بعد الفطار ونستمر بها حتى منتصف الليل ثم ننتقل الى « هنك » لنصل سهرتنا بالسحور .
وتنبه أحمد الى « هناك » هذه وتساءل ترى هل يستبيحون المنكر فى شهر النوبة ؟! على أن سبيله كان واضحا فسيلبث بينهم ما لبثوا فى المقهى ثم يعود الى بيته فيطالع حتى السحور وهكذا حتى يختم الشهر .

- ١٠ -

وفى اليوم الاول من أيام الصيام كابد أحمد عاكف تعبا مرهقا فشق عليه ألا يشرب قهوته ويدخن سيجارته على الريق ، ومضى الى الوزارة متوجع الرأس متثائبا ، وغالب تعبه مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه . وذكر أن أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبا ولا حرمانا فسره أن يحتقره ويتعالى عليه . وعاد الى البيت ظهرا وقد نهكه التعب ، فاستلقى على فراشه وراح فى نوم عميق صحا منه قبل الفطار بساعة واحدة . وذهب الى الحمام فرطب وجهه وأطرافه ، وفى طريق عودته رأى والده فى حجرته متربعا على سجادة الصلاة يقرأ فى الكتاب ، فمر به ساكنا ، وعطف رأسه الى المطبخ فرأى أمه مشمرة عن ساعديها ، ودعاه المطبخ الى الوقوف بعض الوقت عند عتبته ، فأجال بصره فيه متشمما فطاف بطبق كبير حفل بمواد السلطة من بقدونس وجرجير وجزر وبصل وطماطم خضرة يانعة وحمرة فاقعة ، فانشرح صدره وتحلب ريقه ، وانتقل الى سلطانية الفول فلم يستطع صبرا ، وزايل مكانه ، وفى الصالة مر بالسفرة وقد هيئت فوضع على ركن منها العيش وفرقت أمام كراسيها أكواب الماء وتوسطها طبق ملآن بالفجل ، فهرع الى حجرته وأغلق الباب . وكان أبقى الاهرام بغير قراءة

ليتسلى بمطالعته فى الساعة الاخيرة المعروفة بشدتها وثقلها فأكب عليه حتى فرغ منه ، ونظر فى الساعة فعلم أنه لا يزال عليه أن ينتظر نصف ساعة أخرى ! .. وتجهم وجهه ، ثم لم ير بدا من فتح النافذة المشرفة على العمارات ليقطع الوقت بالنظر ، ورأى المعلم نونو يغلق دكانه وأطفاله ينتظرونه يكادون يسدون الطريق سدا ، ثم مضى يحفون به ويتعلق الصغار بساقيه ويصيحون جميعا فى جلبة تحسده عليها محطة الاذاعة . وقد أوشك الطريق أن يخلو الا من باعة الزبادى ، وشاهد شعاع الشمس الاخير يتقلص عن أسوار العمارات التى تواجهه من وراء مربع الحوانيت العظيم ، والنوافذ المفتوحة تعلن عن السفر الحافلة ، وعلى الشرفات انتصبت القلل لتبرد وانتشرت أطباق الخشاف المكللة بغلالات بيض ، وأتى الهواء بروائح التقلية ونشيش المقليات فتاه فى دنيا الطعام الساحرة . . ثم تحول عن هذه النافذة الى النافذة الاخرى المطلة من جنب على خان الخليلى القديم ففتحها وارتفق حافتها ، ورمى بطرفه الى الحى القديم فوجده صامتا ساكنا تلوح قبابه المعزية كأنها تسجد تحية للشمس المولية ، وكان يواجه نافذته عن قريب جناح العمارة الايسر بنوافذ مغلقة ، ولكنه سمع حركة خفيفة هفت من عل ، فرفع بصره فرأى شرفة الجيران ـ التى تواجه نافذته ولكن فى الطابق الاعلى من العمارة ـ ورأى فى الشرفة فتاة مكبة على تطريز شال انسحب ذيله على حجرها وهى جالسة على كرسى ملتفة الساقين ، وعرفها من أول نظرة ـ حتى قبل أن ترفع اليه عينيها ـ فاهتز صدره ، فما كان يحسب أن شقة كمال خليل فى هذا الجناح الذى يواجهه ، ولا أن فتاته دانية اليه لهذا الحد فشعر بارتياح وسرور . ورفعت الفتاة عينيها اليه ثم ردتهما بسرعة الى ابرتها فنظر فى العينين العسليتين النجلاوين لثالث مرة ، وفى تلك اللحظة الخاطفة من التقاء العيون ، اضطرب قلبه وغلبه الارتباك وتولاه الحياء فتورد وجهه الشاحب واختلج جفناه ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يتخلص من موقفه . ونكس رأسه الاصلع وهو يود لو يختفى عن النافذة دقيقة ريثما يأخذ أنفاسه

ترى هل عادت الى النظر اليه ؟ ... هل ترنو الآن الى صلعته ؟ .. وشعر بأن موضع نظرها من رأسه يشتعل كما تشتعل الورقة تحت أشعة الشمس المتجمعة فى بلورة . ومضى وقت طويل أو قصير حتى تنبه على طقطقة الكرسى فرفع رأسه فرآها قد نهضت لتذهب الى الداخل ، وخال انه لمح على وجهها بشير ابتسامة وهى تتحول لتدخل . وعاد الى النافذة الاخرى متسائلا ما معنى هذه الابتسامة ؟ . لماذا ابتسمت الصبية ؟ .. هل تسخر من صلعته ؟ .. أو تضحك من نظرته الوجلة الخجولة ؟ ... أم تعجب لما حسبته غزل كهل فى سن أبيها ؟ ... أى والله فى سن أبيها ! ... فلو تيسر له الزواج فى ابانه لانجب فتاة فى مثل سنها ، ولما أمكن أن تبعث مثل تلك النظرة فى أطرافه ما بعثت من ارتباك واضطراب وحياء ، ولكن قضى أن يفقد جنانه لدى أية صبية ، وأن تستثير جوعه وحياءه أبرأ النظرات ! وابتسم ابتسامة يأس وخجل فافترت شفتاه عن أسنان صفر ! ودوى المدفع ، وتصايح الاطفال ، فعجب كيف انقضت نصف الساعة بغير تفكير فى الجوع أو العطش ، وهتف المؤذن بصوته الجميل « الله أكبر .. الله أكبر » فأجاب أحمد بصوت مسموع « لا اله الا الله » . ثم تحول عن النافذة ذاهبا الى الصالة ، والتأم جمع ثلاثتهم حول السفرة ، ثم غيروا ريقهم على عصير قمر الدين حتى رووا ظمأهم ، وأتت الام بطبق الفول المدمس فأقبلوا عليه بنهم شديد وتركره أبيض من غير سوء، فقال الاب وهو يعتصر بقليل من الماء :

ـ أظن الاوفق أن نؤخر الفول حتى نصيب من أنواع الطعام الاخرى والا امتلأنا به وحده .

فقالت الام ضاحكة :

ـ هذا ما تقوله كل عام ولكنك لا تذكره الا عقب الفراغ من الفول !

ولكن لم يزل فى البطون متسع فجىء باللوبيا والفلفل المحشى واللحم المحمر وتعاونت الايدى والاعين والاسنان فى عزم وسكون . ولم يكن الطعام الشى الوحيد الذى يلذ أحمد ،

فهناك خواطر سارة زحمت رأسه الصغير الاصلع ، حدث من شهوة الطعام نفسها ، من هذه الخواطر أن الفتاة جارته . وان شقتها تشرف على شقته ، فاللقاء منتظر ، والتقاء العينين مرتقب والتفاعل محتمل ، والانفعال مؤكد . ومن يدرى بعد ذلك ماذا يحدث؟ سيرمى بالقلب فى بحر لجى يعلو به أمل ويسفل به قنوط ، ويذهب به رجاء ويجىء به يأس ، ويخيفه أفـــق مظلم ويطمئنه شاطىء آمن ، فما يدرى أين المستقر ولا أيان المنتهى وحسبه من السرور يقظة دبت فى قلب موات ، وليقظة القلوب فرحة وان أدى الانسان ثمنها من دمه وراحة باله ، وهل ينكر أن قلبه جمد من البرد وبرم بالنوم وضاق بالراحة ؟ فهاهى ذى يقظة تدب ، وتبشر الشرفة بدوامها ، ما عقباها ؟ ما غايتها ؟ لا يبالى فى سروره الراهن ما ينطوى عليه غده ، فليشرق الافق أو فليغرب وليبتسم الحظ أو فليتجهم ، فبحسبه أن قلبه صحا ، وأنه منذ أيام ينتفض فى اضطراب ، ويضطرب فى سرور ، ويسر فى حيرة ، ويتحير فى رجاء ، ويرجو وفى خوف ، ويخاف فى لذة . هذه هى الحياة ، والحياة أجمـــل من الموت ، مهمـــا كابد الحى من تعب ووجد الميت من راحة ...

وغادر البيت قبيل العشاء الى « الزهرة » فاجتمع بالصحاب، وراحوا يتسامرون ويحتسون الشاى . ودار الحديث حول الصيام ، وكيف أن كثيرين ـ من أهل القاهرة خاصة ـ لا يؤدون حق فريضته لاوهى الاسباب .

وشهر سيد عارف بالمعلم زفتة وعباس شفة فقال ضاحكا :

ـ قد يستطيعان أن يمتنعا عن الطعام والشراب ، أما «الكيف» فأمر يهون دونه الدين !

فقال عباس شفة متهكما :

ـ الا تفضل أن تصير «رجلا» مثلنا ، ولو قارفت المعاصى ؟ !

فاصطنع سيد عارف لهجته قائلا :

ـ دائى له دواء أما داؤك ياسيد الازواج فلا دواء له !!

فهز عباس شفة منكبيه وقال دون أن يتلعثم أو يتورد وجهه :

ـ لا تعيرنى ولا أعيرك !

ـ بل نحتكم الى المعلم نونو . يا معلم نونو أيهما تفضل أن تكون : عباس شفة أم سيد عارف ؟!

فضحك نونو ضحكته العظيمة وقال :

ـ لا خيرت بين أن أكون أحدكما قط !

فقال سيد عارف بايمان :

ـ سبحان من يحيى العظام وهى رميم ، وغدا ترد الاقراص

كيد الحاسدين الى نحرهم !

فضحك عباس شفه ضحكة داعره فقال :

ـ وقتذاك نهنىء أنفسنا !!

ونهاهم سليمان عتة عن الالمام بمثل ذاك الهـذر علانيـــة فى شهر رمضان ، ولم يكن صادقا فى نهيه لهم ولا غاضبا حقا للشهر المكرم ، ولكن « قافية » الاقراص أمست مملولة منذ دهر طويل ، فيئس من أن يأتى قائل بجديد . ثم راح كمال خليل يحدث عن ليالى رمضان منذ أقل من ربع قرن ، قبل أن تغمر موجة الاستهتار التقاليد الدينية المؤنسة ، وكيف كانت بيوت السراة تظل مفتوحة طول الليل تستقبل القاصـــدين ، وتستقرىء مشاهير المقرئين حتى مطلع الفجر ، وقال ان بيتهم القديم ـ بيت أبيه ـ كان ضمن تلك البيوت العامرة . وتساءل أحمد عاكف ترى هل يصدق الرجل فيما يقول أم يقتص أثر زوجه اللحيمة ؟! . وتسامروا ســـاعة طويلة حتى تعبت ألسنتهم فأمسكوا عن السمر وأخذوا فى اللعب . ووجد أحمد عاكف نفسه منفردا بالمحامى الشاب ، فأدرك أن جاءت نوبة النضال والتحدى ، ولحظه بطرف لم يعلن عما يضطرم فى باطنـــــه من الموجدة والمقت . وقبل أن ينبس أحدهم بكلمة مر بالمقهى جماعة من الصبيان والبنات ملوحين بالمصابيح هاتفين بأناشيد رمضان سائلين « العادة » من النكل والملاليم ، فأتبعهم المحامى ناظريه حتى اختفوا ، وابتعدت أصواتهم الرفيعـــة ، ثم التفت الى صاحبه قائلا بلهجة مرة :

ـ نحن شعب من الشحاذين .

فأدار عاكف رأسه اليه كالمبتسم ، وقد بات يوجس خيفة من الاشتباك معه فى الحديث ، وان تظاهر بالاستهانة ، وتوثب للانقضاض والتحدى . واستطرد أحمـــد راشد قائـــلا بنفس اللهجة .

ـ شعب من الشحاذين وحفنة من أصحاب الملايين . فليس يتاح للشعب غير العمل الوضيع أو امتهان الشحاذة ، والعمل الوضيع لا يغنى عن الشحاذة !

فهز أحمد عاكف رأسه ونظر لمحدثه نظرة لا معنى لها ولاذ بالصمت ، والصمت فى مثل حاله مأمون العواقب • فهو يغنيه عن خوض ماليس له به علم ، ويهيىء له جوا آمنا لاهتبال الفرص السانحة • أما صاحبه فاستدرك يقول :

ـ ليس يوجد شر من نظام يقضى على أناس بالانحدار الى مستوى الحيوان الاعجم •

ولست أدرى كيف تطيب الحياة لقوم عقلاء وهم يعلمون أن غالبية قومهم جياع لا يدخل بطونهم ما يقيم أودهم ، جهلاء لا ترتفع عقولهم عن أدمغة الدواب ، مرضى تستوطن الجراثيم أجسادهم الهزيلة • ألم يخطر لهم أن ينادوا بمبدأ المساواة بين الفلاحين والحيوانات مثلا ؟ فان للحيوان على سادة الريف حقا فى الغذاء والمأوى والصحة لا مراء فيه ، ولم يقر بمثله للفلاح !

ولم يعد يستطيع كبح شهوة المعارضة ، وكبر عليه أن يستمر الشاب فى محاضرته وأن يقنع هو بالانصات كالتلاميذ فقـال :

ـ اذا كان للفلاح حق فلماذا لا يطالب به ؟

فقال المحامى بحدة :

ـ الفلاح مضغوط تحت المستوى الادنى للانسانية ، فلا يمكن أن يطالب بشىء ، ولكن خليق بكل انسان أهل لشرف الانسانية أن يمد يده ليرفع عن كاهله المتهالك هذا الضغط ، وقديما حارب الرق الاحرار لا العبيد !

وتنازعت الكهل عواطف جد متناقضة • فجانب من نفسه ارتاح الى يقول الشاب ، فلو اعتدل ميزان العدالة فى هذا الوطن ما عاقه عن اتمام تعليمه عائق ، ولبلغ ما يشتهى من الشرف فى الحياة • واحتقر جانب آخر اهتمامه الحماسى بالمشكلات الاجتماعية ، ورأى أنها دون ما ينبغى أن يفكر فيه « المثقف » من أمور العقل كالمنطق والتصوف والادب ! ثم ذكر عنف الشاب فى حديثه وثقته برأيه فثار كبرياؤه ، وغلبه على أمره ، فقال بحدة :

ـ لو أن الفلاح يستحق أكثر مما هو متاح له لناله ، والحق لمن يقدر عليه وما عدا ذلك فهراء فى هراء !

وثبت الشاب نظارته على عينيه بحركة عصبية ، وقال بلهجة غريبة :

ـ أأنت من أتباع نيتشه يا أستاذ ؟!

رباه ومن نيتشه هذا ؟! .. ألا يمكن أن يوجد رأى ـ ولو كان من وحى الغضب والحنق ـ من غير قائل سابق من الحكماء الذين يجهلهم كل الجهل ؟ .. وكيف يجيب الشيطان البغيض ؟! .. هداه عقله الى سبيل واحد رأى أنه يخلصه من الفخاخ التى ينصبها له عدوه ، فقال وقد غير لهجته ، وخفف من شدته :

ـ انك يا أستاذ راشد تدفعنى الى أحاديث ليست بذى بال !

ـ حياتنا ليست بذى بال ؟آ

ـ دع الفلاح الى نفسه أو الى من يعنيه أمره . ألم تقرأ شيئا عن أرسطو ؟.. ألم تلم بفلسفة اخوان الصفاء الدينيه ؟ .. ألم تثقف شتى المعارف الروحية ؟!

فلاح الانزعاج فى وجه الشاب وقال :

ـ ان مثلنا مثل ربان سفينة تمخر عباب مضيق ثائر تهب عليه ريح زعزع عاصفة ، فيفور زخاره ويصطخب ركامه ، فتعلو السفينة وتسفل ، وتميل ذات اليمين وتميل ذات الشمال ، مضطربة البنيان مزلزلة الاركان ، فهل يجوز للربان ـ وتلك حال السفينة ـ أن يولى آلة القيادة ظهره ليرمى بطرفه الى الافق متأملا ومنشدا ؟! . نحن نجتاز الآن مضيق الموت تكتنفنا الآلام من كل جانب . فلنأخذ من الآلام ذخيرة لتأملاتنا . حقا ان للابراج العاجية لذتها ، ولكن ينبغى أن نقاوم أنانيتنا الى حين !

ـ فأنت فى سبيل أن تنقذ البائسين من وهدة الحيوانية ، تضحى بانسانية المثقفين وتقتل أرواحهم !

ـ قلت الى حين ! .. ألم تر الى فترة الحرب وكيف تحول

العلماء ـ وهم أشرف الخلق ـ الى نوع من المجرمين !

ـ ومع ذلك فلك نصيبك من التأملات البعيدة كالفلك والذرة !

فضحك أحمد راشد ـ لاول مرة ـ بصوت مرتفع فلفت اليه جماعة اللاعبين وجعل المعلم نونو يقول له :

ـ ان ضحكتم اعلمونا !

فسكت المتحاوران حتى شغل عنهما اللاعبون ثم قال المحامي :

ـ لا غنى عن التسلح بالعلم للمكافح الحق ، لا للاستغراق في تأمله ، ولكن لتحرير النفس من أصفاد الاوهام والترهات ، فكما انقذتنا الديانات من الوثنية ينبغى أن ينقذنا العلم من الديانات !!

وهنا احتد سليمان بك عتة كعادته اذا خسر « عشرة » واشتبك معه سيد عارف في مصاولة لاذعة لم تلبث أن انتظمت جميع المتوثبين من أهل المجون فانقطع حديث رمضان الاول !

وعناء منتصف الثانية عشرة نهض أحمد عاكف يريد الانصراف فقام معه المعلم نونو وهو يقول :

ـ سأذهب الى البيت لاحضر معطفى لان الجو تشتد رطوبته عند الفجر .

ومضيا معا . وفى الطريق سأل المعلم صاحبه ؟

ـ لماذا لا تمد السهرة حتى السحور ؟

فقال الكهل بلهجة فاترة :

ـ انى أمضى الوقت ما بين الساعة الثانية عشرة وما بين السحور فى القراءة .

ـ أتقرأ كتبا !؟

ـ أجل وماذا يقرأ غير الكتب ؟!

ـ وفيم هذا التعب ؟

فابتسم أحمد عاكف وقال :

ـ هو ايه يا معلم نونو !

ـ ولكن الهواية ينبغى أن تكون ذات فائدة ما . فهل تطيل .

الكتب العمر ؟! .. تدفع المرض ؟! .. تمنع المقدور ؟! .. تجنب الشقاء ؟! ... تملأ الجيب ؟!

فقال أحمد وما يزال يبتسم وقد عاود شعور الاستعلاء والسرور :

ـ بل أريد أن أكتب كتبا أيضا !

ـ هذا أنكى وأمر . هل أنت صحفى ؟!

ـ هبنى أجبت بالايجاب ؟

ـ مستحيل !

ـ ولمه ؟

ـ أنت ابن ناس طيبين !

فضحك أحمد ضحكة قذفت بحنق الليلة خارج صدره وقال :

ولكنى سأكتب كتبا ..

ـ الكتب فى الدنيا أكثر من بنى آدم . ألم تر الى مكتبة الحلبى تحت الكلوب المصرى ؟ ! .. فيها كتب ـ يادين محمد ـ لوصفت جنبا الى جنب لكاثرت طلبة الازهر . فهل تبذل من من جهد لتضيف اليها كتابا جديدا ؟!

ـ نعم .. نعم .. فلكل كتاب فائدته ..

ـ اليك هواية لطيفة لن تقتضيك جهدا ..

ـ ما عسى أن تكون ؟

ـ أما تعرفها ؟ . حزر ..

ـ لا علم لى يا معلم ..

ـ يدعونها تسلية رمضان وفرحة الزمان . .

ـ فما اسمها ؟

ـ فى الاصل من التراب ولكن مرعاها فوق السحاب !

ـ عجبا !

ـ واردها اما فى الليمان أو على كرسى السلطان !

ـ ليس فى الدنيا شىء كهذا ..

ـ يهواها الفقير والوزير ..

ـ لحد هذا !

ـ عزاء الحزنان وشراب الفرحان !

ـ ما أشوقنى الى معرفتها ٠
ـ قد النبقة وتنفع فى كل زنقة ٠
ـ هذا سحر ٠
ـ أحضروها من بلاد الفيل تحفة لاهل النيل ٠٠
ـ هل تجد فيما تقول ؟!
ـ ألم تسمع عن الحشيش ؟!
وارتاع الكهل لوقع الكلمة ، فضحك المعلم وقال يغويه :
ـ تعال طاوعنى ٠ الحياة ملأى بما هو ألذ من الكتب ٠ ٠
ـ وأغراه حب الاستطلاع بأن يسأله :
ـ أين ؟
ـ المكان تحت أمرك اذا وافقت وشرفتنا ٠
ـ ألا تخاف الشرطة ؟
ـ أعرف كيف أتقى شرها ! ٠٠ فماذا قلت ٠٠ ؟
فابتسم أحمد وقال له :
ـ لا شأن لى بهذه الهواية الساحرة ٠ شكرا لك يامعلم ٠
ولما خلا الى نفسه فى حجرته تناسى حديث نونو وظرفه ، ولاحت لعينيه صورة أحمد راشد بكآبتها وحماسها وعنف حركاتها ، فاستثارت حنقه وغروره ومقته ، وتساءل محزونا كيف غابت عنه دنيا المعرفة الحديثة؟ وكيف يستكمل مافاته منها؟ ومتى يحاضر فى فرويد وماركس كما يستطيع أن يحاضر فى اخوان الصفاء وابن ميمون ؟! ٠ وفكر فى هذه الامور طويلا فلم يستطع أن يصفو للمطالعة ولا أن يركز ذهنه فيها ٠ ولكنه ظل عاكفا على كتابه لا يحول عنه رأسه لان عكوفه على الكتاب ـ ولو فى حال شروده ـ يقنعه بأن يومه لم يمض بغير ثقافة يتزود منها ، الامر الذى يحرص عليه كل الحرص ، وانسل الوقت وما تزال كبرياؤه تتجرع غصص العذاب ٠ ثم خطرت على قلبه فكرة ٠ هفت على قلبه كنسمة رطيبة لطيفة ، فأثلجت صدره الفائر بالحنق والغضب ، فصفا وطاب ، وابتسمت أساريره كم كانت تكون الحياة سعيدة محبوبة لو أن ما يلقاه من حظ ونصيب ، ومصادفات واتفاقات ، وأناس وأخلاق ، كان فى مثل

هاتين العينين النجلاوين يقطران سذاجة وخفة ؟! . ثم ذكر – فيما يشبه الدهشة – أن شهر رمضان ذو صلة قديمة بقلبه . ففى شهر رمضان خفق قلبه خفقة الحب الاولى ، وهى – كرؤية نور الدنيا لاول مرة – احساس عجيب لا يتأتى الشعور بجدته مرة أخرى . وفيه رأى الفتاة التى رغب صادقا أن يشاطرها حياته . وأخفق وهاهو ذا رمضان من جديد ، وهاهو ذا قلبه ينفض عن صفحته الضباب البارد القاتم ليستقبل شعاعا دافئا منعشا . وكان عقله من العقول التى ترى دائما وراء المصادفات حكمة تدق على الألباب . فاذا رأى غيره فى المصادفة مجرد حادثة لا معنى لها ، التمس هو فيها حكمة خفية . لذلك نظر أمامه حالما وقد غاب بصره ، وارتفع حاجباه الخفيفان المتباعدان وفغر فاه ، وغمغم فى حيرة وسرور «ماذا وراءك يا رمضان» ؟!..

- ١٢ -

وعند أصيل اليوم الثانى نهض نشيطا الى المرآة ليحلق ذقنه. وكان يحلقها عادة مرتين فى الاسبوع ، ولا يبالى أن يبدو للناس وذقنه نابتة ، فعزم على الاقلاع عن عادته هذه ، وان يحلق ذقنه يوما بعد يوم من الآن فصاعدا .

ولما فرغ ارتدى جلبابا نظيفا وطاقية ناصعة البياض ـ مجبرا ليخفى صلعته ـ ثم جلس على حافة الفراش يرمق النافذة بعينين مترددتين . ليست المسألة مجرد حلق ذقن أو لبس طاقية بيضاء وانما ينبغى أن يسأل نفسه عن معنى هذه اللهفة ومغزى هذا التغيير . هل ينطلق بغير تفكير أو ترو ؟ ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ فعسى ما يكون اليوم لعبا يكون غدا جدا . وما ينبغى له أن ينسى حظه العاثر وتاريخه المحزن . أفلا يحسن به أن يترك النافذة مغلقة ، وأن يتفادى ما ينذر به فتحها ؟ على أن الحياة لا تنصت لمثل هذا المنطق ، ولا تكاد تتأثر بحكمته ومخاوفه ، فقد أحرقه الظمأ وألهبته اللهفة . ونهض مرة أخرى يلوح فى وجهه العزم ودلف من النافذة ثم فتحها ، وارتفق حافتها وعيناه الى اسفل ، ثم مضى يرفعهما ببطء وحذر حتى بلغا أرض الشرفة ، فرأى قوائم الكرسى وحاشية الشال ـ الذى كانت تطرزه مساء الامس ـ مدلاة بينها ، ثم غلبه خجله فأطرق كالاطفال ، ولبث مطرقا . وهو يشعر بعينيها تثقبان رأسه ، وخاف أن تذهب الفرصة قبل أن يتملى برؤيتها ، فرفع رأسه متغلبا على حيائه ،

فرأى الكرسى خاليا والشال موضوعا عليه ! أترى كانت موجودة حين فتح النافذة ودعاها الى الذهاب داع ؟ أم غابت قبل ذلك؟ ومهما يكن من أمر فقد أحس انقباضا وفتر حماسه ، وخاف أكثر من قبل ان يعيب اليوم دون أن يراها ، ولم تكن احتمالات رؤيتها فى الغد لتنسيه خسارة اليوم ، فقد تهيأ بكل عناية لتراه فى احسن صورة ممكنة ، ولن تكون ذقنه ولا طاقيته ولاجلبابه غدا كما هى اليوم . اذن فهذا رجاء خاب ، وذاك تعب ضاع وأطرق مرة أخرى كاليائس ، الا أنه سمع — فى اللحظات الاخيرة قبل المدفع — حركة خفيفة فى الشرفة ، فرفع رأسه بسرعة فرأى الفتاة مقبلة، ثم رآها تنحنى على الكرسى لتأخذ الشال فالتفت عيناهما لحظة ، ثم استوت قائمة فولته ظهرها وجرت الى الداخل . وما طمع فى أكثر من ذلك . ولو أدامت النظر اليه لأربكته وأوقعته فى الحيرة والحياء ، أما وقد خطفت بصرها بمثل السرعة التى خطفت بها روحه ، فقد أولته الجميل دون عناء أو مشقة ، ثم صار بعد ذلك ساعة الغروب تلك معقد الرجاء وبسمة المنى ، هى خلاصة اليوم وهدفه ومعناه ، حسبه أن يملأ فيها عينيه من معانى السذاجة والخفة تسكبها عيناها النجلاوان ، وأن يدخر منها لبقية يومه ما يشيع فيه السرور والاحلام ، وتواترت أصيلا بعد أصيل ، والتقت العينان يوما بعد يوم ، فألف منظرها المحبوب ولعلها ألفت منظره ، بيد أنه لبث على خجله وارتباكه ، يطالعها — اذا جاءت اللحظة السعيدة — بنظرة تفيض باحساس الجد والرزانة والوجل كأنما يتحفز صاحبها للفرار ! . ووضحت صورتها فى مخيلته بعينيها النجلاوين ذاتى الصفاء والسذاجة والخفة ، عينان تنطق نظراتهما بالتساؤل والاستسلام ، الا أن خفتها تضفى عليها غلالة من الفطنة والحرارة .

وكان ذات مساء يغادر حجرته — بعد العشاء — الى المقهى . فدق جرس الباب الخارجى وهو يقترب منه ، ففتح الباب بنفسه ، فرأى أمامه الست توحدة وكريمتها نوال ! وجعل ينظر اليهما بدهشة وارتباك وقد خفق صدره بما بغته من سرور

ثم انتبه الى نفسه فتنحى عن سبيلهما قائلا متعلثما :

ـ تفضلا :

ودعا أمه لتلقى الزائرتين، وذهب لايلوى على شيء. وأدركت أم نوال ارتباكه ، ولم تكن تتصور أن رجلا فى سنه يرتبك ارتباكه ، ويبدو عليه ما بدا من الحياء لمحض أنه قابل امرأتين . وهبط أحمد السلم نشوان لانه يذكر جيدا ـ كما أكد لشكوكه التى لاتنتهى ـ أن فتاته ابتسمت اليه وهو يستقبلهما ابتسامة خفيفة براقة . لعلها ابتسمت ابتسامة الضيف لمن يستقبله ، أو ابتسامة الارتباك والحياء أو لعلها جادت بالابتسامة للرجل جزاء حرصه ومثابرته على التطلع اليها بعينيه كل غروب أسبوعا كاملا أو يزيد . فمهما كان الباعث فهى ابتسامة حلوة ، تلهف قلبه على مثلها عشرين عاما . ورغب عن الذهاب توا للمقهى ليتيح لنفسه فرصة للتأمل ، وكان من الذين يستحبون المشى اذا شغلهم شاغل من الفكر . فحث خطاه الى السكة الجديدة وسار معها مبتهجا مسرورا ، وتمتم ماشاء بالسرور فى صفاء ورضا ، وما كان غرا ولا حسن الظن بالدنيا ـ وكيف يكون ذلك بعد مالاقى من سوء الحظ وعثاره ؟! ـ ولكنه أراد السرور ساعة ولو خدع نفسه وغالط رأيه . وأراد أيضا ان يسبر حظه بعين جديدة ليرى أين هو من أمانيه المكبوتة ، ولـرى أن كان فى الامكان أن يعاود التجربة من جديد . فقد بدا له أنه أصبح حرا بعد أن أدى واجبه كاملا ، ألم يتلق عن والده العبء عند اندحاره ؟ . ألم ينهض بأسرته المهددة بالشقاء ؟ ألم يكفل أخاه حتى صار رجلا ؟ فما عليه من حرج بعد ذلك اذا شغل بسعادته مخلفا أعباءه لشقيقه الاصغر ، ولا يكره ذلك أحد من ذويه ، فهل فى العمر متسع ؟! .. وتمادى فى التأمل والتخيل يحثه شعور السرور والطفر الذى غمره منذ حين ، فقال انه يملك فى صندوق توفير البريد مبلغا لابأس به فى ذاته ، وان عد تافها اذا قيس الى مدة خدمته الطويلة . وأما عن شكله فليس مما يعيب الرجل الا يكون جميلا ! وانه ليستطيع بالعناية ـ كما فعل اليوم ـ أن يبدو مقبولا على تحول وجهه وشحوبه وصلعته

وياحبذا لو فصل بدلة جديدة، وابتاع طربوشا غير طربوشه الباهت المتقبض . بيد أنه كهل! .. فهو فى الاربعين والصبية دون العشرين ! وفارق العمر حاجز لا تقتحمه الا المعجزات فمن أين له بالمعجزة ؟! وانقبض صدره لاول مرة مذ فتح باب الشقة للزائرتين ، وذكر شكه فى جاذبيته الجنسية ، فتجهم وجهه وأفاق من نشوة السرور ، وتمثلت لعينيه ـ فى ظلمة الطريق ـ صورة الفتاة الباسمة ، فغمغم قائلا : « يالها من غرة جاهلة !» الا أن شيئا واحدا لم يخطر له ببال ، وهو أن يتطوع بمد يده الى الحياة التى دبت فى قلبه فيخنقها لواذا بطمأنينة الموت . فليتركها تنبض وتترعرع ولينتظر المخبأ وراء حجاب الغيب ، وهو لن يكون بحال أسوأ مما عركته به الايام . وخطر له وهو راجع أن يتساءل هل الحب شىء غير ما يعانى ؟ .. هل هو شىء غير هذا الشوق الغامض النابع من الحنايا ؟ . . هل هو شىء غير هذا الحنين الذى تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد ؟ .. هل هو شىء غير هـذا الفرح السماوى تطرب له النفس والدنيا جميعا ؟ ... هل هو شىء غير هذا الألم المشفق من الاخفاق والعودة الى الوحدة والوحشة ؟ . هل هو شىء غير أن تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد أحلامه ومبعث آماله وآلامه ؟.. بلى هو الحب . وانه به لخبير !

وعاد الى الزهرة فوجد الصحاب يتسامرون ويحتسون الشاى ورأى الغلام محمدا جالسا جنب والده يقلب فى المكان عينيه النجلاوين ، فسر لمرآه ـ وهو سفير هواه ـ وانجذبت نحوه روحه ، واتخذ مجلسه المعتاد جنب الاستاذ احمد راشد، وراح ينصت لسيد عارف الذى كان يقول بحماس :

ـ وسينتهز الالمان فرصة ضباب الخريف الكثيف ويهبطون على شواطىء انجلترا وينهون الحرب ؟

فتساءل كمال خليل ضاحكا ، وفى هدوء لا يهيج الاعصاب :

ـ كما هبط هيس ؟!

فاستطرد سيد عارف غير ملق بالا الى قوله :

ـ وستخر انجلترا المتعجرفة صريعة قبل أن تفيق من هول الضربة .

فسأله أحمد راشد :

ـ كيف تغزو ألمانيا انجلترا وجنودها مشتبكة فى ذاك الصراع المخيف فى روسيا !

ـ أعد الفوهرر جيشا خاصا لغزو انجلترا ، وأرجح أن تسقط انجلترا قبل روسيا ان لم تسقطا معا !

فقال أحمد راشد :

ـ الظاهر أنك تجهل حقيقة روسيا . روسيا الاشتراكية غير روسيا القيصرية . الشعب الاشتراكى كتلة من الصلب والايمان والعزيمة ، وهو ربما تقهقر ريثما أخذ أنفاسه ولكنه لن يلقى السلاح أبدا ، ولن يسلم لدواعى الهزيمة ...

ـ والمخزن رقم ١٣ !

فقال المعلم نونو وهو يفرك كفيه :

ـ هذا مخزن الاقراص التى تريدها ..

وسأله أحمد عاكف :

ـ لماذا لا يستعمل هذا المخزن ان صح ما يقال عنه ؟

ـ رحمة بالانسانية . الفوهرر لن يلجأ الى استعمال مخزنه المخيف الا اذا يئس من النصر بالفن الحربى المعتاد لا قدر الله !

وهنا صفق المعلم نونو للنادل وأمره أن يحضر الدومينو وهو يقول كمن ضاق صدره بالحديث :

ـ ملعون أبو هؤلاء وهؤلاء ، فلا الالمان أمنا ولا انجلترا أبونا . وليذهب بهم الشيطان جميعا الى الجحيم ..

وفصل المعلم نونو بصيحته بين السمر واللعب ، وما لبث أحمد عاكف أن وجد نفسه ـ كالعادة ـ منفردا بالمحامى . ورغب عن الحديث ، وحدثته نفسه بالرجوع الى البيت حيث توجد الان نوال وأمها ! .. ولكن ما عسى أن يفعل هناك الا أن يحبس نفسه فى حجرته ؟ .. وانه لفى حديثه مع نفسه اذ سمع المحامى يقول للغلام محمد بلهجة الامر :

ـ يا محمد آن لك أن ترجع الى البيت لتذاكر !

ونهض الغلام قائما ، وقد علت شفتيه ابتسامة دلت على ارتباكه ، وغادر المقهى وثبا ! . وعجب احمد عاكف للهجة الشاب

الآمرة واذعان الغلام لها ، فلم تكن لهجة الناصح ولا المتودد الى الاب .

وأحس الشاب بعجب الرجل فقال :

ـ البنات يتفوقن على الصبيان بدرجة تدعو للدهشة ، فشقيقة الغلام مجتهدة مطيعة ، أما هو فيتجرع دروسه كالعلقم ويعتل على التهرب منها بالعلل !

كيف يتكلم الاعور عن الفتاة بهذه الحرية ؟! وخطر له خاطر انقبض له صدره فسأله:

ـ هل تعطيهما دروسا خصوصية ؟

فحنى الشاب رأسه بالايجاب ! وامتعض الآخر امتعاضا شديدا جعله يتكلف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من احساسه . أيجلس هذا « الأعور » من فتاته مجلس الاستاذ المعلم ؟ أيلقنها الدرس ويأمرها بحفظه وربما تصنع الجد فانتهرها ؟.. ألا ينفرد بها أحيانا ! .. ألم ينظر اليها مرة بغير عين الاستاذ ؟ . وكيف تراه هى ؟ .. انه شاب مثقف ذو مستقبل حسن ، ولن يضره شكله المتجهم ولا عينه الزجاجية ، بل لن يعد ـ أى عاكف ـ خيرا منه بحال ان لم يعد أسوأ درجات ـ على الاقل فى نظر العوام والأميين ـ فهل يولى الادبار ولما تبدأ المعركة ؟! وما كان فى مثل هذه المعركة ممن تتملكهم روح الاقدام والمنافسة ، وعلى العكس من ذلك تراه يكمش ويسلم ساقيه للريح حياء واستكبارا وجبنا ! .. ولن يزال فى كل شدة يلتمس التدليل الذى نشأ فى أحضانه فاذا أخطأ ـ ولابد أن يخطئه ـ انطوى على نفسه دامى القلب مجترا آلامه مكيلا التهم لسوء الحظ الذى يلاحقه ولو كان دور الذكر فى الغزل أن يطارد لا أن يطارد وأن يطلب لا أن يطلب لهان الامر وطاب له الغرام ، أما والامر غير ذلك ـ او عكس ذلك ـ أما والامر يستوجب رجولة ولباقة وجسارة فكيف يطمع فى الظفر ؟ ولو أن السجايا رهن مشيئة الانسان لنزل عن ثقافته ومواهبه العقلية ـ المزعومة ـ لقاء أن يصير غزلا ماهرا ورجلا جذابا !.. ولكن هيهات أن يبلغ

ما يشاء ، وليس أمامه الا أن يحتقر الغزل ويمقت المرأة ويستمرىء العزلة الوحشية !

وتجب أن يشنبك فى حديث مع الشاب البغيض ، وتصنع الانصات للراديو ليصرفه عن محادثته ، فمضى الوقت وهما صامتان ، والسكون قائم الا أن يمزقه احتداد سليمان بك عته اذا استثاره سيد عارف وأوردته أفكاره المحمومة ـ فى صمته ـ مناهل سامة استقى منها خياله المحزون ، فاستسلم لامانى شيطانية مرعبة . تمنى فى صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها الا خرائب وآثار ، وشخصان حيان لا غير ، هو وهى !! هنالك تصفوا له بلا خوف ولا بأس ولا غيرة ولا جهد ! .. وتمثلت لعينيه المظلمتين القاهرة المهدمة المحطمة ، والشخصان الشريدان ، يفزع أحدهما الى الآخر لائذا بجناحه ساكنا الى ذراعيه ، والاخر سعيد على ما يكتنفه من الخراب ـ بصاحبه متلذذ بانفراده به . انبعثت هذه الامنية الغريبة من صدره وهو يفور بشعور طاغ بالاضطهاد والقهر والعذاب .

-١٣-

ولما خلا الى نفسه فى حجرته بعد منتصف الليل ـ تساءل ممتعضا ألا يحسن به أن يقلع عن عادة فتح النافذة ، وأن يغلق قلبه دون العاطفة الجديدة التى بسير الالم بين يديها ؟ أليس الموت مع السلامة خيرا من حياة القلق والعذاب ؟ بيد انه تناسى مخاوفه فى اليوم التالى وما بعده وصار بين النافذة والشرفة ميعاد يتجدد كل أصيل . ولم يعد شك فى أن الفتاة أدركت أن جارها الجديد يتعمد الظهور فى النافذة ـ أصيل كل يوم ـ ليبعث اليها تلك النظرة الحية الوجلة . ترى كيف تحدثها نفسها عنه ؟ أتهزأ بشكله ؟ أتضحك من كهولته؟ أم باتت تضيق بخجله وجموده؟ فمن عجب أن تتواتر الايام ومايزال حريصا على ميعاده مترقبا لساعته ثم لا يستطيع شيئا الا أن يرسل هذه النظرة الخائفة ما ان تلتقى بنظرتها حتى ترتدفى خفر وقد اختلجت الاجفان . وما انفك شبح أحمد راشد يطارده ويزعجه ، وما انفك يسائل نفسه الغيور أما ترشقه الفتاة أيضا بمثل هذه النظرة الحلوة أم تدخر له ما هو أجمل وأفتن ؟! بيد أن لحظات الاصيل السعيدة كانت تنتشله دائما من هاوية الشك والقنوط وجعل يهدىء

روعه ويقول لنفسه انها لو كانت تهوى الشاب البغيض لما منحته نظرتها الحنونة مساء بعد مساء . فعاوده الامل وراجعه الرجاء . ولكن لم يكن طبيعيا أن يقنع بهذه النظرة ، وأدرك أنه ينبغي أن يخطو خطوة جديدة . ولكن هل يستطيع ؟ هل يستطيع أن يهجم على الحياة لحظة كما استطاع أن يهرب منها عشرين عاما كاملة ؟ هلا أدام اليها النظر حتى تطرق هي حياء ولو مرة ؟ .. هلا حياها بابتسامة ؟ وتخيل أنه يديم اليها نظره ثم تخيل أنه يبتسم لها فتورد وجهه واضطرب اضطرابا عنيفا وغلبه الحياء والعجز على أمره ! رباه أتجفل الكهولة من الطفولة ؟ .. أتفر الاربعون من السادسة عشرة ؟ لكم حسب فيما مضى ان الخجل داء يزول مع تقادم العهد ولكنه تشبث بطبعه حتى أدركه داء جديد هو داء الكهولة ، فلماذا يخلق الله قوما مثله لا يقدرون على الحياة ؟! .. والتمس في يأسه سبيلا جديدا فقال لنفسه ان الذين يخافون النظر والابتسام يستطيعون بلا شك أن يكتبوا ، فلماذا لا يجرب وسيلة الكتابة اليها ؟ . وراقه هذا الخاطر وفكر فيه تفكيرا جديا ، فالامر لا يقتضيه الا ان يكتب كلمات في ورقه ثم يطويها بعناية ويرمي بها الى الشرفة . هذا حسن ، فكيف يبدأ خطابه؟ أيقول مثلا حبيبتي نوال ؟ .. هذا تصوير وقح . عزيزتي نوال ؟ .. ما يزال ذكر الاسم وقاحة . عزيزتي فحسب ، فهذا أليق بأدبه . ثم ماذا ؟ .. ان الرسائل تبدأ عادة بالتحيات، فليكتب لها تحية وسلاما . ثم ماذا ؟ .. هل يصارحها بحبه؟ . كلا هذا ما ينبغي أن يختم به ، واذا بدأ فليبدأ بالاعجاب والثناء ولكن كيف ينشيء عباراته ؟ وكيف يتخير ألفاظه ؟ .. أي الاساليب يعجبها ؟ وأي الالفاظ يحسن وقعها من نفسها ؟ .. وهبه فرغ من حل هذه المشكلات جميعا فماذا يسألها ؟ ... أن تجيبه ؟ .. أن تقابله ؟ .. بل هناك ما هو أهم من كل ذلك . ما الذي يدعوه الى الظن بأنها ستحسن استقبال رسالته ؟ .. من يدريه أنها لا تمزقها وتقذف بها في وجهه .. أو يغلبها السخط فتفضح سره وتشهر بكرامته ؟ . . وعقله

التردد بعد أن كاد يمسك بالقلم فتراجع لائذا بالسلامة ٠
على أن النافذة لبثت على ولائها للشرفة ٠ واوفت كلتاهما بعهد
لم يرتبطا به ٠ تلاقت العيون حتى تألفت وتعارفت ٠ وتجاذبت
الارواح دون ان يعيق تجاذبها الصمت أو الحياء ٠ وبات يظن ـ
لما يطالع في نظرتها من العطف والصفاء ـ أنه ظلم الاستاذ
أحمد راشد بأفكاره وعواطفه، وأن الشاب ـ المشغول
بالاشتراكية ومحو العقائد البالية ـ لا يفرغ للغزل والحب ،
فذاق رحيق الامل صافيا ٠ ثم أدناه الحظ من الامل والثقة
بمصادفة : اذ شغله أبوه عصر يوم من أيام رمضان الاخيرة
فمضى الاصيل دون أن يستطيع الظهور فى موعده من النافذة،
وانتظر الميعاد فى اليوم التالى بصبر نافذ ولكنه وجد الشرفة
مغلقة ! ٠٠ وانتظر عبثا أن تفتح وأن تبدو بها فتاته ولكن
على غير جدوى !٠٠ وظن أنه عاقها عن الظهور مثل الذى عاقه
بالامس ، لولا أن عثر شبحها وراء خصاص باب الشرفة ! ٠٠
فلم يشك فى أنها تعمدت غلق الشرفة دونه كما فعل هو
بالنافذة فى أمسه ، ومعنى هذا ـ أن صدق حدسه ـ أنها أحست
غيابه امس ٠ بل لعلها استاءت منه وأضمرت ساعتها عقابه
وها هى ذى تحقق ارادتها ٠ ومال الى تصديق ظنه ٠ ولكنه
لم يجد للعقاب ألما ، وعلى العكس شعر له بلذة لا عهد له بها ،
فطرب طربا استخفه وجعله يفرقع بأصابعه ويذهب ويجىء فى
الغرفة داهلا عما حوله ٠ وفى اليوم التالى أقبل على النافذة
بروح جديد ممتلئا ثقة وأملا ، فشعر بوجودها قبل أن يرفع
اليها عينيه المستطيلتين ، وكان عزم أن يرمقها بنظرة استفهام
وعتاب كأنما يسألها «لماذا اختفيت امس » ٠ فالآن جاء وقت
التنفيذ ! ٠٠ رفع رأسه الصغير فالتقت العينان ! ونادى
شجاعته ليرفع حاجبه ، يحرك رأسه مستفهما مفكرا ، أجمع
عزيمته كمن يتوثب لالقاء نفسه الى حوض السباحة لاول مرة ،
ودفع نفسه للقفز ، ولكنه جمد لحظة أكثر مما ينبغى فانتهز
عقله الفرصة ورمى فى طريقه بخاطر من خواطر الشك والخوف
فخاف أن يعثر به فاستطارت ارادته وانتثر عزمه وجفل

متراجعا ! . وفى تلك الليلة أنب نفسه تأنيبا قاسيا ، وطرق صلعته بشىء من الحدة وصاح غاضبا » أما من ذرة رجولة ! ! » وهكذا احبها . احبها لعينيها النجلاوين ونظرتها اللطيفة الساذجة وخفة روحها . أحبها لان أحلامه – والاحلام هى الفن الوحيد الذى أتقنه فى دنياه – أبت أن تغيبها ساعة عنه ، ولانه جائع – جائع فى الاربعين – والجوع من بواعث الاحلام ! ..

- ١٤ -

ثم كانت ليلة القدر من الشهر المبارك فاحتفلت بها الاسرة احتفالا بدا فى الدجاجة المحمرة التى ازدانت بها سفرة الافطار، وصينية الكنافة • وعند العشاء راحت الست دولت تدعو لبعلها بالصحة ولولدها بطول العمر والسعادة • أما عاكف أفندى - الاب - فذهب الى مسجد سيدنا الحسين لشهود احتفال رابطة القـراء بالليلة المفضلة ، فكانت ليلة سعيدة ، وقبل أن يأووا الى أسرتهم قبيل الفجر أطلقت صفارات الانذار فارتدوا معاطفهم وهرعوا بين جموع السكان الى المخبأ الذى باتوا يعرفون طريقه بغير حاجة الى ارشـاد الخدم • وامتزج انزعاج أحمد بسرور خفى لأن المخبأ يدنيه من نوال ويمتع ناظريه باجتلاء محياها المحبوب • ورأى فى المخبأ أحمد راشد وسيد عارف واقفين يتحدثان فانضم اليهما - وكان موقفهمـا قريبا من الركن المرموق - وما أن رآه المحامى حتى قال له :

- أما سمعت ما يقول سـيد أفندى ؟• يقول ان خطوبـة سليمان عتة لكريمة العطار تمت اليوم !

فقال سيد عارف مبتسما :

- نعم يا سيدى •• فرح « ميمون » !

وعاد أحمد راشد يقول بحدة .

ـ انظر الى المال كيف يستذل الحسن ؟ ان أقبح ما فى عالمنا هو خنوع الفضائل والقيم السامية للضروريات الحيوانية . فكيف سامت الحسناء نفسها قبول يد هذ القرد الذميم ؟ !. ولن يكون اجتماعهما زواجا ولكنه جريمة مزدوجة تعد من ناحية سرقة ومن الاخرى اغتصابا . ولن يزال جمالها فاضحاً لقبحه وقبحه فاضحا لجشعها ..

ثم ابتسم الشاب ابتسامة خفية واستدرك قائلا :

ـ لا يمكن أن تقترف هذه الجريمة وأمثالها فى ظل الاشتراكية !

ـ وهنا علا صوت رجل يقول متذمرا .

ـ ألم يقولوا ان الالمان لن يغيروا على مصر فى شهر الصيام ؟!

فتحول اليه سيدعارف وقال:

ـ ولكن الانجليز يغيرون على طرابلس وهى بلاد مسلمين كذلك !

ثم قال لصاحبيه بلهجة اليقين

ـ الانجليز لا يضربون طرابلس لفائدة حربيه ولكن ليجبروا الالمان على ضرب القاهرة !

ولم يعن أحمد بالمناقشة لانه كان يتلقى رنوة ساجية من بين الجموع الغافله .. ولكنه لم يهنأ بها طويلا فان صوتا غليظا صاح بقوة « صه .. أزيز طيارة ! » وساد على الاثر صمت شامل وأرهفت الآذان حتى صاح صوت آخر « كلا .. هذه سيارة الشرطة » فقال الاول « بل أزيز طيارة .. اسمع !» وأنصتوا جميعا فترامى الى الاذان أزيز طيارة حقا يهبط من جو سحيق ، فاضطرب قلب أحمد وتحول بصره نحو والديه فرأى أمه مصوبة عينيها نحو سقف المخبأ وأباه مطرقا . ثم سمعوا طلقة مدفع مضاد بعيدة تلتها طلقات كثيرة متقطعة . وسكت الضرب لحظة ثم عاد اشد مما كان ، واتصلت الطلقات واختلطت ، فانتشر الذعر وثرثرت الالسنة فى هذيان . وقال

واحد من الخائفين الذين يستجدون الطمأنينة « هذا الضرب في الماظة مؤكد » ٠٠ فارتاح كثيرون الى تأكيده وأمنوا على قوله بغير وعى وذهب الى والديه وسأل أباه - وأن كان فى مثل حاله من الذعر والاضطراب « كيف الحال يا أبتى ؟ » فأجابه الرجل بصوت متهدج « ربنا موجود » واستمر اطلاق المدافع وتعددت مصادره ٠ وجعل سيد عارف - على أثر كل طلقة مدفع - يذكر اسم الناحية التى أطلق منها كأنه الخبير العليم فيقول « مدفع العباسية ٠٠ ألماظة - بولاق ٠ وهذا مدفع القلعه الخ الخ » ولما انطلق مدفع بعنف فاق ما سبقه شدة قال الرجل « هذا مدفع ألمانى ابتاعته الحكومة من ألمانيا قبل الحرب ! » ٠ ولكن أحد كثيرون يضيقون بالمتكلمين وينتهرونهم فاشتد اللغط ٠ ثم جاءت لحظات أخرى عنف فيها اطلاق المدافع واتصل اتصالا مخيفا فارتجت الاعصاب ووجبت القلوب ٠ تلك لحظات قصار ولكن يقاس زمنها الثقيل بتردد الانفاس وخفقان القلوب فكأن المرء يحمل الدهر على عاتقيه ٠ ثم خف عنف الاطلاق رويدا ، ثم لم يعد يسمع الا فى ناحية واحدة ، ثم سكت آخر مدفع وأخلف السكون ٠ ولم يدر أحد هل يستأنف الاطلاق أو انتهت عقوبة الليلة ، الا أن الانفس أخذت تسترد من الراحة ما تبل به جوانح احترقت أو كادت ٠ ومضت فترة وجيزة فى سكون ثم انطلقت صفارات الامان ، فنهض القوم متشهدين ، وأرسل أحمد عاكف ناظريه الى هدفه المنشود فالتقيا بنظرة جادت بهالة ، فسر بها سرور مسح عن صدره الضيق وآثار القلق والخوف ، ورآها تسبق اسرتها نحو باب المخبأ حتى اذا ما بلغته عطفت رأسها نحوه ورمته بنظرة ذات معان ثم ارتقت السلم على عجل ، فشعر الرجل - بقلبه الجذلان - أنها تدعوه الى اللحاق بها ، ولا عين كما للغرائز لغة سرية صامتة ، فتولاه التردد والحياء ، الا أن مروقها الى الخارج بث فيه شجاعة وقتية تغلب بها على تردده وحيائه فاتجه نحو الباب سابقا والديه والخادم ، وارتقى السلم متسائلا ترى هل يجدها أمام الباب ؟ وما عسى أن يقول أو يفعل ؟ ٠ ولكنه رأى شبحها

قد ابتعد عن مدخل المخبأ أذرعا فى طريق البيت ، ولم يكن فى الطريق غيرهما فهما أول اثنين غادرا المخبأ ، فاذا أوسع خطاه أدركها فى أقل من الثانية وأمكنه أن يسايرها شارع ابراهيم باشا ، وان يرتميا معا ـ منفردين ـ سلم العمارة • تخيل ذلك بسرعة ولكنه لم يكد يبدى حراكا ، أو تحرك بالاحرى خطوات معدودة ، فاتسع ما يفصل بينهما من مسافة حتى باتت قريبة من مدخل العمارة ، وغل الحياء والارتباك ارادته فجعل يتلفت خلفه كأنه يدعو والديه الى اللحاق به لينقذاه من ورطته ، وعبثا حاول أن يقاوم حياءه أو ارتباكه أو أن يجمع ارادته على اللحاق بها ، فأدركه القادمون وما يزال موزع الفؤاد بين الخوف والرغبة ، ثم اختفت الفتاة داخل العمارة ، وانتهى الخوف والتردد والرغبة والامل ! • ثم سار مع والديه يعالج فى صمت حسرة أليمة منزعة من صميم الضلوع ، وطفق ينظر الى السلم ـ وهم يرتقونه ـ بأسف ذاكرا أنه لو قهر خوفه لانفرد بها فيه على أنه سأل نفسه « ماذا كنت أقول لها ؟ » •• هبه كان تشجع وحياها ، وردت هى تحيته بابتسامة أو كلمة أو ايماءة ـ بصرف النظر عن أن التحية فى ذاتها مشكلة فلم يكن يدرى ما الاوفق أن يقول • صباح الخير • • سعيدة • • السلام عليك الخ ؟ ! ـ هبه حياها وردت تحيته فماذا كان يقول بعد ذلك ؟! •• أيصمت حتى يفترقا عند شقته ؟ • أم ماذا يقول العاشقون فى أمثال هذا الموقف ؟ • الا ما اكثر العاشقين ! • ولشد ما يتهامسون ويتناجون فى الطرق والمركبات فكيف فقد النطق بلغتهم المحبوبة ؟ •• وعاد الى حجرته ممتلئا أسفا ، بيد أنه كان على هذا فرحا مسرورا ، بل كان ثملا بنشوة سرور لم تعهد القلوب ألذ منه ، فمهما يكن من أمر نفسه فلا يمكن أن ينسى أنها رمته بنظرة نداء ـ وهى من معجزات السرور فى شريعة العاطفة ـ وهى خليقة بأن يسر لها سرورا خالصا لا شأن له بحيائه ولا بحسرته ! •• ولاحت منه نظرة الى النافذة ـ وقد غدا يدعوها نافذة نوال ـ فحن المنتشى الى أن يرسل بنظرة الى الشرفة ، ففتح النافذة ورفع

رأسه فرأى لعجبه بابها مفتوحاومصباح الحجرة مضاء والفتاة واقفة على عتبة الباب : ٠ ما الذى دعاها الى باب الشرفة فى تلك الساعة من الفجر ؟ ٠٠ وكان يرى شبحها من غير أن يميز معارف وجهها لوجود المصباح وراءها ، وكذلك كان مصباح حجرته فأيقن أنها لا ترى سوى شبحه ـ وشجعه ذلك على الثبات والتحديق فيها ـ ولم يمتد به الوقوف طويـــلا حتى فجأنه بأسعد مفاجأة جادت بها حياته : فأومأت له برأسها تحية ! ٠ وغمره الذهول ، ولكنه لم يغلب على أمره هذه المرة فحنى راسه ردا على تحيتها ! ٠٠ وتراجعت الفتاة مسرعة حياء وأغلقت باب الشرفة ـوهوينظرـ ثم اطفـــأت النـــور ولبث الكهل بموقفه مدة من الزمن لا يدريها ، ولا يدرى بنفسه ، ثم أغلق النافذة ٠ وجثا على ركبتيه واضعا راحتيه على صدره، وهمس بصوت منخفض « اللهم حمدا وشكرا ! » ٠٠

- ١٥ -

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى متعبا لان السرور ـ ـ كالحزن ـ عدو للنوم قديم . بيد انه استهان بتعبه لنشوة صدره وفرحة قلبه . وهل ظفر بمثل ذاك الصباح السعيد منذ عشرين عاما ؟ . فغادر البيت منشرح الصدر ، بسام الثغر، خفاق القلب خفقان الشباب النضير ، بعد أن أصبح أخيرا من الزمرة التى طالما رمقها بعين الحسد والغيرة . زمرة المحبين المحبوبين ! . وصفا فؤاده ذاك الصباح فلم تنهشه آفه من آفات البغضاء ، واستراح ـ ولو الى حين ـ من أطياف أخفاقه الجاثمة فى ظلمة ذكرياته كالخفافيش، فلم يتوثب لجدال ولا تحفز لمعارضة ولا تشاجر مع احد من الموظفين ، وغمرت مستنقع المرارة الآسن المستقر فى أعماقه موجة راقصة من الحبور .

وعند عودته ظهرا وجد خطابا فى انتظاره ، عرف خط صاحبه من أول نظرة ألقاها على الظرف ـ وهو خط صغير جميل يشبه خطه من جميع الوجوه ـ فابتسمت أساريره ، وفض الخطاب ثم قرأه حتى فرغ منه وقال :

ـ سيأتى رشدى أخى صباح نهار الوقفة ...

فاستقبل الولدان الخبر أجمل استقبال ، وان كانا يعلمان من قبل ـ بالبداهة ـ أن الشاب لابد أن يمضى اجازة العيد فى القاهره . الا أن الخطاب حوى أنباء أجمل مما توقع الوالدان فاستدرك أحمد يقول :

ـ ويقول رشدى انه صدر أمر بنقله من أسيوط الى المركز الرئيسى بالقاهرة وسيتسلم عمله الجديد بعد عطلة العيد مباشرة !

وسر الوالدان سرورا كبيرا ، وقالت الست دولت :

ـ سنستقبل عيدين سعيدين . لهفى على الغلام العزيز ، كيف قضى ذاك العام وحده فى أسيوط !

فابتسم أحمد قائلا :

ـ ادعى الله أن يكون تعود حياة غير الحياة التى أدمن عليها فى القاهرة من قبل .

ثم أوى الكهل الى حجرته وخلع ملابسه واستلقى على الفراش كعادته ليفيل حتى الاصيل ـ أو حتى ميعاد الحب ـ كما ينبغى أن يسمى منذ اليوم ـ فشغله الخطاب ردحا من الزمن عن النوم وعن احساسات اليوم السعيدة ، وامتلأت نفسه بذكريات شقيقه الاصغر .

يندر أن يستثير انسان من العواطف المتباينة ما استثاره رشدى عاكف فى صدر أخيه الاكبر من علل السخط ودواعى الحب . فانه طالما استوجب سخطه فى الماضى منذ أجبره واجب كفالته على التضحية بمستقبله (وعبقريته !) . ثم أسخطه فى فتوته بمكالبه على الشهوات واقامته على اللذات واعراضه عن النصح . ولكنه من ناحية أخرى أحبه أكثر من أى شىء فى الدنيا . أحبه لان الشاب آثره بحب فاق ما يكنه لوالديه من الحب والاجلال ، وذكر له دائما رعايته وكفالته أجمل الذكر . وأحبه لانه صنعه بيديه . غذاه بروحه ورباه بماله فكان الشقيق الاكبر وكان الوالد الحنون ، تمتع بطفولته ، فحمله على يديه وعلمه النطق ودربه على المشى ، ورعى صباه ووجه تعليمه ، ثم عد نجاحه بعد ذلك ـ بعد تعب ولاى وعثرات ـ ثمرة كفاحه ، ومفخرة جهاده ، ومذكرا دائما بتضحياته . وفضلا عن هذا جميعه . كان الشاب ذا شخصية خليقة بأن تحب ، كان لطيفا خفيفا مرحا ، ورث عن أمه تلك المقدرة التى تفتح له القلوب بغير جهد ولا تكلف . لما طبع عليه ـ كلاهما ـ من

الجمال والصفاء والوفاء وحب العشرة والالفة . ولكن وأسفاه أخطاه الاعتدال والرزانة والحكمة ، جرت الحياة فى أعصابه زاخرة جامحة ، فاستأدت غرائزه الجهد الجهيد ، ودفعته قفزا ووثبا بغير رادع . وقد كان منذ البدء جسورا مقتحما متمرسا بالحياة ذلك ان الذى وكل برعايته ـ أحاه ـ ظل دائما مصفدا بأغلال التدلل والخوف ، فمال الى الاعتماد على الطفل الذى يربيه ـ فيمن يعتمد عليهم ـ فى قضاء حاجاته ، وابتياع لوازمه واستعارة كتبه ، فاكتسب الصبى خبرة بالدنيا واعتمادا على النفس وجسارة ورجولة وصارت حاجة راعية إليه لاتقل عن حاجته هو الى راعيه ولكنه عرف الدنيا وجال فيها بغير المبادىء الخفيفة بأن تعصمه من زلاتها ، فمنذ احيل عاكف افندى على المعاش انطوى على نفسه تاركا أمر الاسرة لابنه وزوجه ولم يجد رشدى فى هذين الغريزين الحزم الذى يرشده ويعصمه ، فضل السبيل وتخبط على غير هدى ولولا دمائة خلقه ورقة طبعه لربما جاوز مفاسد الشهوات الى مهالك الجرائم . .

- ١٦ -

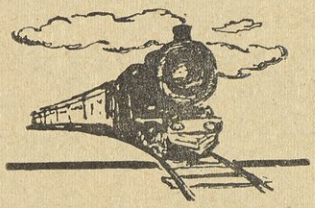

ولم يبق من رمضان الا ثلاثة أيام . وأسف احمد على اقتراب نهاية الشهر المكرم ، وهل ينسى فضله ، ورحمته ؟ .. وهل ينسى موعد الاصيل منه حيث ولى عثار حظه ووحشة قلبه مع شمسه الغاربة ؟ وبات يسائل نفسه ترى أين يكون الموعد غدا وماذا تخبىء الايام ؟ . أما الست دولت فنشطت هى والخادم ليعدا حجرة الشاب القادم من أسيوط . وكانت الحجرة تلى حجرة الوالدين ، وتطل نافذتها الوحيدة على الطريق المؤدى الى خان خليلى القديم ـ كأحد نافذتى حجرة احمد ـ فكنست الحجرة وغسلت ثم فرشت وباتت تنتظر القادم فى أجمل صورة . ثم أخذت المرأة أهبتها لخوض غمار معركة موسمية ـ لغزو ابنها احمد كالعادة ـ لمناسبة حلول عيد الفطر أو عيد الكعك كما يحلو لها أن تسميه ، فانتهزت فرصة انفرادها بالرجل بعد الافطار وراحت تودع رمضان بكلام طيب مترحمة على عهده وختمت كلامها قائلة :

ـ لم يبق الا يومان ، وبات الانسان يشم رائحة الكعك الطيبة فى الجو !

وكان يتوقع مثل ذاك الكلام ، ويعلم ان المعركة آتية لاريب فيها ، وأنه مغلوب على أمره مهما قال أو تشكى ، ولكنه لم يتعود أن يضحى بقرش قبل ان يريح ضميره بالدفاع عنه فقال متذمرا :

ـ فى مثل هذا الزمان لا يتشمم الناس رائحة الكعك،ولكنهم يسألون الله الستر ، وان ييسرلهم ضرورات الحياة · أما أنت يانينة فلن تزالى متلهفة على الكماليات التافهة غير راحمة جيبى، ياهوه ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء !

فحدجته بنظرة تأنيب واغراء، ثم أرعشت حاجبيها المزججين فى ابتسام وقالت :

ـ آه منك آه · لكم تغضب على أمك بغير سبب كأنها غيرالتى أحبتك ودللتك · أتدعى الفقر وأنت الخير والبركة ؟ ··أتتناسى انه جاءت نوبتك لتدلل أمك؟ولن أشق عليك يازين الرجال فنحن نرضى بالقليل اكراما لك !

وعلم انها لن تيأس أبدا ، ولن تنى حتى تظفر بســـؤالها فتأوه قائلا :

ـ أف ·· أف ··

فقالت مبتسمة :

ـ أف لعيد بغير كعك · أنستقبل العيد بـــلا كعك وأنت رجلنـــا ؟ !

ـ الكعك فرحة الاطفال ··

ـ والرجال والنساء ، والعيد عيد الناس جميعا · ألم تر الى أبيك كيف جهز نفسه بعباءة جديدة يصلى بها صلاة العيد؟ وكيف ابتعت بدلة وطربوشا وحذاء مباركة عليك باســـم الرحمن ؟ ·· أما سرورى أنا بالعيد ففى العجن والنقش ورش السكر والحشو بالعجمية ؟· ·

***

وفى الصباح الباكر من يوم الوقفة أخذ سمته الى محطة مصر ليكون فى انتظار الشاب القادم · وكان الجو رطبا ولكنه محتمل البرودة فجلس على أريكة على « رصيف الصعيد » ولم يبق على قدوم القطار سوى دقائق · وتولاه ما يتولاه عادة من القلق اذا وجد بمحضر القطر المردة فرآها تنفث الدخان وتطلق الصفير الحاد· ولم يكن استقل قطارا قط ولاغادر حدود القاهرة ، ولاهزته رغبته فى يوم ماالى الارتحال والسفر فتخيل السجن أخف على نفسه

من الاقامه فى بلد نازح . ولاشك أن جفوله من ملاقاة العالم الخارجى هو الذى بث فى روحه كراهية الاسفار ، ولكنه كان يفسر تلك الكراهية ـ كعادته فى تفسير كل ما له شأن بسلوكه وطباعه ـ بأنها سجية المفكر الذى يحب المعنويات ويزهد فى المحسوسات ، ألم يعش أبو العلاء رهين المحبسين؟ وخفف من غلواء قلقة سروره بمقدم رشدى ،شقيقه وابنه ! وماينتظر من معونته على النهوض بالتبعات الملقاة على عاتقه وحده ، وما يحدثه محضره من ألوان التسلية والبهجة . وما لبث أن رأى الرءوس تطلع نحو الجنوب ، والنشاط والحركة يشملان المكان، فنظر مع الناظرين فرأى القطار قادما متمهلا ، وما عتم ان أذاع ضجيجه فاهتزت له جوانح الارض ، وملا منظره الاعين . وأخذ يقترب رويدا رويدا وقدامتلأت نوافذ عرباته بالرءوس المتطلعة حتى وقف شاغلا الرصيف الطويل وهرع نحوه المنتظرون . وجرت عيبا الكهل على النوافذ وهو يزحم المتدافعين حوله حتى ظفر بضالته فى مقدمة عربة من عربات الدرجة الثانية ، وكان الشاب القادم يعطى حقيبته لاحد الحمالين ، فهتف أحمد باسمه ولوح له بيده وهو يدنو من العربة ، فالتفت الشاب اليه ، ثم قفز الى الارض فصار تلقاء شقيقه . وسلم الاخوان بحرارة ، وشد احمد على ذراع الشاب قائلا :

ـ حمد الله على السلامة . كيف حالك يارجل ؟ !

فقال الشاب بسرور وقد تورد وجهه المتعب من وعثاء السفر :

ـ الحمد لله يا أخى .. كيف أنت ؟.. وكيف الوالدان ؟

وسارا جنبا لجنب نحو الخارج يعلوهما البشر . كانا ذوى طول واحد ونحافة متشابهة ، ولا يخطىء الناظر اليهما انهما شقيقان على ذبول الاكبر ونضارة الاصغر ، فملامحهما متقاربة، الا أنها بلغت فى وجه رشدى مداها من الحسن وحال بينها وبين ذلك فى وجه الآخر اما انحراف أو تجهم أو أعياء . فلرشدى أيضا ذاك الوجه الطويل النحيل ولكن ليس له خدا أحمد الذابلان ، وسمرته ـ وان اعتورها شحوب ـ صافية يجرى

فيها ماء الشباب ، وعيناه مستطيلتان متباعدتان الا أن حدقتهما أوسع ، ونظراتهما أنفذ ، والتماعهما خاطف يدل على حدة المزاج وروح الفكاهة والجسارة . سارا متكاتفين ، وسرعان ماشعرا بدبيب الرغبة فى أعماقهما شأن المتقابلين بعد فراق طويل ، فلم يدريا ماذا يتركان وماذا يأخذان . ثم اهتدى الشاب الى حديث فسأل أخاه :

ـ قبل كل شيء كيف حال نينة ؟

ـ لما تحب أن تكون . ومازالت تجرى وراء رغبات الاطفال دون مبالاة بارهاقى فتقدم يابطل وخذ نصيبك

ـ لم أنس نصيبى وأنا فى أسيوط فابتعت لها حليا عاجية وطباقا فاخرة وبخورا لطيفا أرجو ان يوافق «أسيادها» (وضحك ضحكة عالية) .. وأبى ؟ .. كيف حاله ؟

ـ كعهدك به .. عبادة فى البيت ، وزيارات لبيوت الله ، فقال رشدى باهتمام مبتسما:

ـ لكم أدهشنى خبر انتقالكم الى الحسين !

وهنا بلغا فناء المحطة فامسكا ريشما استقلا عربة ، ونقد الشاب الحمال أجرته ، ثم سارت العربة سيرتها الثملة المريحة تخترق ميدان المحطة الترامى الاطراف ، فأجال الشاب فيه عينيه العسليتين الجميلتين ، فتخاطفت السيارات والعربات والترامات والمارة ناظريه ، فنقر بأصبعه على جبهته وقال :

تكاد رأسى تدور ، وكأنى أرى الترام والمترو لاول مرة . أتذكر نادرة الريفى الذى جاء مصر لاول مرة فلما أشرف على هذا الميدان ريع وفزع ، ثم تراجع الى القطار وهو يقول متأسفا « جئت متأخرا فأهل البلد يرتحلون ! »

فضحك أحمد الذى تلذه فكاهة الشاب ونوادره وبساطته . ومن حسن الحظ أن رشدى لم يكن « جامعيا » بالمعنى العميق ـ فلا يطرق موضوعات العلم ولا يذكر اصطلاحاته ـ والا لوجد فيه نوعا من « أحمد راشد » ، وأجمل من هذا أن الشاب كان من المخدوعين فى ثقافة أخيه فظنه متفقها وآمن بعقله كما يؤمن به الآخر ، أما أحمد فسر بايمان شقيقه به ، ورأى فيه رمزا

حيا لايمان الجامعة المصرية بعبقريته العصامية ! قال الشاب بحماس :

ـ القاهرة نعمة من نعم الله ، هى الدنيا والدين ، الليل والنهار ، الجحيم والجنة الغرب والشرق ، كان النقل معجزة !

ـ لا بد أنك ضقت ذرعا بأسيوط !

ـ كما ينبغى أن أضيق ذرعا بأى مكان غير القاهرة !

فتفحصه بنظرة ثاقبة وقال :

ـ السجن مفيد لأمثالك ! ومع ذلك فانى لا أرى آى الراحة فى وجهك !

فابتسم الشاب عن أسنان بيضاء منتظمة وقال كالساخر :

ـ اذا اجتمع موظفان فى بلدة كانت مائدة القمار ثالثهما !

فتنهد أحمد قائلا :

ـ أقضى أن تحرم من نعمة النوم أبدا ؟ !

ـ نعمة النوم ؟ ! النوم فى الحقيقة نقمة ! . . انه اختلاس جزء طويل لا يقوم بمال من حياتنا القصيرة !

ـ أنت لا تدرى مما تقول شيئا ! .

ـ أنت يا أخى رجل حكيم ، وأنا شاب مجنون ، وهذه هى فلسفة المجانين !

ـ اذا ستعود الى . .

ـ باذنه تعالى ! . . قابلت فى أسيوط رجلا مولعا بالضحك كان يقول ان غذاء الصحة الحقيقى هو المرح ، فاذا صح ذلك فالعربدة من أنفس الفيتامينات !

ـ واذا لم يصح ؟!

ـ فلندع الله أن يكون صحيحا . ولكن قل لى متى كنت سمينا ؟ !

ـ أنت تعلم أنى لا أكف عن التفكير والدراسة !

ـ هذا حق . وربما كانت النحافة ـ أيضا ـ طبيعية فى أسرتنا ! .

ـ ووالدتك ؟ !

فضحك رشدى حتى بدت نواجذه ، وخلع طربوشه عن شعر

أسود لامع ينشق وسطه عن مفرق أبيض جميل ، وقال وقد رقق الحنان نبراته :

ـ ولكنها صناعة العطار ! كم شـــاقتنى رؤيتهـا ! أما تزال تذكر الزار ؟

فقال أحمد بتأفف :

ـ كفت عن ذكره صراحة ، ولكنها ربما شكت ـ عرضا ـ قسوة من حالوا بينها وبينه !

ـ أمنا لطيفة كالملائكة لأنها لا تغضب ، ولا أكاد أذكرهـا الا راضيه ضاحكة .

فابتسم أحمد ، واستطرد رشدى :

ـ والعفاريت عقيدة وان لم يتفق لى رؤية أحدها على طول عهدى بالطرقات المقفرة فى الهزيع الأخير من الليل .

ـ الانسان هو شر العفاريت . انظر الى الحرب !

فضحك رشدى ، وذكرته الحرب بأمر الانتقال من السكاكينى فقال :

ـ هكـذا أجبرنا الانسان العفريت على هجر حينا القديم ، يا عجبا . . ألا تعلم يا أخى بأنه لم يسبق لى أن رأيت خان الخليلى هذا !

فنبه ذكر « خان الخليلى » فى قلب الكهل سرورا عميقا ، وهز نفسه حنانا فقال :

ـ ستراه صباح مساء !

ـ أكان الحال خطيرا لحد أوجب الهجرة ؟

ـ نعم كان . وحسب كثيرون أن الغارات ستستمر بوحشية تودى بالقاهرة كما أودت بلندن وروتردام ووارسو ، ولكن الله سلم . وكان الوالد فى اعياء خطير فلذنا بالفرار !

فهز الشاب رأسه أسفا ، ولاحت منه التفاتة الى الطريق فرأى ميدان الملكة فريدة والعربه تعبر جناحه الى شارع الازهر فدعا منظر مواعيد غرام لاتنسى ، هفت على قلبه ، كما تنسمت ريح على جمـرات ناعسـه ، فابتسمت أساريره وهزه الطرب . ثم استطرد متسائلا :

ـ وكيف وجدتم المقام الجديد ؟

لو طرح عليه هذا السؤال قبل شهر لما وسعه الكلام ذما وقدحا ، اما الآن ! !

ـ انتظر حتى تراه بنفسك يا رشدى ، وستألفه ولو بعد حين ! .

ـ واجيران ؟ !

ـ أوه . . غالبيتهم من أهل البلد ولكن كثيرين من سكان العمارات الجديدة من طبقتنا !

ـ وهل وجدت فيه مكانا صالحا للتفكير والدراسة ؟

فسره السؤال ، كما ينبغى أن يسره كل ما يذكره بأنه «مفكر» وقال :

ـ يقول المثل « البس لكل حال لبوسها » ولذلك تجدنى أفضل أن أمضى أول الليل فى القهوة مع بعض الصحاب الجدد حتى اذا كف الراديو أو سكتت الضوضاء عدت الى حجرة الدراسة ! .

فضحك رشدى قائلا :

ـ أعرفت أخيرا الطريق الى المقاهى ؟

فقال الأخ مبتسما :

ـ تلك مقتضيات المقام الجديد !

ووقفت العربة عند مدخل خان الخليلى ، فغادرها الرجلان وتبعهما الحوذى حاملا الحقيبة ، ولما ولجا التيه قال أحمد :

ـ انتبه جيدا الى ما يحيط بك ، واحفظ المسارب عن ظهر قلب والا ضللت فى معارجها !

واقتربا من العمارة ، ورأى أحمد أمه تطل من نافذة حجرته فلكز شقيقه فى ذراعه مشيرا الى النافذة ، فرفع الشاب رأسه فرأى أمه وقد عصبت رأسها بمنديل بنى وأخذت زينتها كأنما هى عروس تتصدى لعريسها ، وما أن التقت عيناهما حتى فتحت له ذراعيها تدعوه الى حضنها . وقبل فوات دقيقة كان بين ذراعيها البضتين فى عناق حار .

- ١٧ -

وجلسوا جميعا حول المائدة ـ وقد جاء أبوه أيضا ولثم الفتى ظاهر يده ـ وأخذوا بأسباب الحديث فى شوق ولذة ، فتكلم الشاب عن أسيوط وأهلها والغربة والحنين الى الأهل والوطن ، وتكلم الاب عن الغارة والمشاعل التى أسقطتها الطائرات ، وحدثه أمه عن جارتها والمعلم نونو وأزواجه الأربع ، ثم لاحظت المرأة أن وزنه لم يزد رطلا واحدا ، وانتقلت الى الكعك فبشركة بأنه سيأكله كعكا لذيذا لن يذوق مثله أحد فى مصر جميعا ، ثم سارت أخيرا بين يديه الى حجرته . وعندما خلا الشاب الى نفسه لم يعد يحاول اخفاء استيائه فلاحت أماراته فى وجهه الجميل ، وقد انقبض صدره منذ رسم الخطوة الأولى على عتبة خان خليلى ، فلما دخل الشقة هاله ضيقها ، وأيقن أنه لن يطمئن له جانب فى هذا المقام الجديد ، وضاعفت من سخطه أن أصحابه جميعا فى السكاكينى وما حوله وأنه سيرغم ـ بعد قضاء سهرته بينهم ـ على قطع طريق طويل الى هذا الحى ثم على التخبط فى طرقاته الضيقة ليلا وهو ثمل ! . ونفخ من الغيظ ، ووطن نفسه على حمل آله على العودة الى بيتهم القديم أو الى آخر قريب منه مهما كلفه ذلك . ثم فتح حقيبته واستخرج ما فيها ، ومضى يهيىء صوان ملابسه مترنما ـ كعادته ـ

باحدى أغنيات عبد الوهاب ، وغير ملابسه ثم غادر الحجرة الى الحمام ـ وهو يواجه الحجرة على الناحية الأخرى من الردهة الطويلة الضيقة ـ فاستحم بالماء البارد ليزيل عن نفسه غبار السفر ونصبه ، وعاد الى حجرته أجمل منظرا وأطيب نفسا . وأغلق الباب وراءه ـ ليعلو صوته بالغناء اذا أراد ـ وفتح النافذة ، ودهن شعره بالفازلين وسرحه بعناية فائقة ، وتعطر برائحة البنفسج الأثيرة لديه فصار فى أحسن حال . وانجذب نحو النافذة فدلف منها ليرى على أى منظر تطل ، فرأى الممر الضيق فى أسفل يؤدى الى خان خليلى القديم ، واعترض مرمى بصره فيما يواجهه جناح العمارة الثانى ، فضاق صدره وخال أنه رمى به الى أعماق سجن . أين من هذه النافذة نافذة حجرته بشارع قمر المشرفة على ميدان السكاكينى حيث لا تغيب عن عين الناظر أسراب ظباء اليهود ، وتنهد محزونا ، ثم أجال بصره فيما حوله ، فانجذب البصر نحو نافذة تقابل نافذته من عل ـ فى جناح العمارة المواجه له انفتحت على مصراعيها . وظهر فيها وجه فتاة ، وجه حسن تزينه عينان تقطران خفة وسذاجة ، فالتقت عيناهما ، فى نظرة انكار من ناحيتها ونظرة تفحص ـ تفحص الصائد لصيد اعترضه ـ من ناحيته ، ثم شق عليها تفحصه الثاقب فخفضت بصرها وتراجعت فى استحياء . فابتسم ابتسامة رقيقة وانبسطت أسارير وجهه متأثرا بملاحة محياها وتحير نظرتها العذبة ، ولم يزايل مكانه ، ولا حول عينيه عن النافذة منتظرا عودتها ، لأنه من الطبيعى ـ فى نظره ـ أن تحاول معاودة النظر الى جارها الجديد ذى النظر العارم بغير تردد ولا حياء . ولبث على حاله من النظر والانتظار تحدوه رغبة وصبر وعناد ، حتى ظهر رأس الفتاة مرة أخرى فى حذر ، فالتقت العينان خطفا ، ثم تراجعت الفتاة فيما يشبه الضجر ، فضحك ضحكة خافتة ، وتحول عن النافذة مبتسما راضيا ، ثم جلس على كرسى مكتبه الصغير مغمغما « هذا أول شىء حسن نصادفه فى حينا البائس ! » وتفكر قليلا وهو ينقر بأصبعه على مكتبه وقال لنفسه « هى جارتنا بغير

شك ٠ ٠ وحجرتها جارة لحجرتى ! » واستدعى صورتها فأقر لها بالحسن والخفة ، وسر بها سرور انسان بشىء نفيس صارت ملكيته اليه ٠ وكان فى الحب ذا ثقة بنفسه لا حد لها ، ثقة مرجعها السير من فوز الى فوز ، وبطانتها صبر طويل وارادة لا تلين ولباقة فى الطبع والصنعة فربما صبر ـ دون أن يكف عن الالحاح والسعى والمطاردة ـ يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما ـ ان شئت ـ بعد عام حتى يظفر ببغيته ٠ ومن أقواله المأثورة فى الغزل « لا يجوز لمن يتصدى للحب أن يعرقل « جهاده » بالحياء أو بالجزع أو بالخوف ٠ أنس كرامتك اذا كنت فى أثر امرأة ٠ لا تغضب اذا عنفتك ولا تحزن اذا سبتك ، فالتعنيف والسب من وقود الحب ٠ واذا ضربتك امرأة على خدك الأيسر أدر لها خدك الأيمن ، وأنت أنت السيد فى النهاية ! » وقد حمله الهوى يوما على مغازلة فتاة شموس ذات صون واباء فلما أن طال به المطال دون لين من جانبها أو ميل قال لها بهدوء « أنا رذل سمج بارد لحوح ، هيهات أن تقصينى نظرات التأديب أو كلمات التأنيب ، كلاولا الضرب ولاالشرطة ، وسأرغمك على تكليمى اليوم أو غدا أو بعد غد أو بعد عام أو بعد قرن ، فاختصرى الطريق ما دامت النهاية محتومة ! » ٠

هكذا كان ٠ وقد جلس متفكرا يسائل نفسه : ترى أى نوع من الحسان هى ؟ ٠ أجسورة مستهترة يشق على المغرم ترويضها ؟ ٠ أم محنكة مجربة يستحيل اللعب بها ؟ ٠ ٠ أم ساذجة حيية تجشم الصبر محبها ؟ ٠ وما من شك فى أن خان خليلى يغدو محتملا لطيفا بفضل هذه الأنثى وشبيهاتها ٠ ثم وضع راحتيه حول قذاله كمن ينوى الصلاة وتمتم قائلا « بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت الحب ، والله المستعان ! » ٠

واعتزم الحب حقا ، ولكنه لم يدر له بخلد أى طعنة وجهها ـ باعتزامه ـ الى سعادة شقيقه الأكبر الذى يحبه ويجله ٠ ٠

- ١٨ -

وأسلم جسده للرقاد بعد ليلة شاقة ـ قضاها فى القطار ـ فلم يطرق النوم فيها جفنيه الا لماما • واستيقظ من نومه العميق عند منتصف الرابعة مساء ، فجلس فى الفراش متثائبا مفتحا عينيه ـ لأول مرة منذ عام ـ على نور القاهرة الضاحك • وتذكر أمر نقله من أسيوط فطاب نفسا واستلذ الذكرى • وكانت تغشى الحجرة سمرة قاتمة فنهض الى النافذة وفتحها ، وذكر لتوه الفتاة السمراء المليحة ، فصعد بصره الى نافذتها ، ولكنه وجدها مغلقة ، فغادر الحجرة الى الخارج ، وكان أبوه نائما ؛ وأمه تنظف السمك تهيئة لقليه ، فوقف على عتبة المطبخ يحادثها قليلا ، ثم مضى الى حجرة أخيه • وكان الكهل واقفـــا وراء النافذة ، فلما شعر بمجىء أخيه تحول عنها بسرعة ـ ولم يدر الآخر كم كلفه ذلك ـ وتلقاه بابتسامة حلوة ، ثم جلسا معا ، أحمد على الشلتة ورشدى على الكرسى • •

وتحادثا حديث أخوين متحابين جمع بينهما اللقاء بعد ان كانا شتيتين • ثم ذكر رشدى ما علم قديما من رغبة شقيقه فى التأليف فسأله :

ـ ألم تشرع فى التأليف بعد يا أخى ؟

فوخزه السؤال ، ولكنه لم يعى بالجواب فقال :

ـ رآس مترع بالمعارف ، فأيها أختار وأيها أدع ؟ • والحقيقة أننى لو أردت التأليف ففى وسعى أن أملأ مكتبة كاملة ! •

ولكن ما الداعى لمثل هذا الجهد ؟ . . هل يستأهل هذا الشعب التأليف بمعناه الحق ؟ . . هل يمكن أن يهضمه ؟ ألا انهم رعاع يقرؤون رعاعا !

فقال رشدى وكان يؤمن بما يقول أخوه دائما :

ـ خسارة أن تضيع أفكارك القيمة !

فقال أحمد وكان يؤمن كذلك بما يقول ، كأنه نسى ما يدور بينه وبين أحمد رشدى من نقاش .

ـ أنا من السابقين لزمنهم ، فلا يرجى لى أى تفاهم مع الناس فلكل شىء فى الدنيا عيوب حتى التعمق فى العلم !

ـ ولكن هل ترضى يا أخى أن يضيع هذا الجهد العظيم بلاأثر ينتفع به الناس ؟!

فسر الكهل بكلامه سرورا عوضه عن ترك النافذة منذ حين ، وقال :

ـ من يعلم يا رشدى ؟ فعسى أن أعدل عن استهانتى يوما ما!

ولبثا يتحادثان حتى انطلق آخر مدفع افطار . ثم جمعتهم مائدة رمضان الاخيرة فقدمت صحاف السمك التقليدى وأكلوا مريئا وشربوا هنيئا . وبعد شرب القهوة مباشرة ارتدى رشدى بدلته وغادر البيت لا يلوى على شىء . وقد أراد أن يصل الى كازينو غمرة فى الوقت المناسب ، أو بمعنى آخر أن يبلغه قبل أن يتحلق أصحابه ـ وهم يجتمعون بالكازينو كل مساء للشراب ولعب الورق ـ المائدة الخضراء وفى التعجيل حكمة لا تخفى على من كان مثله . فليس من شأنه أن يجد مكانا حول المائدة فحسب ، ولكن اللاعبين ـ كذلك ـ اذا انهمكوا فى اللعب لم يحفلوا باستقبال قادم ولو كان قدومه بعد عام فراق كامل ! وأجمل ما يجودون به تحية مقتضبة وعيونهم لا تكاد تفارق الورق ، فاذا اضطروا الى قطع اللعب لمجاملة قاسرة فويل للقادم من لعن ضمائرهم وسخط سرائرهم . وفضلا عن هذا فالداخل على لاعبين ـ أثناء لعبهم ـ يعد يمنا على الفائزين وشؤما على الخاسرين ، فلن يخلو الحال قط من أن يجد فريقا يرمقه شزرا . وقد اكتسب بعض اخوانه ـ بسوء المصادفات ـ سمعة سيئة ،

منهم محام شاب يقول عنه الصحاب انه اذا وجد بمقربة من لاعبين خسروا جميعا ولم يربح أحد !! والمقامرون شديدو الحساسية ، كثيرو الوساوس ، يؤمنون بالطيرة ويعبدون الحظ وقد استقل ترام الأزهر والذكرى ترجع به الى زمان تلقينه مبادىء المقامرة . كان ذلك وهو فى أولى سنى دراسته بكلية التجارة ، فدعى الى اللعب على أنه تسلية بريئة للفراغ ، ثم رئى أن يراهنوا على ملاليم — لا لمطمع فى ربح — لان المليم عملة تافهة — ولكن لتأريث الحماس وبعث الاهتمام ، وسرعان ما صعدت الأرقام حتى أتت على ما فى جيوبهم جميعا ، واستبدت بهم شهوة اللعب استبدادا أنساهم الوقت والواجب والمستقبل . فالقمار تسلية مخيفة ولذة أليمة وشهوة مجنونة . هو معابثة الغيب ، ومراودة الحظ ، وطرق باب المجهول ؛ ودغدغة غرائز الخوف والهجوم والتطلع والمجازفة والطمع . ثم أنه بعد ذلك صدى لذاك الشعور — شعور كفاحنا اليومى — المستمد مما نبذله من قوة وتقدير فى معالجة الحياة ، وما نخاطب به الأقدار المسيطرة علينا ، وما نرجوه من الحظ والظروف الملابسة لنا ، وما يتعاقبنا من الظفر والخسران . ولكم تمنى فى أحايين كثيرة لو لم يفارق المائدة طوال عمره ! . ومن عجب أنه ما من مرة فصل عن المائدة — فى ختام ليلة متعبة مرهقة — الا وتمنى لو يتوب الله عليه ، فاذا أزف الميعاد فى اليوم الثانى هرع الى الكازينو لا يلوى على شىء . وهكذا تمكن الداء العضال منهم جميعا وانقلب القاتلون للوقت ضحايا ! وصار واحدا من المقامرين فى عبادة الحظ والخضوع للطيرة ، فربما قال لنفسه وهو يهم بفتح النافذة فى الصباح « اذا لقيت عددا زوجيا من السابلة فالحظ معى أما اذا كان فرديا فاليوم خسارة ! » أو ربما حادث نفسه وهو ماض الى مائدة الافطار « اذا وجد فولا بسمن فاليوم رابح أو فولا بزيت فاليوم خاسر ! » . وانقطع تيار الذكريات عندما غادر الترام ثم استقل الترام رقم ١٠ ، فجرى به فى الطرق المؤدية الى حيه القديم ، فاستثار حنانه ، ولما شارف السكاكينى شعر بألم نبيل ووجد شريف

يقرضان فى شغاف قلبه ، وغادر الترام واتجه الى الكازينو ، وفى المكان المعهود من الحديقة رأى الأصدقاء ـ أو رأى أشباحهم لان الاظلام كان تاما ـ فأدرك أنه وصل فى الوقت المناسب ـ قبل أن يذهبوا الى بهو اللعب ـ وأخذ يقترب منهم مبتسما حتى صار فى وسطهم ، فعرفوه وصاحوا معا :

ـ رشدى عاكف ! ٠ ٠ أهلا بقلب الأسد !

وسر بسماع لقبه العزيز ـ وقد عرف به بين اللاعبين لكثرة مجازفاته ـ وتعانقوا عناقا حارا ٠ وكانوا جميعا ـ مثله ـ فى منتصف العقد الثالث ، منهم من زامله فى المدرسة أو من نشأ معه فى السكاكينى ٠ وكانوا جميعا ـ فى المجون والاباحية والاستهتار والعربدة شخصا واحدا ٠ قال أحدهم :

ـ أهكذا لا نراك الا مع العيد ، وقد كنا لا نفترق ليل نهار !

فقال رشدى ضاحكا وهو يتخذ مجلسه :

ـ سترانى منذ الليلة كل يوم ، أو منذ اليوم كل ليلة على الأصح !

فسأله آخر :

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ صدر أمر بنقلى الى القاهرة !

ـ ولن ترجع الى أسيوط ؟

ـ لا ٠ ٠

ـ الله لا يرجعك !

وسأله ثالث :

ـ وكيف سلوت عن المائدة عاما طويلا ؟! ٠٠ لكم أوحشتنا نقودك !

ـ لأسيوط موائدها ، أما عن الأخرى فالشوق متبادل !

ودار الحديث عن أسيوط ، حتى سألهم بلهفة :

ـ كيف تسهرون هذه الليلة ؟

ـ كالليالى التى سبقتها ، سننتقل عما قريب الى البهو الداخلى ٠ ٠ ٠

ـ هذا جميل ولكن ماذا تقولون فى كأسى كونياك أو ثلاثة ؟

ـ أو أربعة أو خمسة ؟
ـ أو ستة أو سبعة ؟
ولكن واحدا منهم قال مقترحا :
ـ العيد غدا فلنؤجل السكر الى غد !
ـ لا نؤجل عمل اليوم الى غد !
وسأله سائل :
ـ وكيف الفسق فى أسيوط ؟
فقال رشدى :
ـ أما عن هذا فلا ، هناك عفة بالاكراه !
ـ الحال هنا بات قريبا من الريف ، فجنود الحلفاء يلتهمون اللحوم والفاكهة والنساء !
وقال آخر :
ـ واليهوديات عرفن أخيرا مزايا اللغة الانجليزية
ـ تراهن يرفلن فى الحرير فاذا اعترضت سبيل احداهن رمتك بنظرة شزراء وقالت لك بلهجة اسكتلندية صميمة
«Behave like a gentleman, please.»
ـ الخادمات يا سيد رشدى ، سقيا لعهودهن ، هجرن المطابخ الى الكباريهات !
ـ كانت الحرب فرصة طيبة لاكتشاف مواهبهن الفنية !
قال رشدى ـ كالمتحير ـ مبتسما :
ـ والعمل ؟ ! . . هل نشرع فى الزواج ؟ !
ـ اذا طالت الحرب ، وازدادت الحال سوءا على سوء ، فلن يبقى أعزب غير أنا وأنت !
ـ يا اخوانى لقد ظلمتم بعض اليهوديات وبعض الخـــوادم ، والحقيقة أنهن ها لهن ما رأين من عدم اشتراك الامة فى الحرب فساهمن فى قضية الحلفاء بأعراضهن ؟
ـ وبذلك صارت المرأة أغلى من السماد !
ـ بل أعز من الفحم !
ـ وغدا اذا وضعت الحرب أوزارها فماذا يفعلن ؟ !
ـ تصير المرأة أرخص من اليابانية !

ـ ويصير العشق بالجملة ، فيصيد الشاب فى ليلة واحدة ثلاث نساء ـ مثلا ـ واحدة للقبل وأخرى للنجوى وثالثة للمداعبة الخ ٠ ٠

وضحك رشدى ضحك انسان حرم شهود هذا المجلس عاما بغير نقصان ٠ ولبثوا يشربون ويتسامرون حتى وافت التاسعة فنهضوا الى بهو اللعب المحبوب ٠ وفى تلك الليلة ربح رشدى مبلغا كبيرا ـ أو هكذا يعد بينهم ـ فبلغ ربحه قبيل منتصف الثانية عشرة ثلاثة جنيهات ، أضاف اليها ثلاثين قرشا حين شارفت الثانية عشرة ـ وهو موعد انتهاء السهر ـ ثم انفضوا من حول المائدة ٠ وبدا أثناء اللعب فرحا مسرورا ، لأنه ممن تقرأ سرائرهم على صفحات وجوههم ، وجعل يترنم بصوت حنون كالمناجاة ، ولم يمسك عن الترنم حتى حين صاح به أحد الخاسرين « أصمت يا أخى فصوتك يهيج أعصابى ! » ٠ وعلى أثر انطلاقهم فى الطريق اقترح أحدهم قائلا :

ـ ما رأيكم فى أن نكمل اللعب فى بيتنا ؟

فقالوا فى صوت واحد :

ـ هو كذلك !

فسأل المقترح رشدى قائلا :

ـ وأنت ؟

فقال الشاب ضاحكا :

ـ أوافق تحت شرط أن تطلقوا لى حريه الغناء !

ومضوا الى بيت الداعى فى شارع أبو خوذة ، وهيئوا المائدة ، واستأنفوا اللعب بنهم لا يعرف الشبع ، ودفئت الحجرة المغلقة النوافذ بأنفاسهم ، والتهب الكحول بأفئدتهم ، فتصببوا عرقا ٠ وعندما دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل قال بعضهم :

ـ حسبكم لعبا والا قضينا نهار العيد الاول نائمين !

فكفوا عن اللعب ، وقد خسر رشدى ربحه جميعا وثلاثين قرشا أخرى !٠ وقال له أحدهم متهكما :

ـ كيف لم تتمتع بما منحناك من حرية الغناء ؟ !

وضحكوا جميعا ، فدارى بكياسته غضبه وجاراهم فى

ضحكهم . وودعهم عند ذاك ومضى الى العباسية ، وقد انقطعت المواصلات جميعا ، مدلجا من طريق الحسينية . ووجد الطريق خاليا والسكون مطبقا والظلام جاثما . وكان جسده ساخنا مبتلا بالعرق وحلقه يابسا ، فاصطدم برطوبة كثيفة يزفرها الخريف بغزارة ـ خاصة ـ فى الهزيع الاخير من الليل . وما عتم أن سرت فى أطرافه قشعريرة باردة ، ولسعت البرودة صدره، وزكم منخره . وكانت ليلة السرار وقد أحلو لك غبشها، وضاعف من غلظه انتشار سحاب دثر النجوم الساهرة ، فلاحت المنازل القديمة على جانبى الطريق كأشباح جالسة القرفصاء ذاهبة فى سبات عميق . وجعل يحدث نفسه : أما كان الأجدر أن يعتذر عن عدم المضى معهم الى البيت ؟ ولكن هيهات أن يلهم الحكمة يوما ما ! بيد أن أسفه كان ضعيفا كارادته سواء بسواء ، فالمقامر المدمن يلقى الخسارة عادة بهدوء ولن يعدو الأمر فى نظره التسليم فى يومه وعقد الرجاء بغده . وتنبه الى طول الطريق وقذارته فتأوه مغيظا محنقا . ولما بلغ مدخل خان خليلى ذكر وصف شقيقه للطريق « ثانى ممر على اليمين وثالث باب على اليسار » وتلمس سبيله فى الظلمة حتى انتهى الى العمارة ، ومضى الى حجرته بأقدام خفيفة وأضاء المصباح ، وما أن وقعت عيناه على النافذة المغلقة حتى تذكر النافذة التى تشرف عليها من عل ، وجاد ثغره بأول ابتسامة صادقة منذ منتصف الليل ، وطاف بمخيلته الوجه الأسمر المليح ، فتأسى عن هموم الليلة جميعا ، وتمتم قائلا : « اذا كان سوء الحظ مؤلما فحسنه غير منكور » وغير ملابسه ، ودلف من مكتبه فاستخرج من أحد أدراجه كشكول مذكراته ، وجلس ليدون خاطرة ، قبل النوم ..

١٩

وكان الأب أول المستيقظين ، فتوضأ ثم غـــادر البيت حين الفجر ميمما المسجـــد لصـــلاة العيـــد . فاستقبل أول نسمة من نسمات اليوم الجديد ، ورأى الفجـر الجميل يضـج بجموع القاصدين ، يخوضون أمواجه البنفسجية الحالمة مسبحين بحمد الله العلى .

وكان أحمد ثانى المستيقظين ، فنهض نشيطا حبورا ، وحلق ذقنه بعناية ، وارتدى جلبابا جديدا وطاقية جديدة . ثم وافته أمه الى حجرته وقد مشطت شعرها وأخذت زينتها ، فقبل يدها ، وقبل خدها ، وقبلت خديه ، ودعت المرأة للأسرة بالعمر المديد والسعادة والرفاهية ، ومضيا معا الى الصالة وجلسا جنبا لجنب يتحدثان وينتظران بقية الأسرة ، من انطلق منها يبتغى مرضاة الله ، ومن يغط فى نومه غطيطا . وعاد الاب بعد مشرق الشمس بقليل ، فدخل عليهما يرفل فى عباءته الفضفـاضة ، وما يزال **يبسمل ويحوقل** . فمثلا بـــين يديه ، ولثمت الزوجـة يده ، وفعل أحمد مثلها . فهنأهما الرجل بالعيـــد ، وجلسوا جميعا وهو يقول :

ـ كل عام وأنتم بخـــير . ربنـا يجعله عيـدا سعيـدا لنا وللمسلمين كافة .

ـ ورمى ببصره الذابل الى آخر حجـــرة فى الشقـــة وقال كالمتهكم :

ـ هل اســتيقظ الغلام أو أنه لم ينم بعد ؟!

فبادرت المرأة للدفاع ـ كعادتها ـ قائلة :

ـ تأخر الغلام أمس لأنه لقى اخوانه بعد فراق عام ، ولانه عاد بطبيعة الحال ماشيا على قدميه ..

على أنه لم يطل بهم الانتظار ، فانفتح باب الحجرة الأخيرة ومرق منه الشاب الى الحمام الذى يقابله ، وأقبل نحوهم ـ قبل مضى ربع ساعة ـ يخطر فى بيجامته وقد سرح شعره الأسود ، وتعطر بشذا البنفسج ، وبدا وجهه مائلا للشحوب الأنه يقطر منه حسن الشباب ورواؤه ، وتألق ثغره بابتسامة حلوة لا يضىء بمثلها فى الأسرة الا ثغر والدته الطروب . وتجاهل الشاب ما ينطوى عليه والده من الانتقاد فاقترب منه . وانحنى على يده ، وقبلها باحترام ، وانثنى الى والدته فقبل يدها وخدها ، ثم لثم جبين شقيقه . وبسطت الأم راحتها وقالت ضاحكة :

ـ عيديتى يا سادة وكل عام وأنتم بخير !

وقد تعود كل منهم أن يعطيها نصف جنيه عيدية . فكانت تفرح بعيديتها فرح الاطفال ، بل تنفقها كما ينفقها الأطفال ، فتبتاع ما تشتهيه نفسها من الشيكولاته والملبس .

ثم أحضرت فطار العيد ـ كعكا وحليبا ـ فأقبلوا عليه فى غبطة . والصائم يشعر عادة بغرابة وانكر وحذر وهو يتناول أول لقمة صباح العيد ، ثم يصيب من طعامه جـــذلا مسرورا ، فيس أجمل وقعا فى النفس من لحظة سعيدة تفصل بين واجب قامت بحقه وصبرت على أدائه وبين تمتعها بلذة الجزاء وراحة الضمير . وتناولوا الكعك بأناملهم ، وقضموه بلذة حتى رسم دوائر من السكر حول أفواههم ، ثم أساغوه بالحليب ، وما زالوا حتى شبعوا ، وقالت الام بلهجة أســـيفة ، تكلفتها لتستوهبهم الثناء والاطراء .

ـ يا حسرتاه على أيام السلم حين السمن سمن والدقيق دقيق والكعك كعك !

وأدرك رشدى ما ترمى اليه والدته فقال بلباقته المعهودة :

ـ كعكنا لذيذ لايدع بنا حاجة للتحسر على سواه !

وتفرقوا فى الحجرات . وعاد أحمد عاكفا الى حجرته. وكان قلب الكهل يخفق بروح الشباب النشوان ، بل كان كذلك منذ كاشفته بتحية الوداد ليلة القدر . فلم تغب عن مخيلته قط صورة شبحها الرقيق وهى تجود بايماءة السلام ، ولاخمدت بعد ذلك العواطف التى بعثتها تلك الايماءة الساحرة ، فرح الكهل واستخفه الطرب ، وهيأ له مرحه وطربه أنه سيسترد شبابه الريان فيخضر غصنه الذابل ويجرى فيه ماء الحياة الدفق ، ويسود فؤاده ، وتغشى صلعته لمة فينانة ،وتغرز أهداب عينيه فتكحل أشفارهما المشربة بالاحمرار بيد أنه لم تقع عليها عيناه منذ تلك اللحظة السعيدة، وتغيبت عن موعدها المألوف المحبوب، فلم يشك فى أنه الخجل الذى يتشجع بالظلمة ويفر من ضوء النهار ، فدرت أضلعه حنانا وعطفا ـ ومن أدرى منه بأهوال الخجل ـ وسر سرورا كبيرا اذ وجد أخيرا من يستتر عنه ـ هو ـ حياء ! ولكن هذا صباح العيد وقلبه يحدثه بأنها لن تبخل عليه بنظرة تسر الروح وتحيى الأمل . وها هو يرفع رأسه فيرى الشرفة مفتوحة على مصراعيها والشمس تغمرها فيشى لألاؤها بالوجه الذى أطل منها ، ولبث ينتظر مجيلا بصره فى الحى الفرحان بالعيد . وقد بثت روح العيد فى كل شىء فتراها فى الألوان وتسمعها فى الجو وتشمها مع الهواء ، وغدا ذاك التيه ـ الذى تحده العمارات ـ يرقص ويغنى طربا ويبعث بحرارة اللذات . جرى الاطفال هنا وهناك بثيابهم المزركشة ذوات الألوان الفاقعة ، وتطايرت وراءها الضفائر والشرائط، وهتفت الزمارات ، وفرقعت قنابل السلام ، ولاكت الأفواه الحلوى والنعناع ، وملأت الأناشيد والأغانى الأسماع ، واكتظت المقاهى بأهل المدن والريف فازدهت الأرض عيدا والسماء . وتصفحت عيناه المناظر والوجوه بعقل غائب ، حتى جوزى على صبره أجمل الجزاء ، فرأى فتاته تبرز من باب الشرفة فى أبهى حلل ، فصعد الى وجهها الأسمر الجميل ناظريه ، وتشجع على

غير مألوفه فلم يطرق ، وابتسم وفؤاده يغلى من شدة الخفقان ، وأحنى رأسه احناءة خفيفة، وكانت ترنو اليه بعينيها النجلاوين، فابتسمت ابتسامة حلوة ردا على تحيته ، ولم تحول عينيها عن عينيه فتولاه الاضطراب والحياء وأوشك أن يفقد شجـــاعته ، ولكنها ابتسمت اليه مرة أخرى وتراجعت فى خفه حتى اختفت عن ناظريه ، فتنهد بارتياح وسرور . ومناه الأمل أن يراها مرة أخرى فيفوز بابتسامة ثالثة ولكن خادما جاء متعجلا وأغلـق باب الشرفة ، فشعر بخيبة وأسف ثم ابتعد عن النـــافذة ، وكانت الساعة تقترب من التاسعة فذكـــر أنه على موعد مع الصحاب فى الزهرة – صار أخيرا من أصحـــاب المواعيد فى القهوات – فارتدى ملابسه الجديدة – البدلة والطربوش والحذاء والقميص – ونظر الى صورته فى المرآة فأعجبته جدته وأناقته ، وذكر أيام شبابه الغابر – قبل أن يعبس له الزمان – حين عرف دهرا بالأناقه ! . وغادر البيت جذلا طروبا ، فسار متمهلا ثملا بخمر الامل والاحلام ، يسائل نفسه فى حيرة الفرحا ن «وماذا بعد الابتسام ؟ ... ماذا بعد يا دهر ؟!

٢٠

ورجع رشدى الى حجـــرته ، فأشعل سيجارة وراح يدخنها وراء النـــافذة مصـوبا بصره نحو النـــافذة المرمـوقة ، متوقعا بين آن وآخر أن يلمح جارته الحسناء . وصدقه الأمل فلاحت الفتاة فى النافذة بفستانها الجديد وعلى كتفيها معطف رمادى ، الا أنها تراجعت بغير ابطاء كأنما تفر من نظرته الثاقبة **ولمح الشاب المعطف فخطر له أنها متهيئة للخروج ، فدلف الى** المشجب بغير تردد وأخذ فى ارتداء ملابسه . وغادر البيت بعد دقائق معدودات . وساءل نفسه أين يحسن أن ينتظـر ؟ .. وذكر لتوه الممر الضيق الموصل بالسكة الجديدة ، وسار نحوه مسرعا ، ثم توقف ، عند موضع اتصاله بالطريق ، على الطوار . وكان الشارع يضطرب بتيارات السابلـــة وقد انحدرت من الدراسة العربات الكارو غاصة بالغلمان والبنـــات يغنـــون ويرقصون ويطبلون . فلبث فى مكانه عينا على الشارع المائج تنظر فى ابتسام وعينا على الممر تترقب فى رجاء . وكان خبيرا بأمثال ذاك الموقف فلم يساوره الجزع ، بيد أن الحال لم يقتضه صبرا طويلا فما عتم أن رأى فتاته تبدو فى أول الممـر يسـير لصقها غلام عظيم الشبه بها . فتشاغل عن النظر اليها باشعال سيجارة وهو لا يشك فى أنها تراه ، ولكن هل أدركت يا ترى

أنه ينتظرها ؟ . ثم تبعها على بعد قريب فى طريقها الى الازهر فرآها جملة لأول مرة وبدت له فى السادسة عشرة على أكبر تقدير ، متوسطة القامة ، معتدلة القوام ، رشيقة اللفتات ، بيد أن وجهها أجمل ما فيها حقا ، وأجمل ما فى وجهها عيناها النجلاوان . ولم يستطع أن ينعم فيها النظر لأنها بلغت المحطة مسرعة وصعدت الى حجرة السيدات ومعها أخوها — على الأرجح — فاستقل الترام وراء الحجرة مباشرة ليتمكن من رصد نزولها، وتحرك الترام وهو لايدرى أين تنتهى به المطاردة ! . وجعل يحدث نفسه : شابة صغيرة ، وجهها ٧ر٥ على ١٠ وجسمها ٦ر٥ على ١٠ ، سنعلم بعد حين أيسيرة هى أم عسيرة ، وهل تلهو بالحب أم تحلم بخاتم الخطوبة ، سنعلم كل شىء فى حينه ، ولكنها اذا كانت من الحالمات بالخاتم فسيغدو الأمر شاقا وربما مضجرا أيضا . على أنه ينبغى أن نركز اهتمامنا فى شىء واحد قبل أى شىء سواه، وهو أن نستدرجه الى الكلام ولنر ما يكون !. ووصل الترام الى ميدان الملكة فريدة فغادروه جميعا — هى وأخوها أولا ثم هو — ولاحت منها التفاتة على الطوار فرأته على بعد أذرع منها يديم اليها نظرته الجسورة الثاقبة ، فحولت عنه وجهها ، وتظاهرت بالانهماك فى محادثة الغلام . ولم يخالجه شك هذه المرة فى أنها أدركت أنه يتابعها عن عمد . ثم رآهما يستقلان أول ترام قادم — وكان ترام الجيزة — فصعد اليه بغير تردد متسائلا « ترى هل يقصدان قريبا فى الجيزة ليعيد عليه ؟ » وقرر فى تلك اللحظة أن يهبها اليوم جميعا عن طيب خاطر ولكنهما غادرا المركبة عند محطة عماد الدين ، فغادرها مسرورا وقد أيقن أنهما ذاهبان الى سينما . وعبروا الطريق الى شارع عماد الدين ، الاثنان أولا وهو فى أثرهما متحفزا لما يشبه الابتسام أو لتضمين نظرته ما يريد من المعانى اذا هى التفتت وراءها ، ولكنها مضت لا تلوى على شىء ممسكة بيد الغلام الذى هرول ليسير بجانبها . وجعل لا يحول عينيه عن ظهرها وساقيها، ويتبين حال مشيتها ومواقع قدميها، فوجد من السرور برؤيتها من وراء مثلما وجد لرؤيتها من أمام ، وأعطى صورتها

الخلفية جملة ٨ على ١٠ ، وتنهد عند ذاك متذكرا وجوها أبى الحسن أن تنسى وقال لنفسه « حقا فشا الحسن فى مصر هذا الزمان الحديث » ولما بلغوا ريتز التفتت وراءها فرأت عينيه محدقتين بها فاستردت عينيها بسرعة ـ وفوجىء فلم يسعه أن يضمن نظرته شيئا ـ وحثت خطاها فى اتجاه استديو مصر وأسف على ما فاته من حديث العيون ولكنه سر بالسينما التى اختارتها فتاته ـ لأنها كانت تعرض فيلم دنانير ـ وأدرك أن هذه المطاردة أتاحت له لذتين عزيزتين . وأراد أن يجلس جنبها فى الصالة فعمل على أن يقف وراءها مباشرة فى الصف الممتد أمام شباك التذاكر ليتمكن من اختيار مقعد لصق مقعدها ، بينما تنحى الغلام جانبا ينتظر متفرجا على الصور ، وصار منها على قيد خطوة، فخال أنفاسه تمس ضفيرتها فاستثار قربها من صدره احساسا شبيها بما تستثيره رائحه زكية عميقة . وتتبع أنملتها وهى تختار مقعدين لها ولشقيقها على رسم الصالة ، فرأى الى يمين الكرسين مقعدا شاغرا والى يسارهما ثلاثة ،وتساءل ترى الى أية ناحية تجلس الفتاة ؟ .. وأجرى فى سره على الناحيتين القرعة المعروفة « حطة يابطة ياذقن القطة عمى حسن الخ » فرست « حداه » على المقعد الايمن فاختاره فيما يشبه الاطمئنان . وتحول عن الشباك وأجال بصره فيما حوله فلم يجد للفتاة ولا لشقيقها أثرا ، بيد أنه لم ينزعج فالتذكرة فى يده ، وهى خليقة بأن توصله اليها مهما ضل عنها ، ولا يدرى كيف ذكره هذا ـ قوة التذكرة ـ بعقد الزواج وقداسته وسحره فاهتز صدره الرقيق ، ودخل السينما منفعلا . ومضى به الدليل الى مقعده وهو يرجو أن تكون « حداه » قد صدقته الهداية ، ولكنه رأى الغلام يجلس بينه وبين أخته ! ورأته الفتاة قادما فطرفت عيناها ارتباكا وتجنبت أن تحولهما الى جهته ! . وجلس الشاب فى ثقة وسرور ، واسترق اليها النظر مرة ومرة فوجدها فى المرتين شاخصة الى ما أمامها ، واستشف من تورد خدها وارتباك هيئتها وما يخامرها من حياء واضطراب ، فأشفق عليها ، ورأى من الحكمة ألا يشق عليها،فجعل يتسلى باجالة بصره بين البناوير

والالواح والمقاعد مزجيا تحيات المودة الى الصدور والنحور والثغور والمعاصم . ولم يطل به المطال فدق الجرس ثم أطفئت الانوار ، وانحسرت الشاشة عن دنيا الاحلام . وطاب له المجلس فى الظلمة على كثب من الفتاة التى أضمر لها غزلا - وان لم يخفق فؤاده بعاطفة بعد - حتى غرد الصوت الالهى بأغنية النبع « طاب النسيم العليل » فغفل عن الوجود . وكان يحب الغناء حبا خيل اليه يوما أنه خلق ليكون موسيقيا ، فتسلسل الفلم وهو هائم فى نعمة روحية عالية . وانتهى العرض وأضيئت الانوار ونهض النظارة . والتفت رشدى نحو الفتاة فرآها واقفة مغمضة العينين تفاديا لتأثير النور الباهر بعد طول الاستسلام للظلمة ، فانتظر حتى فتحتهما على نظرته العارمة ! وعنى خارج السينما بملاحظة أصابع يديها فعلم أنها ليست مخطوبة ، وابتسم لذلك ابتسامة ارتياح . ثم تعقبها فى العودة بنفس العناد الذى تعقبها به فى الذهاب ، الا أنه تثاقل عن متابعتها فى الازهر كيلا يشى بسره لأحد من أهل حيه الجديد وعاد الى البيت فوجد الاسرة فى انتظاره للغداء . وما عتمت أن دعتهم أمه قائلة بلهجتها المرحة .

- هلموا الى طاجن العيد ..

٢١

وعادت نوال الى البيت وقد بلغ منها التـــأثر ، وراحت تسائل نفسها : ما لهذا الفتى الجسور لا يكف عن مطاردتهـا مذ وقعت عليها عيناه غداة الوقفة ؟!

جاوزت نوال فى ذاك الوقت السادسةعشرة بقليل. وكانت ذات حسن يستحق الاعجاب . وتحلى حسنها بميزتين لا يستهان بهما السذاجة والخفة . ولكن أية سذاجـة ، وأية خفـــة ؟ . السذاجة التى توحى بها بساطة الجمال ، والتى تطالعهـا فى الحدقة الصافية الواسعة ـ فى غير مبالغة ـ والنظرة المستقيمة ، بيد أنها ليست سذاجة الغفلة أو البلاهة. وخفة تنبثق من أناقة الملامح ولطف الروح ، فلا هى الى الطيش والرعونة تنتسب ، ولا من حدة الذكاء وبراعته تستمد . وهى سمراء ، وكثيرا ما تقول أمها ان السمرة روح الجمال ومصدر الخفة ، ولكنها كانت فى الحقيقة من عشاق اللون الابيض ، ولذلك أخذت تعالج نحـــافة ابنتها بعقاقير السمن لاعتقـــادها بأن السمن يكسب البشرة اشراقا. وقد تقدمت الفتاة فى دراستها الثانوية تقدما يبشر بالنجاح ولكنها انضمت فى الواقع الى قافلة العلم ، وليس العلم ما تنشد ، ولا المدرسة بالمأوى الذى يهفو اليه فؤادها،فأحلامها لا تفارق البيت ، ولن تزال تعد أمها أستاذتها الاولى تتلقى عنها

فنون الحياة المنزلية من طهى وحيـــاكة وتطريز ، وما رأت فى العلم يوما الا زينه تحلى بها أنوثتها ، وحليه تغـــلى من مهرها فتركزت حياتها فى هدف واحد : القلب أو البيت أو الزواج . أليس أول دعاء دعيت به « العروس » ؟! .. وانه لأجمل دعاء . وانها لتتلهف على أن تكونه ، وترقب حظها فى صبر ورجـاء . وبذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل ، وأحبت « الرجل » وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة . فكانت ثمـــرة ناضجة دانية القطوف ترصد من يجنيها . وكان الاستاذ أحمد راشد المحامى أول رجل - من غير محارمها - يتصل بها عن كثب لاعطائها الدروس . وتلقته منذ أول مقابلة باستحياء . ورمقته بعين ملؤها التطلع والرجاء ، فلم يتمثل لعينيها «أستاذا» بقدر ما تمثل لهما رجلا ! ولان قلبها وأوشكت الحياة أن تنبض به . بيد أن الشاب المحامى كان صارما رزينا أكثر مما ينبغى ، وعجزت كل العجز عن أن تقرأ عواطفه الحقيقية وراء عويناته السوداء ، ولما تعقب تهاونها بالتأنيب بدأ لعينيها مكفهرا مخيفا فجفلت منه وخاب رجاؤها فيه . وكثيرا ما كان يحدثها بكلام لا تفقه له معنى ولا تجد له طعما مثل قوله لها مرة « يخيل الى أنك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم ، فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانســـان . وينبغى أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله . أين الشوق الى أسرار الوجود ؟ ... أين اللهفة على المعرفة ؟ .. لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل فى طريق العرفان والمجهول .. » وفى مرة أخرى سألها : « عـلام نويت بعد البكالوريا ؟ .. أما عرفت بعد العلم الذى ترغبين فى دراسته فى الجامعة ؟ » وهالتها كلمه « الجامعة » ... أيمتد بها عهد الدراسه حتى الجامعة ؟! وأجابته باقتضاب : « لا أدرى » فقال لها الشاب ممتعضا : « أما زلت عند موقفـــك السلبى من العلم ؟! » ولم تفطن الى أنه يريد أن يصوغها على المثـــال الذى يحب فحسبت أنه يحتقرها ويزدريها فاشتدت منه جفولا .

ثم جاء أحمد عاكف الجار الجديد . وقالت الانباء انه أعزب .

وشعرت بمزيد الغبطة والسرور أن عينيه تسترقان اليها النظر فتحرك قلبها نحوه كما تتحرك الراحتان نحو مجمرة فى ليلة شديدة البرد والزمهرير ، وقالت لنفسها انه رجل جاوز حدود الشباب ، ولكنه ما يزال فى عنفوان الكهولة ، ولا بد أن يكون موظفا محترما لانه غالبا ما يصير الموظف – فى مثل عمره – محترما . وأيا كان فلن يسعها أن تغضى عن نظراته الحيية التى يرسلها اليها فى أدب وتردد ، ولا أن تجد لذلك من معنى غير الوداد ، والا ففيم يثابر على الانتظار والنظر أصيلا بعد أصيل ؟! على أنها تساءلت فى حيرة لماذا لا يخطو خطوة جديدة ؟ .. لماذا يقنع بالوقوف عند مخالسة النظر ؟ .. هلا ابتسم اليها ؟ .. هلا اومأ بتحيه ؟!.. ترى هل يعقل الحياء الرجال كما يعقل النساء ؟! .. واذا كان هذا شأنه فلماذا لا يخاطب أباها فى الأمر ؟ أو لماذا لا يكلف أمه بمهمة خطبتها ؟! . كانت نوال حيية وفى حاجة الى من يطاردها ، فأوقعها حظها على كهل فى أشد الحاجة الى من تطارده ! . الا أن شجاعتها لم تخنها – خاصة بعد أن يئست من شجاعته – فبدأته بالتحية من شرفتها وتلقت رده الجميل ، وحدثها قلبها بأنه الأمل المرموق قد بات قريب المنال ...

ولدى الضحى من نهار الوقفة طالعها وجه جديد من نفس الشقة ، بل من الحجرة التى تواجه حجرة نومها . وأدركت من النظرة الاولى أن الشاب الجديد أخو صاحبها الكهل ، ولكن أين كان قبل اليوم ؟.. وما باله يرميها بتلك النظرة القوية الجسورة التى دعت الدم من جميع أطرافها الى خديها وحملتها على الفرار؟! . يا له من شاب نضير جم المحاسن جذاب المنظر ! ويا لها من نظرة ثاقبة ترعش القلب ، ولكن ياترى أهذا شأنه مع كل حسناء ؟.. أم جذبه الى وجهها شىء لاعهد له به ؟ .. وهل يقيم فى هذه الحجرة فيراها صباح مساء أم يختفى فجأة كما ظهر فجأة ؟ .. وقال لها قلبها ان مثل هذا الشاب خير من ذاك الكهل بغير جدال ، ولكن الكهل لم يعد غريبا ، فبينها وبينه تحية متبادلة ، وهو المفضل اذا طلب يدها ، وما ينبغى لها أن تنسى أن بينهما عهدا صامتا لا

يلبث أن يصير – ان شاء الله – زمرا وطبلا وثريات لألاءة ورملا فاقعا يسر الناظرين . وفي صباح العيد ارتدت ملابسها الجديدة، ودعاها قلبها الى الظهور بالشرفة ليراها الكهل في أبهى حلل وأجمل منظر ، ووجدته في النافذة في أحسن صورة ممكنة . فذكرها جلبابه وطاقيته بأبيها . وتبادلا التحية ، ثم عادت الى حجرتها . ونازعتها مشاعرها الى القاء نظرة على النافذة الاخرى، فوجدت الشاب الجميل وكأنه ينتظرها ، فتراجعت أمام نظرته العارمة . وحسبت أنه لن يتخطى بجسارته نافذته فما راعها الا أن تجده بانتظارها في السكة الجديدة! وتساءلت في الترام ترى هل تبعها أم أنه وهم ما رأت ؟ .. ولكنها علمت بعد حين أنه يتعقبها عامدا ، وانه ممن لا ينثنون عن غاية ، ومن عجب أنه نسي وجودها في السينما بترنيم أم كلثوم ، أما هي فلبثت تشعر بوجوده على كثب منها طوال الوقت ! وعادت الى البيت ثملة بسرور لا عهد لقلبها بمثله وقالت لنفسها ضاحكة : « لو أن جميع الشبان في مثل عناده ما بقيت فتاة واحدة بغير زواج ! » ووجدت قلبها يؤنبها على تسرعها ببذل التحية للآخر . ولكن هل كانت تعلم الغيب ؟ وقلق ضميرها فلم تجد لطاجن العيد ولا لسمكه طعما ! ...

◆◆◆

وغادرت الشقة عصرا بقصد زيارة حرم سيد أفندي عارف . وخطر لها أن تصعد الى السطح – قبل القيام بالزيارة – لتجول جولة فيه مسرحه الطرف بين المآذن والقباب ، وقد صار السطح نزهتها بعد أن تعذر عليها مشاركة البنات لعبهن في الطرقات . ودرات مع السور على مهل متصفحة المناظر مقلبة وجهها في الآفاق . وشعرت فجأة بداع يدعوها الى النظر نحو مدخل السطح ، فما راعها الا أن تراه هناك يملأ طوله فراغ الباب وينظر نحوها بهدوء وفي عينيه الجميلتين شبه ابتسام ! . واضطرب قلبها لمرآه اضطرابة عنيفة زلزلت صدرها الصغير ، وشعرت بخوف وقلق ، ثم استعادت رباطة جأشها بسرعة موقنة بأن الموقف أحرج من أن تلقاه بالحياء فحسب ، ونطقت عيناها وهما تنظران اليه بالانكار والذهول ..

٢٢

ثم حولت عنه عينيها ، وولته ظهرها ، وألقت ببصرها الى الافق البعيد دون أن ترى شيئا . وقال لها عقلها انه ينبغى أن تزايل المكان اذا أرادت ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، وأهابها شعور باطنى بأن تتجاهل وجوده ، وبألا تعجل بذهابها فلبثت حيث هى لا تريم ، وتولاها احساس بالحياء والقلق . وتنهد رشدى ارتياحا لما رآه من تفضيلها البقاء على الرحيل ، وقال لنفسه جذلا : « أصابت سن الشص مرماها ، ولكن ينبغى معالجة الجلطية بحكمة ومهارة ! » . وكان علم بصعودها الى السطح اتفاقا ، اذ كان ينظر الى نافذة حجرتها المغلقة بأسف فلاحت منه التفاتة الى سور السطح ، فصادف ذلك مرورها به ، وكان انتهى من ارتداء ملابسه استعدادا للخروج الى سهرته ، فحملته جسارته وحسن انتهازه للفرص الى الصعود الى السطح من فوره . ولما اطمأن الى بقائها تفحص المكان بهدوء حتى أدرك خلوه ، ثم سار متمهلا الى موقف قريب منها ، ولم تكن تخونه الجرأة الجنونية ، ولكنه آثر معها الأناة لما عهده بها من حياء . ورأى على السور ـ فى موقع وسط بينه وبينها ـ عمودا خشبيا شد اليه حبل الغسيل ، ووقعت عليه يمامة ، فرفع رأسه الى اليمامة وقال بصوت خافت وهو يلحظ الفتاة بطرفه : « مساء الخير يا يمامتى ! » ورآها تلحظ اليمامة بطرف خفى فابتسم واستدرك : « ما أجمل سمرتك ! السمرة حلية الجمال وروح

الخفة ، هلا سمعت بأغنيه السمرة (يا أسمر اللون حيـاتى الاسمرانى) ؟ وأنصتت الفتاة اليه وان تظاهرت بعدم المبالاة بأذنين مرهفتين ، وطاب لها صوته ، فابتسمت ابتسامة باطنية لم ترسمها شفتاها ، ثم غلبها الحياء فابتعدت خطوتين وأشاحت عنه بوجهها . وجعل هو يقول محدثا اليمامة : « كيف لا تردين تحيتى ؟ .. كيف تعرضين عنى ؟! .. بل كيف اندست القسوة الى هذا الحسن الرقيق ؟! » . وتساءلت أما ينبغى أن تمضى الى حال سبيلها ؟ ألا تخاف أن يصعد البواب أو بعض السكان الى السطح فيريبه من موقفهما ما يريبه ؟ أبها مس يشد قدميها الى الارض ؟! . واستدرك رشدى قائلا : « ألا تعلمين يابمامة أنى جارك ؟ .. وأن السماء الرحيمة لن تستطيع أن تغيبك بعد اليوم عنى ؟ وانى سأكون دائما حيث تكونين ! » . وعطفت نوال رأسها قليلا كأنما لترى اليمامة فوجدتها قد طارت ! وألفته ينظر نحوها بجسارته المعهودة . ولم تعد تجدى مخاطبة اليمامة ، فقال لها بهدوء :

ـ سعيدة .

فأشاحت عنه وجهها مرة أخرى ، وحركت قدميهـا ببطء شديد نحو الباب ، فدنا منها جزعا وقال :

ـ ألا تردين على ؟

فلم تنبس بكلمة وقد تورد خداها واختلج جفناها ، فاقترب منها أكثر من قبل وقال :

ـ أما تجودين بكلمة واحدة ؟ .. كلمة واحدة ، لتكن عذلا ان شئت ، بل لتكن نهرا !

ولكنها حثت خطاها فهم باعتراض سبيلها ، فقالت له بحدة مصطنعة :

ـ اليك عن سبيلى ! .. واخجلتاه لسلوك الجار !

ـ هل يعيب الجار أن يتودد الى جارته الحسناء !

ـ أجل ..

ـ واذا أجبره حسنها على أن يتودد اليها فمن الملوم ؟

ـ لا تستدرجنى الى الكلام ، واياك وأن تعترض سبيلى ..

ولكنه اعترض سبيلها غير مبال تحذيرها ، فتملكها الخوف واندفعت نحو الباب مارقة من تحت ذراعه ، فلم يسعه اللحاق بها . ونزلت على عجل خافقة الفـــؤاد ومضت نحو شقة سيـد عارف . لم تكن غضبى ولا مستاءة ، بل كانت أبعد خلق الله عن الغضب أو الاستياء ، وجلست فى الشرفة تنتظر ربة البيت فلم تفارق مخيلتها صورة محياه الجميل ، ولا غاب عن سمعها رجع صوته الحنون . وجعلت تستذكر أحاديث أترابها فى المدرسة عن حيل الشبان ورسائل الغرام ونوادر الغزل، ثم تساءلت ترى هل تدلى بدلوها منذ الغد فى حديث الحب الذى لا يمل ؟ .. ولكن أى نوع من الشبان يكون ؟!

ونزل رشدى بعد قليل مبتسما مسرورا . ولم يكن قلبه قد استشعر عاطفة صادقة بعد ، فكأنما كان يقوم بتمثيـــل دور محبوب ، بيد أنه كان كذلك من أولئك الممثلين الصادقين الذين يندمجون فى أدوارهم اندماجا يورى القلب ويقدح شرره فاذا هم ضاحكون أو باكون . ثم انطلق الى الكازينو بشهية متفتحـــة للسرور والشراب والطرب ...

٢٣

ومضت أيام العيد فلم تقع عينا أحمد عاكف عليهـــا مرة أخرى ، وحسب أنهـــا فى شغل بالعيـــد وملاهيه فدعـــا لها قلبه بالسرور . وكان كل مطمعه أن تراه فى البدلة الجديدة التي فصلها خاصة اكراما لها ، فقال لنفسه ان البدلة لا تبلى فى أيام وسوف تراه يوما ما حتما وهو يرفل فيها . وشغل هو كذلك بعطلة العيدوان كان أنفقها جميعا فى قهوة الزهرة بين الصحاب، ما عدا سليمان بك عثة الذى سافر ليعيد فى قريته ومن عجب حقا ألا يكون قد ظفر بصديق منهم على دوام العشرة والصحبة ، وذلك لانه كان يتطلب فى الصديق سجيتين لا يجتمعـــان : يدين له – هو بالتفوق والاستاذية.. وأن يكون مثقفا – ولو لحد ما – ليتمتع بصداقته . ولكنه غالبـــا ما يجد نفســـه بين اثنين : واحد عـــامى – أو فى حـــكم العـــوام – يعجب بشخصه ويؤمن بعقليته . وآخر مثقف لا يذعن لمشيئته ويجادله جدل المعتد بنفسه المتحدى غيره . ولعله أن يحب الاول كما يمقت الثانى ، ولكن لا هذا ولا ذاك بالصديق المنشود . وقد أحب المعلم نونو وكمال خليل وسيد عارف ، ومقت أحمد راشد ، ولكنه ظل بغير صديق ، أو كان شقيقه رشدى الصديق الوحيد فى دنياه المحبوبة ...

مضت اذا أيام العيد دون أن تقع عليها عيناه . ولـكنه لم يكف لحظة عن التفكير فيها ، ولا انقطع عن ادامة النظر فيما جد فى حياته من أمور . ألم تحدث عاطفة ، ويستيقظ قلب ،

ويبتسم أمل ؟! بل ألم تحدث عاطفتان ، ويستيقظ قلبـــان ويبتسم أملان ؟! . لقد أحب بعد أن حرم الحب زهـــاء ثلاثين عاما . وأحب بقلب آذن شبابه بوداع ، فهو يستمسك بالحب كآخر أمل مرجى فى سعادة الدنيا . وجاء الحب عفوا بعد أن أشفى منه على اليأس ، ورجع فؤاده النغم القديم فتيا نديا عذبا كأنه بعث من جديد . فوجب أن يفكر فى أمره ، ويقبـــل على تدبير شأنه . ومضت أيام العيد وهو مشغول بالتفكير والتدبير . فهذى الحياة تمسح عن جبينها ما ألف من تقطيبها ، وتجود له بفرصة سعيدة ليعاود تجريب حظه ، فلن يحجـــم ولن يتردد وأراد أن يكون أعظم صراحة مع نفسه فغمـــغم فى وحـــدته : « الزواج ! » أجل ، ولكنه فى الاربعين وهى دون العشرين ، فهو فى سن أبيها ، ولكن ما وجه الانكار فى ذاك ؟ .. ألم تعلن له ميلها اليه ـ وقد خفق فؤاده للذكرى ـ ألم يختره قلبها ؟ .. وأما صديقه كمال خليل فيرجح أن يرحب بيده ، وان لم يخل بادىء الامر من دهشة . وتخيل أن القوم راحوا يتحرون عنـــه فعلموا أنه (فى الاربعين ، كاتب بمحفوظات الاشغال ، درجـــة ثامنة ـ **فهو من المنسيين فى الحكومة كما أنه من المنسيين فى** الدنيا ـ مرتب خمسة عشر جنيها !) ألا ينزعج كمال خليل الذى يحسب أنه من رؤساء الاقلام ؟ ... ألا تقول الست توحيدة ـ أم نوال ـ ان عمره كبير ومرتبه صغير ؟! .. وعض عند ذاك على شفته ، وعاوده شعور الأسى واليأس : وأوشك أن يثـــور به الغضب ، وأن يقول كما قال مرة فى مثل هذه المناسبة : « ان الدنيا جميعا لا تساوى زنتها قذارة اذا سولت نفس لصاحبها أن يستهين بى ! » ، ولكن توثبه لتجربة حظه لم يدعه يستسلم لجنون الغضب ، فطرد عن فكره خواطر اليأس ، واستعـــاد سروره ودواعى الأمل والسعادة من حياته الجديدة .

وانقضت أيام العيد الثلاثة وهو يفكر التفكير الذى يسبق العمل مباشرة ، وجاء يوم الجمعة الاول بعد العيد ولما يحقـــق شيئا من أفكاره ، بيد أنه رآها صباح ذاك اليوم لأول مـــرة ـ بعد مرة أول أيام العيد ـ وسر فؤاده المشوق . كان اليوم من أيام نوفمبر الاولى ، والجو رقيق منعش تسرى فى تضاعيفه من

آن لآن هبات نسيم بارد ، والسماء تغشاها غلالة من سحاب ناصع البياض ينضح بنور الشمس المتوهج ، ففتح النافذة - نافذة نوال - ورفع رأسه ، وما يدرى الا وفتاته تطل عليه كالأمل النضير والحلم السعيد ، وحياها بابتسامة وايماءة ، فردت تحيته مبتسمة ولكم عشق ابتسامتها ، ولبث يملأ عينيه من سمرتها الصافيه • وخطر له وقتذاك أن يحاول تفهيمها بالاشارة - وعلى قدر المستطاع - أنه يوشك أن يحدث والدها بشأنهما ، ولكنها سبقته فأذ متر أ سها على راحتها كأنما تقول له انها ترغب أن تنام ، وأشارت الى رأسها وقطبت ثم لوت شفتيها تعنى أن رأسها موجع ، ثم حنت له رأسها وتراجعت مولية • وأسف على فوات الفرصة ، ولكن تصميمه تضاعف • وأراد آن يدخن سيجارة فوجد علبة السجائر فارغة ، فمضى الى حجرة رشدى ليأخذ منه سيجارة ، وكان الباب مواربا فدفعه بهدوء ودخل ، ورأى شقيقه مرتفقا النافذة شاخصا الى أعلى ، مستغرقا حتى أنه بلغ نصف الحجرة قبل أن يتنبه الشاب لمجيئه • فاستطاع أن يرى من موقفه النافذة الاخرى التى يتطلع اليها أخوه ، وأن يلمح حال توسطه الحجرة رأس نوال - دون غيرها - وهو يرتد بسرعة البرق ! وانتبه رشدى الى مجىء شقيقه - باختفاء الفتاة الذى هو بالفرار أشبه - فالتفت وراءه ، ثم ابتسم للقادم بترحاب • وبوغت أحمد مباغتة عنيفة منكرة كانت أعنف وقعا عليه من انفجار القنابل ليلة الغارة ، فزلزلت صدره - الذى جاء به منتجا مطمئنا قلقلة جنونيه صدعته كما ينصدع السحاب بشرارة البرق القوية الخاطفة • ولكن لم يغب عنه تحول الشاب اليه ، فأغضى بصره - ببداهة الغريزة وسرعتها - ليخفى عينيه وأهاب بقوته الكامنة ليحافظ على هدوء مظهره ، وتكلف ابتسامة ، ثم نظر الى الشاب الذى أقبل نحوه مبتسما ابتسامته الحلوة البريئة وقال بهدوء •

- سيجارة من فضلك ••

واستخرج رشدى علبة سجائره من جيب بيجامته وفتحها وقدمها لأخيه ، فتناول الرجل سيجارة شاكرا ، وحياه برفع يده الى جبينه ، ثم قفل راجعا •••

٢٤

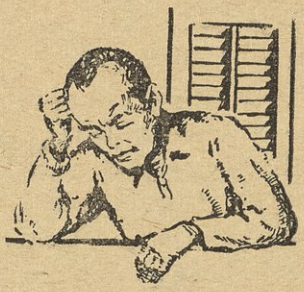

ورد حجرته وهو لا يكاد يرى شيئـا من الـذهول ، ورمى بالسيجـارة الى فراشه ، ثم اقترب من النـافذة ورفع رأسه فرأى الشرفة كمـا تركتها مفتوحة وخالية ، ثم أطرق مقطبا وأغلق النافذة بشدة طقطق لها الزجاج ، وعاد الى الفراش وجلس على حافته مغمغما « غاب عنى أن هناك نافذة تطل على نافذته مثل هذه الشرفة ! حقـا غاب عنى ذلك ! » وكأن دمه استحال نفطا يمده قلبه بألسنة من لهيب ألم يرها وهى ترتد فزعـة لدى ظهوره ؟ ، فهـل غير الشـعور بالاثم أفزعها ؟ أو ما الذى دعاها الى النافذة بعد أن أوهمته أنهـا ذاهبه لتنام ؟ فليس وراء ذلك كله سوى معنى خبيث يتخايل خلقه البشع خلف خدع الآمال الباطنة • ومن عجب أنه لم يمض على حضور شقيقه الاعشرة أيام ، ففى أيام معدودات تغير كل شيء ـ وشـعر عند ذاك بصـفعة ـ فكفر قلب بهواه ، وصارت ابتسامة الترحاب خدعة رياء ، ترى كيف تحدث هذه الانقلابات ؟ أتقع فى يسر وهوادة كأنها لاتعرك ضحايا ؟ أم أنها تلقى ما هو خليق بها من التردد والألم ؟ ، أكانت تلعب بهما ؟ أيمكن أن تنكشف تلك النظرة الساذجة عن مكر سيء وخبث وعر ؟ ! ، ولمـاذا اذا بادلته التحيـة منذ دقائق ؟ أهو

الحياء والحرج أو أنه المكر والحيطة ؟ »

أما الشاب فلا يدرى من الامر شيئا ، انه برىء من دمه ، ولعل أنه رآها فراقته **فغازلها كعادته فاستمالها فهويته** ، بنظرة واشارة نسيته ـ وهل خطره أكبر من ذلك ! نسيت الكهل الاصلع الفانى . فلا يلومن الا نفسه، ألم يكن له فيما اكتسب من معرفة بحظه وسوء ظنه بدنياه ، وبالمرأة خاصة ، ما يحرز به نفسه من غوائل الأمل وومضات السعادة الكواذب ؟ . ونهض قائما وقد اشتد شحوب وجهه ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق ويأس سحيق ، وجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا ما بين الفراش والمكتبة حتى عراه دوار فعاد الى مجلسه من **الفراش ، وراح يتساءل : أيرضى ان يستبقا** ـ هو وأخوه ـ فى مضمار منافسة واحد وثارت كبرياؤه وشمخ بأنفه، محال أن يتنازل لمنافسة انسان ، فالمنافسه الحقة لا تثور الا بين أكفاء ! . ومحال كذلك أن يطلع شقيقه على سره ، فكبرياؤه يأبى عليه أن يستجدى السعادة أو يستوهب الحب . وخليق بمن كان مثله أن يترفع عن هذى الصغائر ـ الحب والفتاة والظافر بهما ـ فهو أكبر من هذا جميعه . ولكن ما بال الألم لا يرحم كبيرا ؟ ! ، لماذا لا يعرف هذا الألم القتال قدره فيتوارى ؟ ! ، كيف تلسع الغيرة قلبه بمثل شوكة العقرب ؟ ، والام يئن كبده ويتوجع ! . الحقيقة أنه مد يده ليجلو عروسه فتكشف له قناعها الموشى عن جمجمة ميت ! . ورأى بعين خياله صورتهما المزدوجة ، هو بشبابه الريان وهى بعينيها النجلاوين ، فوجد ألما واباء وعجرفة قاسية . ترى لماذا يحول رشدى دائما بينه وبين سعادته وما أحب انسانا مثله قط ؟ فهو الذى أجبره ـ قبل عشرين عاما ـ على التضحية بمستقبله **ليقف حياته على تربيته ، وها هو الآن يجنى ثمرة سعدته** ويدوس أمله المنشود بقدم غليظة ! . واستولى عليه الغضب وتقيحت نفسه بالسخط والحنق ، وثار بركانه فى عنف ودوى . ولكن الكراهية لم تجد سبيلا الى نفسه ، لم يكره أخاه لحظة واحدة ـ حتى وهو فريسة الثورة فى عنفوانها ـ

بيد أن حبه له أصيب بنوبة وقتية أفقدته وعيه ، فأغمى عليه ولكنه لم يمت ، بل لم يشعر نحوها – وهى الخليقة بالاتهام بكراهية أو مقت ، وان بدا سخطه كأن لا نهاية له . ثم خمدت ثورته بسرعة عجيبة تدعو للدهشة حقا ، فولت أحاسيس الغضب والسخط والعجرفة ، مخلفة وراءها حزنا عميقا لا يتزحزح ويأسا خانقا لا يريم وخيبة متغلغلة لا تؤذن برحيل ، وحين عاودته ذكريات الأمس السعيدة – لم يتحسر عليها ولم يأسف – ولكنه شعر بهوان وخجل !. وأنشأ يقول بصوت خافت حزين وكأنه يحدث غير نفسه « برح الخفاء ، ولا مفر من الحقيقة ، أنت رجل سيء الحظ ، بل هذا قول دون الواقع بكثير ، فالحق ان الدهر نصبك هدفا لسهام الخيبة والاخفاق ، ووكل بك قوة شيطانية فظيعة تلقف من سبيلك كل فرصة سانحة أو مصادفة سعيدة اذ أنت تحسب أنه لم يعد بينك وبين الرجاء الا كلمة تقال أو راحة تبسط ، وما تكاد تمد حجرك لتلقى ثمرة دانية حتى ينقض عليها طائر الشؤم الكاسر فيلتقطها بمنقاره ويطير بها ، وتوشك أن تصعد قمة هرم من المحاولات فيندك عاليه سافله ويلقى بك الى غور سحيق . آفاقك تلتمع ببروق الآمال الكاذبة وموضعك من الارض مظلم عابس . هل يوجد فى الدنيا انسان مبتلى بمثل عناد حظك العاثر ! ! .. الناس يحثون الخطى باسمى الثغور ما بين ممتع بصحته وهانىء بأسرته وراض بمكانته وسعيد بماله ، فأين أنت من هؤلاء جميعا ؟! .. لا صحة ولا أسرة ولا مكانة ولا مال ! . فى البدء قصم ظهرك عثار أبيك ، وبدد أمالك حدبك على شقيقك ثم أعقم مواهبك العقلية بيئتك الجاهلة !. ماذا يتبقى لك من أحلام دنياك ؟ ذهب الشباب فلم ينجب حتى ذكرى جميلة تتفيأ ظلها فى هجيرة العمر ، وهاهى الكهولة تطعن بك فيما وراء مشارف الشيخوخة ، فكيف تحتمل هذه الحياة العقيمة ؟ ان الرجل ليطلق الزوجة الوفية اذا عقمت ، ففيم احتمالك دنيا – لم تعقم فحسب – ولكن تورثك الألم والضنى ؟! .. لماذا وجدت فى هذه الدنيا ؟ أما

من نهاية لهـــذا الألم الممض وذاك الملل المسقم ؟.. ثم ماذا أجدى عليك هـذا العقل ؟ وماذا أفدت من المعرفة ؟ حلفتك بهذه الآلام جميعا الا ما أغلقت الكتاب الى الأبد وحرقت هذه المكتبة العاتية ، ولخير لك ان تدمن مخدرا يذهل العقل عن الوجود حتى يتداركك الذهول الاكبر . الحياة مأساة والدنيا مسرح ممـل ، ومن عجب أن الرواية مفجعة ولـكن الممثلين مهرجون ، ومن عجب أن المغزى محزن ـ لا لأنه محزن فى ذاته ـ ولكن لأنه أريد به الجد كل الجد فأحـدث الهزل كل الهزل ، ولما كنا لا نستطيع فى الغالب أن نضحك من اخفاق آمالنا فاننا نبكى عليها فتخدعنا الدموع عن الحقيقة ، ونتوهم أن الرواية مأساة والحقيقة أنها مهزلة كبرى ! » وصمت قليلا متفكرا ، متجهم الوجه ، منقبض الصدر ، ثم نهض قائما فى وثبة عنيفة وقال بشىء من الحـدة « الى الكهف المظلم ، كهف الوحدة والوحشة . الى القبر البارد ، قبر اليأس والقنوط . لقد ركلتنى الدنيا وهى الدنية ولأركلنها وأنا المتعـالى . ان الحصى أزهد حيوان فى المرأة فاذا استأصلت من نفسى كواذب الآمال سدت باليأس الدنيا جميعـــا . فالى كهف الوحشة تتزود من ظلمتـــه غشاوة تحجب عن أعيننا خـــدع الحياة ! »

والتفت بعنف نحو النافذة ـ نافذة نوال ـ التى أعنفهـا منذ حين وقال بغضب :

ـ غلقا الى الأبد .. غلقا الى الأبد !

٢٥

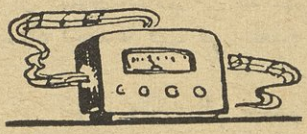

ورأى أن يذهب ـ كعادته صباح الجمعه ـ الى الزهرة ، ووجد من حزنه حافزا يدعوه للذهاب الى هناك ابتغاء الوسيلة الى التسلى عن حظه . وأخذ يرتدى بذلته الجديدة وقد ذكر كيف فصلها ولماذا تكلف ثمنها فنفخ من الغيظ والحنق . وغادر الشقة . ولدى نزوله فى السلم تذكر الصباح الاول له فى العمارة وكيف التفت وراءه فرأى عينى نوال لاول مرة ، فكيف يمكن اتقاء الشقاء المقدر ما دام يبدو فى حلل آمال مشرقة وألوان ناضرة ؟ . على أنه لم يغب عنه أن ما يعانيه من أحاسيس الألم والاضطهاد والظلم لا يخلو من لذة ، لذة دفينة غامضة لا تكاد تفصح عن ذاتها . وسار فى الطريق بقدمين متثاقلتين متفكرا فيما يجلبه اعراض بنت قاصر عن كهل عاقل حكيم من الحزن واليأس فهاله الأمر وكبر عليه ، وجعل يقول لنفسه كالساخر « واخزياه ، كيف أمكن هذا ؟!.. بنت مقمطة تفعل بى كل هذا ؟! .. كيف سمت بى الى نضرة النعيم ثم ردتنى أسفل الجحيم ! . وما جدوى الحكمة اذا عبثت بها جراثيم الشهوة هذا العبث المزرى ؟! ألم يكن من الأفضل ـ غفرانك اللهم ـ أن نخلق خيرا من هذا ! . واذا كانت الدنيا جميعا تمسى ظلاما ويبابا لمحض أن جرثومة ـ تنقض الوضوء ـ استاءت أو أخفق لها أمل أفليس من الحكمة أن نبول على الدنيا وما فيها ؟! » . ثم انقطع عن حديث نفسه لدى وصوله الى القهوة ، ووجد الصحاب جميعا قد سبقوه الى هناك ـ الا سليمان بك عته الذى لم يعد من بلدته ـ ووجد معهم المعلم

نونو وكان من عادته أن يغلق دكانه يوم الجمعة من الساعة العاشرة الى ما بعد صلاة الجمعة . أما عباس شفة فأخذ مجلسه المعهود جنب المعلم زفته غير بعيدين عن حلقة الصحاب وكان الراديو يذيع بعض الاسطوانات بينا أخذ الرجال فى الحديث . وأراد كمال خليل أن يشرك القادم فى حديثهم فقال له متسائلا:

ـ وما رأى الاستاذ احمدعاكف فى الغناء أيفضل القديم أم الحديث ؟!

ويل الشجى من الخلى ! ولكن ألم يجئهم ملتمسا العزاء فى لغوهم ؟! بلى . واذا فليدل بدلوه وليكونن من الشاكرين . وكان مغرما بالغناء ـ وهل تلد أمه ألا مغرما بالغناء ؟ ـ الا أنه يفضل القديم وما يتبع طريقته من الحديث بحكم العادة وبوحى النشأة الاولى . فقد سمع أول ماسمع أغنيات القيان أسطوانات منيرة وعبدالحى و المنيلاوى ، فاختلس نظرة من خصمه أحمد راشد المخبأةمعارفه وراء نظارته السوداء ، ثم قال:

ـ الغناء القديم هو الطرب الذى يأسر نفوسنا بغير عناء !

فصاح المعلم زفتة بسرور « الله أكبر » وصفق المعلم نونو ثلاثا ، أما سيد عارف فتساءل :

ـ وأم كلثوم وعبد الوهاب ؟

فقال أحمد عاكف وقد اختلس من خصمه نظرة أخرى :

ـ عظيمان فيما يرددان من وحى القديم تافهان فيما عداه !

فقال سيد عارف :

ـ أم كلثوم عظيمة ولو نادت ريان يا فجل !

ـ فقال احمد عاكف :

ـ أما صوتها فلا خلاف عليه ولكن حديثنا عن الغناء من الناحية الفنية !

فقال كمال خليل :

ـ الأستاذ أحمد راشد يعجب بالغناء الحديث بل وشاد بالموسيقى الافرنجية !

والظاهر أن الشاب المحامى كان راغبا عن الجدل فقال بغير اكتراث :

ـ رأيى فى الغناء رأى غير خبير ، والحق أنى قليل الاهتمام

بالغناء !

وأبى المعلم نونو الا أن يناقش رأيه فقال بصوته العريض الأجش :

ـ يا أخواننا أمة محمد لا تزال بخير ، هل سمعتم ولو مرة انجليزيا ـ وهم بين ظهرانينا منذ أكثر من نصف قرن ـ يغنى ياليل ياعين ؟! .. والحقيقة أن من يفضل أغنية أفرنجية كمن يشتهى لحم الخنزير مثلا ؟!

وكان المعلم زفتة قليل الكلام لانشغاله فى الغالب بعمله ولكن الموضوع استفز اهتمامه فقال بصوت دلت مخارجه على أن صاحبه قد فقد ثنيتيه على الاقل :

ـ اسمعوا القول الفصل . أجمل ما تسمع الأذن سى عبده اذا غنى يا ليل . وعلى محمود اذا أذن الفجر وأم كلثوم فى امتى الهوى وما عدا هؤلاء فحشيش مغشوش بتراب !

وأشفق احمد عاكف من أن يتغير موضوع الحديث من غير أن يتفلسف فقال :

ـ ان الاعجاب بالحديث من الغناء أو الموسيقى الافرنجية وحى من تقليد المحكومين للحاكمين كما يقول ابن خلدون !

ولم يخرج احمد راشد عن صمته ، ولم يستثيره هجوم أحمد عاكف فوقف الحديث عن الغناء عند ذاك الحد . ثم تحول مجراه الى سليمان بك عته بغير رابطة تداع بعد أن لاحظ كمال خليل أن الرجل تأخر بالجلد أكثر من المعتاد ،فقال سيد عارف متضاحكا :

ـ أراحنا الله أسبوعين من وقاحة خلقه .

فقال عباس شفة بانكار :

ـ عما قريب يصير عروسا يا هوه !

فاستدرك سيد عارف قائلا بأسف :

ـ أما العروس كريمة يوسف بهلة فوالله ما رأت عينى أجمل منها قط !

فتساءل أحمد عاكف :

ـ أما يدرك صاحبكم أنه لولا الطمع فى ماله ما رضى به

أحد زوجا !

فقال عباس شفة :

ـ بغير شك . فلا شباب ولا جمال ولا أخلاق !

وامتعض احمد من هذا الوصف ، وشعر بانه ينطبق عليه من أكثر من وجه . لا شباب ولا جمال ولا أخلاق ، وأضاف اليها من عنده « ولا مال ! » . ثم أطرق هنيهة غارقا فى الكآبة التى كان انتشله منها لغو الحديث . وخاف أن يستأثر به الحزن فخاض فى الحديث مرة أخرى متسائلا :

ـ وما الداعى الى العجب فى ذلك ؟ أليس المال كالشباب

وهنا التفت احمد راشد نحوه وقال بلهجة ساخرة قل أن يصطنعها فى حديثه :

ـ وما الداعى الى العجب فى ذلك ؟ أليس المال كالشباب والجمال من المزايا التى تحبب الرجل الى المرأة ؟ . بل لعل المال أبقى على الدهر من الآخرين !

وسرعان ما أقلع الشاب عن السخرية وقال بلهجته الجدية:

ـ ان شيخا فى سن عتة بك لا يطمع فى الحب الذى يستأثر به الشباب . لكنه اذا ضم اليه عروسا نفيسة أرضى بها غريزة الحب المضمحلة ، وغريزة الملكية المسيطرة .

فقال عباس شفة :

ـ الشباب ينقل بالعدوى ، فالشيخ خليق بأن يكتسب من عروسه روحا من نضارة الشباب ، فلا يبعد والحال كذلك أن يتحول البيك فى القريب العاجل من قرد الى حمار مثلا .

فتساءل المعلم زفتة :

ـ هل نفهم من هذا أن أصلك قرد !

ولم يوافق المعلم نونو على التهكم بالشيخوخة بطبيعة الحال فقال :

ـ العبرة فى السن بالصحة لا بالسنين ، فأبى تزوج فى الستين وخلف . وهاكم سيد عارف افندى على سبيل المثال (وضحك ضحكته المجلجلة) فماذا صنع له شعابه ؟!

وضحك الجميع ـ وعاكف معهم ـ مما جعل سيد عارف

ـ لاتضحك يامعلم نونو فعما قريب يتغير الحال ، وقد علمت بأقراص جديدة تجرب ، وسترى !

ولم يستطع أحمد عاكف أن يوليهم انتباهه أكثر من ذلك، فكان كالسابح الذى تخور قواه وتهى مقاومته فيغوص تحت سطح الماء . فلم يدر كيف انتقل بهم الحديث الى أخبار الحرب ، ولا كيف راح سيد عارف يعدد انتصارات الألمان فى روسيا ، ويذكر بالفخار سقوط فيازما وبريانسك وأوربل وأوديسا وخركوف ، واقتحام شبه جزيرة القرم . ثم نهض المعلم نونو للذهاب الى المسجد لصلاة الجمعة ، فاستأذن الكهل وانصرف معه راجعا الى البيت . ووقف فى الصالة هنيهة متسائلا ترى أما يزال رشدى ملازما حجرته ؟ . وسار فى الدهليز متمهلا حتى دنا من باب الحجرة فشم رائحة التدخين النافذة من خصاصة الباب ، ثم قفل راجعا الى حجرته . لأول مرة يمضى رشدى يوم عطلة فى البيت ! بل الأوفق أن يقول يوم عطلتهما ، والمرجح أنه لم يفارق حجرته وأنها لم تزايل النافذة ، والله يعلم كم تحيات تبودلت ، وكم من بسمات ومضت ، وكم من آمال أشرقت .وخلع ملابسه وارتدى الجلباب والطاقية ، وجلس على الشلتة القريبة من المكتبة . كان مترعا بالكآبة ، ولكن خلا قلبه من الغيرة ـ أو الغيرة السافرة على الأقل ـ وقال لنفسه ان مايحدث فى الناحية الأخرى من الشقة لهو أطفال غير حقيق باهتمامه ، أهذا شعور وقتى ؟ لا يدرى ، ولكن خيل اليه انه شفى . وتساءل كيف حدث هذا بمثل هذه السرعة ؟ أكانت عاطفته سطحية توهم أنها الحب ؟ . واستراح الى شعوره ، ومد يده الى المكتبة واستخرج كتاب مقاصد الفلاسفة للامام الغزالى ، فهذا أحق بتفكيره ، وهو من الكنوز التى لا يدرى أحمد راشد عنها شيئا ، وفتح الكتاب عن فصل الآلهيات ، وحاول مطالعة مقدمة تقسيم العلوم . ولكنه أدرك بعد برهة قصيرة أنه يبذل من الجهد فى تركيز انتباهه ما لا يدع له بعد ذلك لذة فى متابعة القراءة ،

فأغلق الكتاب وأعاده الى مكانه . وقال انه لا بأس من أن يعفى عقله اليوم مكافأة له على الجهد ـ أيا ما كان هذا الجهد ـ الذى بذله فى سبيل النسيان . كانت عاطفة تافهة . بل كيف كان يمكن أن تسعده تلك الفتاة وهو على ماهو من عقل ومعرفة ، وهى على ماهى عليه من بساطة وسذاجة ؟! حقا أنقذه شقيقه من ورطة كادت تودى به . ومنذ الآن ينبغى أن يفتح عينيه ، وأن يقلع بصفة نهائية عن التفكير فى الزواج ، وهيهات أن يجد امرأة كفاء له ! . بيد أن الخيانة ذميمة شوهاء ، ألم تغازله ؟ ألم ترض به حبيبا ؟ فكيف تغيرت بمثل هذه السرعة التى لا تصدق ؟ ! . حقا مايهمه أن يعرف شيئا ولا يعبأ شيئا ولكن هل خلق الله أقبح منظرا من فتاة ذات وجهين ؟! شفى والله ونسى ، ولكن ما أتفه الدنيا اذا كانت القلوب تتقلب فى غمضة عين !! . وقطع عليه أفكاره المحمومة صوت دوى يصيح : « ملعون أبو الدنيا » ، فأدرك أن المعلم قد عاد من صلاة الجمعة الى دكانه ، ونهض مسرورا بالتخلص من أفكاره الى النافذة المطلة على الحى الجديد ففتحها ، ووقف وراءها يسرح الطرف فى مناظر الحى التى ألفها وملها . ليتهم ما غادروا السكاكينى ! بل وجد نفسه يتمنى فى أعماقه لو ان أخاه لم ينقل من أسيوط !. فلو لم يحضر لما عكر صفوه معكر . وما لبث أن تألم لتمنيه هذا غاية الالم . انه يحبه ما فى ذلك من شك . ولا يمكن ان يفتر حبه لأخيه وابنه وربيبه . ولكن الغريب المنكر أنه يحبه ويكره وجوده معا !. لو لم ينقل الى القاهرة لكان ـ أحمد ـ الآن فى عداد الخاطبين . وما يدرى الا ونفسه تسكب تحنانا للحياة الزوجية غافلة عن هواجسها السالفة ! فبدا له أن العدد اثنين هو العدد المقدس . ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ولكنه الاثنان ! الانسان يفقد نفسه فى الجماعة ، ويغرق فى الكآبة فى الوحدة ، ولكنه يجدها عند أليفه . فالتكاشف الصريح ، والحب العميق ، والألفة الممتزجة وفرحة القلب بالقلب والطمأنينة اللانهائية لذات عميقة لا تحدث الا بين اثنين ،

وكم مل الكآبة ، وضجر من الوحشة ، وكره الفراغ . وهذه التزام مكتظا فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطا ، وكان أين ثغر يبسم له مشرقا بالعطف ؟ أين قلب يرّجع خفقان قلبه خفقة خفقة ؟ أين صدر يرضع منه قطرات الطمأنينة ويعهد اليه بطويته ؟ وبلغ منه القهر منتهاه فتراجع الى الفراش محسورا وهو يحرك رأسه بعنف ، كأنما ليصدعنه أحاسيس الحزن والخور ، وليسترد حقده وصرامته وغضبه وايمانه الوحشى بالوحدة والعجرفة والتعالى عن العواطف البشرية . فقد تبرد الغيرة ، وتخمد العاطفة ، أما مايمس كبرياءه فيحدث حتما قرحة لا تندمل ، وكيف تندمل ، وكلما التأمت قشرها غروره الأعمى ؟! ولذلك جعل يقول قارضا أسنانه « ينبغى أن تدرك ـ الفتاة ـ أننى تنازلت عنها بغير مبالاة البتة ! »

٢٦

واستيقظ غداة السبت متعبا بعد ليلة مسهدة ، فهو يؤدى ثمن اليقظة التى فرح بها قلبه ، وان كانت يقظة قصيرة • وأيا ما كان فما دام النسيان يكمن وراء الاحزان فالعزاء مرجى • أين اليهودية الحسناء وحبها المثالى ؟! فالزمان يسحب ذيول النسيان على الماضى ويبلع الذكريات ولكن لا ريب أنه مما تطيب به نفسه ألا يعبأ شيئا ، أو أن يتظاهر بذلك على الاقل وأن يريها انه لم يكد يشعر بأن فتاة هجرته • ومضى الى الحمام فوجد باب حجرة شقيقه مواربا ، ولمحه يستكمل ارتداء ملابسه ـ وقد عجب لذلك لان الشاب كان يستيقظ عادة متأخرا عنه ـ بل رآه رافعا رأسه الى النافذة الأخرى ، فتقبض قلبه كأنما أصابته شكة ابرة • وأسلم رأسه للماء البارد طويلا لينعش أعصابه المحطمة ، ثم عاد الى حجرته وارتدى بذلته ، وخرج الى السفرة ليحسو قهوته ويدخن سيجارته ويتناول لقمته البسيطة • وكان وطن النفس على لقاء الشاب بما يعهده منه من الأنس به مستعينا بما طبع عليه من مداراة ما يعتلج بنفسه • وأقبل رشدى مرتديا البذلة والطربوش وابتسم اليه ابتسامته المحبوبة فقال :

ـ صباح الخير

ـ صباح النور

وعجب أحمد من لبسه الطربوش اذ كان يفطر عادة عارى الرأس فسأله :

ـ لماذا عجلت بلبس الطربوش ؟
فقال رشدى والابتسامة لا تفارق شفتيه :
ـ سأتناول فطورى فى الخارج لأن لدى أعمالا مستعجلة
ـ وما الذى دعا الى هذه العجلة ؟
ـ انجاز بعض الاعمال المتعلقة بوظيفتى !
وحياه الشاب ـ كما حيا والدته التى كانت تعد الطعام ـ ومضى بقوامه الرشيق وابتسامته المشرقة . ولم يصدق احمد أسطورة « بعض الاعمال » فارتاب فيها لاول وهلة . وبدا له كاليقين أن رشدى بكر فى الاستيقاظ على غير عادته وعجل بالخروج من البيت ليلتقى بنوال فى مكان ما من طريق المدرسة. هذا ماحدسه قلبه المحزون ، فهل اتفقا على ذلك حقا ؟.. وذكر ممتعضا كيف لبث مرتبكا جامدا ـ مدة علاقته بها ـ لا يدرى ماذا يفعل ، أما هذا الشاب الجسور فليس فى مذهبه بين التحية واللقاء سوى غمضة عين . وأعجب بجسارته حقا كما أعجب به يخطر أمام عينيه بشبابه الريان وقده الممشوق منذ دقيقتين . الا أنه اعجاب انطوى على احتقار النفس والتمرد فلم يخل من حنق وغضب ، فكان كمن يسبح بخلود الخالق وهو يرثى فناء المخلوق . وبعد قليل لبس طربوشه وغادر الشقة. ومال الى قطع شارع الازهر مشيا على الأقدام تخفيفا عن أعصابه المتوترة ، فالتزم الطوار الأيسر وحث خطاه : وقال لنفسه بصوت كالهمس ليوحى اليها بالحكمة « دع بواعث هذا الحزن العميق لاتستحضرها الى وعيك ، اقذف بها الى هاوية النسيان ، واذا كانت القراءة لم ترشدك الى الحكمة بعد فخذها من شخص سعيد كالمعلم نونو ! » . وتمثل نونو لعينيه بصحته ومرحه فتأوه من الاعماق : لماذا يحمل نفسه ما لا طاقة لها به من الكآبة كأنه الثور الذى يقولون انه يحمل الكرة على قرنه ؟! كيف جهل فن السعادة هذا الجهل المزرى ؟ ولماذا لايقصد الى الضاحكين ويسترشد بهم الى طريق الضحك والسرور ؟ ينبغى أن يفوز فؤاده الكسير لحظة من السعادة لانه من العبث أن تمضى الحياة هكذا فى كآبة وحزن . وردد هذه

الخواطر حتى بلغ ميدان الملكة فريدة واستقل الترام . وكان الترام مكتظا فاضطر أن يقف بين الواقفين مضغوطا . وكان يمقت الزحمة بطبعه فثارت نفسه بعد هدوء قليل . وخطر له خاطر غريب مخيف . فتمنى لو كان من الممكن أن تخلو الدنيا من بنى آدم ! ولم يدر ان كانت وقفته هى التى أوحت اليه بذاك الخاطر المخيف أم أن هنالك بواعث أخرى . فقد تمنى من قبل أو تخيل أنه يتنمى لو تقفر القاهرة أثر غارة ! فخجل من خواطره الجهنمية التى تحلم أحيانا بالتدمير المخيف لغاية تافهة كأن يستأثر بفتاة دون شريك ولا منافس !. على أنه عاد يقول لنفسه متأففا ! أليس الغدر ذميما كالدمار !

٢٧

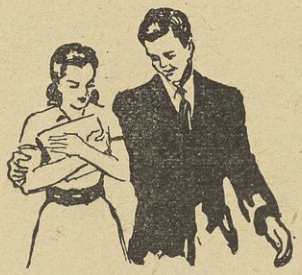

خرج رشدى عاطف مبكرا على غير عادته ، ودون أن يتنازل فطوره ، يدفعه ماهو خليق بتغيير العادات وتأخير الفطور ، ولما انتهى الى السكة الجديدة رأى الفتاة على بعد قريب صاعدة طريق الدراسة الى الطريق الصحراوى المؤدى الى العباسية ، فتباطأ قليلا حتى اتسعت المسافة بينهما ثم تبعها عن بعد . وكانت على علم سابق باتباعه لها ـ كما انذرها به بالاشارة فى النافذة ـ وكانت أيضا على رضى بذلك أخفى أكثر الدلال والحياء ، وفضح أقله ـ وكان به الكفاية ـ الابتسام أو مغالبة الابتسام ، وكان الزمن المتاح لرشدى قصيرا حقا ، ولكن زمنه من ذهب وماس ، فلم يكف منذ مقابلة السطح ـ بل منذ رآها أول مرة ـ عن رصدها وموالاتها بالمطاردة والغزل حاشدا لتصيدها هباته جميعا من أفانين الشباب والحسن والدعابة والصبر ، حتى ظنته قطعة من النافذة . ولم يشك الفتى فى ظفره من بادىء الأمر ، ولا شكت هى فيه ! ، أو فما معنى مجيئها الى النافذة كأنهما على موعد ، واستسلامها لنظراته ، وتصديها لبسماته واشاراته ! فان كان هناك ظل من الشك فقد مسحته ابتسامتها الأخيرة وقضى الامر ! . على أنها لم تستسلم بغير تردد . بل كانت خائفة مما تنزع بها النفس

اليه . وكانت تلوح لها صـــورة الآخر ـ أحمد ـ فيتولاها الخجل ويساورها القلق . الا أنها رأت عيوبه واضحة عـــلى ضوء الوجه الجديد المشرق ، فتساءلت لمـاذا يلوح الخوف فى عينيه دائما ! ، لماذا يبدو كالفأر ما أن يسمع حسا حتى يفر الى جحره ! ، الام يظل جامدا لايتحرك ولا يفعـل شيئا ! . وانها لعلى مثل حيائه فتحتاج بطبيعة الحال الى جســور يقتحم حياءها ، فلم تجد فيه طلبتها أو انها أدركت ذلك حين وجدت طلبتها الحقيقية . هذا الى بون شاسع بين شباب نضير وكهولة ذابلة ، وجمال صبيح وخلقة قلقة غامضة ، ومرح باسم وكآبة موحشة . والحق أنها مالت الى أحمد لانه كان الرجل الموجود أما رشدى فحرك قلبها المشبوب وأهاج عاطفتهـــا . هكذا جازت صبره بابتسامة . وهكذا كتبت بهـذه الابتسامة أول كلمة فى القصة الجديدة .

صعدا طريق الدراسة ، وانعطفا الى الطريق الصـــحراوى ـ هى سابقة وهو لاحق ـ كان الصـــباح نديا طيبا مائلا الى البرودة ، يعابثه نسيم رقيق يهب بأنفاس نوفمبر التى تنعى الازاهر الى المحبين ، أما السماء فسمتها محمل سحابا ناصعا، يتصل حينا ، ثم يتفرق فى المشرق فيحدث بحيرات ثلجيـة تنضح شطئانها بالشعاع الصاعد من الأفق فتتوهج أهدابها وتخطف الأبصار . منظر تطمئن النفوس اليه . الا نفسين تفانتا معا !. وقد أوسع خطاه بعد المنحنى فأدركها ، وشعرت الفتاة بوقع خطاه تقترب منها فلم تعطف رأسها اليه ، ولكن أثر اقترابه بلغ خديها فتوردتا ، وعينيها الكبيرتين الصافيتين فابتسمتا وهى لا تدرى . ثم حاذاها حتى أوشك أن يلامسها، وقال برقة :

ـ صباح الخير ..

فمال رأسها اليه قليلا ولحظته بطرف متردد وقالت بصوت خافت :

ـ صباح الخير ..

وكانت متأبطة حقيبتها كعادتها فقال مبتسما :

ـ أتأذنين لى ان أحمل عنك هذه الحقيبة ؟
فابتسمت بدورها وقالت :
ـ كلا ، لا داعى لذلك ، فهى خفيفة على كبرها . ولا ضير من حملها البتة
ـ لابد أن تثقل على يدين رقيقتين كيديك !
ـ بل يداى تثقلان عليها . لاتعودنى الترف من فضلك !
فضحك بسرور صادق وقال :
ـ أليس مما يخجل حقا أن أسير طليق اليدين وأنت تحملين هذه الحقيبة الكبيرة !
وأخذ الارتباك يزايلها ويحل محله الأنس به . فسألته معترضة :
ـ ولماذا تخجل ؟ انى أحملها كل يوم بكرة وعشيا
ـ الظاهر أنك تخافين ان أخطفها
ـ ليتك تقدر على هذا حقا ، فانها تحوى واجبات ثقيلة أخفها الحساب !
فضحك مرة أخرى وقال :
ـ لعن الله علما يثقل عليك !
فابتسمت متشجعة وقالت :
ـ أتلعن العلم اكراما لى حقا . أم لعدوة قديمة ؟!
ـ بل اكراما لك وان لم يخل الحال من عداوات قديمة . ترى ما أحب العلوم اليك ؟
ـ التاريخ واللغات !
ـ وكان على عكسها يحب العلوم والرياضة ولكنه أبدى سرورا طافحا وصاح بعزم :
ـ اتفقنا والحمد لله !
فعجبت لسروره وسألته :
ـ وما عبرة السرور لذلك ؟!
فقال بلباقته المعهودة :
ـ كيف غاب عنك هذا ياعزيزة ؟! . ألم يكن ذلك الاتفاق فى الميول العقلية أصلا وبشيرا باتفاقنا « الروحى » الذى

تلتقى عنده الآن !

فتورد وجهها وطرفت عيناها ـ وهى عادتها اذا تولاها الحياء ـ ولم تنبس بكلمة . فسألها باغراء :

ـ ألا توافقيننى على رأيى ؟

فلازمت الصمت ، أو لازمها الصمت على الأرجح . وعاد يقول برفق :

ـ هل أجد فى صمتك جوابى المرجى ؟

ولحظها ، فخالها تبتسم ، فخامره الحماس وقال بصوت خافت :

ـ عرفت ذلك من أول نظرة !

فلم تتمالك ان قالت وفى عينيها ابتسامة صريحة :

ـ أول نظرة !

ـ أجل

ـ شىء لا يصدق !

ـ ألا تؤمنين بالنظرة الاولى ؟

ـ ألا تغالى ؟ .. أحقا مايقال عن النظرة الاولى ؟

فقال بحماسة تألقت لها عيناه العسليتان الجميلتان :

ـ هو الحق الذى لا مراء فيه !

فقالت وقد غيرت لهجتها :

ـ نحن لم نتعارف بعد !

فأدرك أنها تحاول الافلات من الطوق الذهبى الذى طوق جيدها به ، ولكنه لم يمكنها من مأربها وقال :

ـ لا تغيبى عن الحديث ، سنتعارف حتما بعد حين ، أو سنتم تعارفنا فلم يبق منه الا اسمى . ولكنى أريد ان أقول انه اذا لم يكن حب (وتعمد أن يذكر هذا اللفظ كأنما جاء عفوا) من أول نظرة فلا حب على الاطلاق !

وتعوذت بالصمت مرة أخرى وهو يلحظها مبتسما . ثم استدرك :

ـ لا أعنى أن الحب يحدث حتما من أول نظرة ، ولكن النظرة الاولى تكفى لاكتشاف من تربطهم بنا صلة روحية

عسية أن تصير الحب نفسه أليسى يقولون ان الارواح تتخاطب بغير احساس الية ؟! فنظرة واحدة تبلغ بالروح فوق ماتريد. أما الحب الذى تلده الأيام وتنبهه المعاشرة فمرجعه على الغالب العادة أو المنفعة ، أو غيرهما من القيم التى لا تدرك الا بالروية والامهال . فماذا ترين ؟

فترددت هنيهة ثم سألته كالمتحيرة :

ـ أتقول انه لا يوجد .. (ولم تنطق بكلمة الحب) الا من أول نظرة !؟

فأدرك انه ثرثر أكثر مما ينبغى ، وخاف مغبة تفسير كلامه فقال باهتمام :

ـ كلا ليس هذا ما أعنيه . وانما أعنى أن النظرة الاولى خليقة بالدلالة على الغاية التى عسى ان تهدف اليها العاطفة .

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :

ـ فلسفتك عسيرة ، فلا هى من التاريخ ولا هى من اللغات !

واستغرق الشاب ضاحكا بسرور أخذ بمجامع قلبه ، وود فى تلك اللحظة لو يستطيع تقبيل الفم الصغير الذى تسيل جوانبه بهذه الحلاوة المشتهاة . وقال :

ـ بل هى أسهل من التاريخ أو اللغات لأنها فلسفة الفطرة الصادقة . وأصدق دليل على ما أقول أننا التقينا بوحيها ولن نفترق الى الأبد ان شاء الله

وكانا قد بلغا عند ذاك منتصف الطريق ، فلاحت على يسارهما طلائع مدينة القبور خاشعة تحت كآبتها الأبدية ، ينبعث من بين قوائمها هدوء شامل عميق ، وصمت مخيم ثقيل . فرمقتها بعينيها النجلاوين . ثم قالت لتدارى الخجل الذى سعره حديثه المطرب :

ـ قضى على أن أستصبح كل يوم برؤية هذه القبور ، فياله من منظر لايسر !

وتساءل الشاب عما يضطرها الى قطع هذا الطريق الطويل مشيا على الاقدام فى الذهاب الى العباسية وفى الاياب

منها ، ولمـــاذا لا تستقل الترام عن طريق الخليج ، ثم ابتدم الحقيقة فأدرك أنها ترضى بهذا التعب ـ أو رضى لها به أبوها ـ توفيرا لنفقاتها ، فكمال خليل أفندى يعتبر من صغار الموظفين، وممن يكافحون بعزيمة صادقة ـ فى ظروف دقيقة ـ للنهوض بأسرهم • وذكر أن أسرته اجتازت يوما مثل هذه الشدة وعلى رأسها شقيقه المحبوب يذود عنها البأســـاء بصبر وجلد • فتندى قلبه عطفا ومحبة وتقديرا • ثم قال لها مبتسما :

= لن تريها بعد اليوم !

فرمقته بنظرة انكار وتساءلت :

ـ كيف ! هل أسير معصوبة العينين ؟

ـ بل سيشغلنا الحديث عن النظر اليها !

فضحكت ضحكة رقيقة وقد أدركت مايعنيه • وقالت :

ـ ولكنه سفر شاق لن تحتمله طويلا ، خصوصا والشتاء قريب !

ـ سنرى !

وأوغلا فى السير فلم يعودا يريان الا صحراء على اليمين وقبورا على الشمال ومرا بطريق يشق القبور ويمتـد غربا ، فأشار رشدى الى مقبرة خشبية ذات فناء صغير ، تقع عـــلى جانب الطريق الأيمن ثالثة المقابر وقال :

ـ مقبرتنا !

فنظرت الفتـــاة الى حيث يشير فرأت المقبرة الصـغيرة وقالت باسمة :

ـ فلنقرأ اذا الفاتحة •

فقرءا الفاتحة معا • ثم قال رشدى :

ـ هنا يرقد الأجـــداد ، وآخرهم جداى لوالدى ، وأخى الصغير •

ـ ومتى توفى أخوك هذا ؟

ـ من زمن بعيد ونحن بعد أطفال

وطرحا القبور وحديثها وراء ظهريهما ، واستعادا الصفاء والسرور ، دون التفات الى وجه التناقض الســـاخر ما بين

حديث الحب وحديث القبر ، ولا كدرا صفوهما بأن يتساءلا مثلا عما يتبقى لهما من عمر يقضيانه فى الدنيا ، أو عما ينتظر حياتهما من أحداث قبل أن يرقدا فى تلك المقبرة أو فى أخت لها . لم يلتفتا لشىء من هذا ولكنها قالت مستوصية بشىء من الشجاعة :

ـ ولكننا لم نتعارف بعد !

ـ ألسنا جيرانا ؟!

ـ بلى ولكنى لا أعرف اسمك

ـ سامحك الله . اسمى رشدى . رشدى عاكف !

ـ كيف يسيئك هذا وأنت تجهل اسمى أيضا !

ـ معاذ الله !

ـ أعرفته من أول نظرة أيضا ؟

فضحك رشدى بسرور ، وحنى رأسا أن نعم ، فسألته :

ـ فما اسمى ؟

ـ احسان !

فضحكت بصوت مسموع وقالت : بانكار :

ـ أهكذا تختلق الأسماء !

ـ بل هو اسمك !

ـ أخطأت يا سيدى ولعلك رمت غيرى فارجع بسلام !

ـ ولكنى سمعت والدتى تتحدث عن والدتك مرة فتدعوها « ست أم احسان » .

ـ فحسبت أن احسان هى أنا !

ـ نعم ...

فضحكت مرة أخرى حتى تورد وجهها الاسمر وقالت :

ـ هذا اسم أختى الكبرى ، وقد تزوجت منذ عامين !

فابتسم رشدى كالخجل وقال :

ـ لا تؤاخذينى ، فما اسمك اذا ؟

ـ نوال ..

ـ عاشت الاسماء !

فترددت لحظة ثم رمقته بنظرة ماكرة وتساءلت :

ـ أأنت تلميذ ؟
ـ نعم بمدرسة العباسية للبنات ٠ !
ـ موظف اذا ؟
ـ ببنك مصر !
فابتسمت قائلة :
ـ أما أنا فموظفة بوزارة المعارف !
وضحكا معا ٠ ثم رأيا أنهما يشارفان العباسية ، فأدرك رشدى ان أول لقاء لحبه الجديد يؤذن بالانتهاء ، أما هى فقالت:
ـ حسبك هذا فينبغى أن نفترق ها هنا ٠
فتوقفا عن السير ، وأخذ راحتها فى يده ، وضغط عليها بحنو وهو يقول :
ـ مع السلامة والى اللقاء غدا صباحا ٠
فحيته باحناءة من رأسها وغمغمت :
ـ الى اللقاء ٠٠
وحثت الخطى ٠٠ ولبث هو بمكانه يتبعها مقلتيه فى سرور ونشوة محدثا نفسه « كانت فى البدء متعثرة بحيائها ، ثم أنست بى فصارت ألطف من نسمة عبقة طاهرة خفيفة والله ، وقاها الله شر الشياطين جميعا بما فيهم شيطانى أنا » ٠
وكان شأنه المعهود أن يغازل ثم يتعارف ثم يحب ٠ وقد عاد ذاك الصباح وهو ينصت فى صمت الطريق الى أول خفقة لقلبه ترجع مطلع لحن الهوى ٠ أما نوال فانحدرت فى طريق المدرسة وهى تقول لنفسها : « ما ألطفه ، ما أجمله ، ما أعذب حديثه ٠ فآه لو تصدق الاحلام ! » ٠

٣٨

ولاحظ أحمد عاكف ما طرأ على شقيقه الاصغر من تغير بعين متيقظة ‥ رآه بعد ظهر ذاك اليوم ـ يوم السبت ـ نشوان بالسرور ، فكأنما بات من سروره فى سكرة ذاهلة ٠ ورآه يغير عادته من النوم ما بين الظهر والمغرب ـ موعد انطلاقه الى السكاكينى ـ فيقيل ساعة واحدة ثم يستيقظ مثقل الجفنين فيمشط شعره ويتعطر ويتصدى للنافذة المحبوبة ! ‥ ولبث الكهل فى حجرته يطالع أو يحاول المطالعة ريثما يأزف موعد ذهابه الى القهوة ـ تلك العادة الجديدة على حياته ـ وقد ركز آماله جميعا فى النسيان المرتقب ، ينتظره صابرا كما ينتظر المريض اليائس النهاية ، وما برحت تتقاذف قلبه أحاسيس الحب والخيبة ، والانفة والغيرة ، وحجه رشدى ونفوره منه ٠ فتحير بينها لا يقر له قرار حتى أوشك أن ينفجر رأسه الصغير ٠ وبعد العصر بقليل اقتحم رشدى عليه وحدته ! ولم يكن فى ذاك غرابة فرفع اليه رأسه مبتسما باذلا جهده ألا يلوح فى وجهه وجوم أو سهوم ٠ فحياه الشاب بابتسامته الحلوة وقدم له سيجارة وقال بسرور وبلهجة المعتذر معا :

ـ لا تؤاخذنى على ازعاجك ولكنى أزف اليك خبرا سارا ٠

فخفق فؤاد أحمد وقال :

ـ خير ان شاء الله !

ـ أخبرنى صديق من الموظفين ان الحكومة تفكر فى انصاف الموظفين المنسيين ٠

فقال أحمد بارتياح لم يدر الآخر بواعثه الحقيقية :

ـ بشرك الله بالخير !

ان بقاء رجل مثلك عشرين عاما فى الدرجة الثامنة ظلم قبيح وسيئة ذميمة ..

فهز أحمد منكبيه بغير مبالاة وقال :

ـ أنت تعلم انى لا أعبأ بالدرجة ولا الوظيفة شيئا .

وتحادثا مليا . ثم انصرف رشدى كيلا يضيع وقت أخيه الثمين .. وتفكر الرجل بعد انصرافه فيما يساوره نحوه من نفور فامتعض ، وتألم فؤاده غاية الالم . وهل ينسى أنه أحبه مذ كان فى المهد ؟ وهل يجهل أن الشاب يحبه حبا لا يحبه والديه ؟!

وهرع الى الزهرة قبيل المغرب مرتاحا الى مغادرة البيت . وجالس الصحاب ساعتين ملقيا بنفسه فى تيار الحديث لائذا به من شجون نفسه وأفكاره . ثم رجع الى البيت . وكان رشدى ما يزال فى الخارج ـ طبعا ـ يسهر ليلته فى الكازينو ، فكأن فتاته استأثرت بالوقت القصير ـ من الظهر للمغرب ـ الذى كان يخلد فيه الى الراحة وجعلت من يومه وحدة متصلة من اليقظة والتعب . وألقى الرجل على النافذة ـ التى عاهد نفسه ألا تفتح أثناء وجوده بالبيت ـ نظرة غاضبة ، وتساءل وهو يخلع ملابسه ترى ألم تلاحظ تغيبه عن النافذة ؟ ألم يربها من الامر ما ينبغى أن يريبها ؟ لكم يود ان تعلم باحتقاره غدرها . فكبرياؤه ما يزال جريحا ينزف ، ونفسه مكتوية بنار حامية ..

ونام قبل موعده لعزوف نفسه عن القراءة .. ثم استيقظ على صفارة الانذار ، فنهض مسرعا وارتدى معطفه وغادر الحجرة فالتقى بوالديه فى الصالة . وكانت أمه قلقة لان رشدى لم يكن عاد من سهرته وجعلت تتساءل عن المكان المحتمل وجوده فيه وتدعو الله أن يقيه السوء . وفى الطريق وجدوا الجو باردا رطبا فقال والده « ماينتظرنا فى الشتاء أدهى وأمر » ومضوا الى المخبأ واتخذوا أماكنهم المعهودة . ونظر الاب فى ساعته فوجدها الثانية بعد منتصف الليل ، فقال باستياء وتهكم :

ـ أليس الارحم برشدى أن يبيت فى الخارج حتى لا يكلف

نفسه مشقة الرجوع الى البيت فى مثل هذه الساعة !

وحدثت احمد نفسه باستراق النظر ! ولكنه رأى رشدى يهبط فى درج المخبأ متعجلا ويدور بعينيه فى المكان باحثا عنهم . ولما عثر بهم اتجه نحوهم مبتسما متشجعا ببقيه حميا الشراب على مواجهتهم ـ ومواجهة أبيه خاصة ـ وحياهم ثم قال لاحمد :

ـ أطلقت صفارة الانذار ونحن فى الجمالية فعدوت فى الظلام كالشياطين !

فانتهره أبوه قائلا :

ـ أنت كالشياطين بغير جدال . ألا تريد أن تخفف من غلوائك فى هذا الوقت العصيب !

ولم يتجاسر احمد على استراق النظر فى حضرة الشاب ! ولكن رشدى ضاق بالجلوس ذرعا فقام يتمشى فى المخبأ . وأطلق الكهل لعينيه العنان فانطلقت نظرتهما القلقة الى الركن البعيد حيث تجلس أسرة كمال خليل . ورآها . كانت جالسة جنب أمها مطرقة ، فرأى جانب وجهها الايمن .. هل رأته يا ترى ؟ .. الا تزال تحسب انه يجهل أمرها ؟ .. أما تعانى شيئا من القلق والعذاب ؟ .. ام انه المقضى عليه بالقلق والعذاب وحده ؟ ... وطافت برأسه فى تلك اللحظة تمنياته الجهنمية عن الغارة المدمرة فارتجف قلبه ورفع رأسه الى سقف المخبأ داعيا فى سره : « اللهم رحمتك يا أرحم الراحمين ! » ثم وقع بصره على كمال خليل وسيد عارف واقفين عن كثب من مجلس أسرة أولهما يحادثان شقيقه ! فتولته الدهشة ، كيف تعرف الشاب بهما ؟ ومتى حدث ذلك ؟ وهل رمى الشاب من وراء ذلك الى غرض معين ؟ ! .. حقا انه شاب جسور يعجز خياله ـ هو ـ عن مجاراة أفعاله ! وخامره نحوه شعور بالاعجاب الممتزج بالحنق .. بيد انه انقطع عن التمادى فى مشاعره لدوى انفجار انتشر فجأة فملأ الاسماع ، وانطلقت وراءه طلقات المدافع المضادة بسرعة فائقة ، فحلق الخوف فوق القلوب الواجفة كحدأة منهومة تنقض على أفراخ مذعورة . ولم يتكرر الانفجار ولكن استمرت طلقات المدافع المضادة فترة وجيزة . ثم عاد السكون

الى نصابه ، فأخذ القوم أنفاسهم ٠٠ ومضت ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الامان ٠ وفتش أحمد على أخيه فلم يجده ، وكان الناس يخرجون أفواجا ، فخطر له خاطر اعاد له ذكريات قديمة ، فبحثت عيناه عن أسرة كمال خليل فرآها قريبة من مجلسها تنتظر أن يخف التزاحم على باب المخبأ الا أنه لم ير نوال ! وذكر ليلة دعته الى اللحاق بها وكيف تردد وجبن ! أما رشدى فلا يمكن أن يتردد أو يجبن !

٢٩

واطرد مجرى الحياة ، فتوطدت أسباب الصداقة بين رشدى وكمال خليل على حداثة عهدهما بالتعارف ، وتفـــاوت ما بين عمريهما بفضل لباقة الشاب وكياسته • ودعاه الرجـــل الى قهوة الزهرة فلبى دعوته وجالس صحاب شـقيقه ـ والـكهل بينهم ـ ونال اعجابهم بما طبع عليه من دماثة الخـلق واشراق الوجه •

وطاب له المجلس فنوى أن يعاوده بين الحين والحين • ثم دعاه الرجل الى زيارة بيته فمضى اليه فرحا مسرورا ، وتوثقت عرى المودة بينهما ، واكتسب الشـــاب ثقـــة الرجل فقـدمه الى زوجه وكريمته ، ورفع الحجاب بينه وبين أسرته • وهى خطوة ماتوقعها رشدى قط ، ولا دار بخلده أن تتخذها أسرة بحى الحسين خاصة حيث تسود رح المحافظـــة ، بل ان أسرته هو لتعتبر من هذه الناحية أشد محافظة على خلوها من الفتيات ، فما يجرؤ هو ولا اخوه ـ فضلا عن ابيه ـ على أن يقدما رجلا غريبا الى أمهما • على أنه سر بذلك سرورا لا يدانيه سرور ، وسعـد بتلك الثقة الغالية ، واصطبغ تفكيره بلون الجـد فاستشـعر الرزانة والتبعة • وتبع ذلك أن حل رشدى محل الاستاذ احمد راشد المحامى فى التدريس لنوال ومحمد • ولمـا اتصل نبأ

ذلك بالاخ الاكبر عقدت الدهشة لسانه ، ولم يدر كيف حدث ولا كيف أمكن أن يحدث ، فأخوه صار وكأنه عضو فى أسرة الجيران ، ولو انه وطن النفس يوما على أن يبلغ هذه المنزلة التى بلغها رشدى فى أيام لما كفته عشرون عاما ! ولكم رمقه بعين الاعجاب المقرون بالحسد ، ولكنه نجح فى التظاهر بالجهل المطبق ، فأسبل جفنيه على القذى كما أغلق النافذة على آلامه ، واستسلم للصبر الذى استمرأه لطول ما عاناه . أما الام فلم يغب عنها شيء من بادىء الامر ، فلم يكن رشدى من الذين يعنون باخفاء أسرارهم . كان يلازم نافذته اذا وجد بالبيت ، ويهرع الى بيت الجيران فى ساعات الدروس ، وكان يغشى روحه هيام بدأت آثاره فى عنايته المتضاعفة بأناقته . وفى الحنان الذى اكتسبه صوته وهو يغنى وفى خروجه الباكر كل صباح الذى لم يعد تخفى حقيقته على أحد . بل ما من شك أن أسرة الجيران نفسها باتت تعلم من أمره ما تعلم وتعقد عليه من الامل ما يثلج صدرها بالسعادة . لم يغب شيء من هذا عن الست دولت ، وشاورت قلبها فيه فلم تجد منه اباء ولا نفورا ، وكان من عادتها أن تقول أحيانا كالمتحسرة : « متى يارب أفرح بالعرائس كالامهات السعيدات ؟! » .. ولكن هل نوال جديرة بابنها ..؟! لم لا ؟! هى عروس حسناء ، متعلمة ، من أسرة طيبة ، ووالدها موظف . فكل شيء مناسب ، اللهم الا خاطرا واحدا أحزنها وأكربها ، أيجوز ان يتزوج رشدى قبل أحمد ؟ ولكن ما حيلتها ؟! فلتنتظر ما تلد الايام من أحداث تقضى بها مشيئة الله الحكيمة !

وفات رشدى طور اللعب . فهو يبدأ بمعابثة الغزل ولكنه ينتهى دائما بالحب الحقيقى ! فأحب نوال واستعرت لها فى قلبه عاطفة صادقة .. أليست بجارة النافذة المحبوبة ، ورفيقة طريق الجبل المكللة هامته بالسحاب الرقيق ، وتلميذته المغرمة يطارحها الهوى على مائدة الحساب والجبر والهندسة ، وجليسته فى السينما صباح الجمع ؟ ... علق الهوى قلبين طريين ، ولصق نفسين تواقتين للحب والسعادة . وصارت حياته نشاطا

متصلا يشق على الجسد والاعصاب ، فهو اما مكب على عمله فى المصرف أو هائم فى غرامياته ، أو ساهر فى كازينو غمرة ، فلم يخلد الى الراحة الا فى الهزيع الاخير من الليل . فلم ينتشله حبه من داء المقامرة أو معاقرة الشراب ولا حتى من الحب الفاجر! وعالج هاتيك اللذات فى يسر ، وأنسته العادة أنها خطايا فأنس بها بلا تردد ، ولم يتخيل ان الحياة حياة بغيرها ، فعبد الورق والكأس والحب ، وعسى أن يهوله ما تستوجبه هذه الحياة من مال ومشقة فيقول متأسيا « غدا أودع حتما كل شىء اذا تزوجت ! »

وكان حريا أن يفكر فى نسيان ذاك العبث ليأخذ أهبته للزواج ان كان من الصادقين ، ولكن هون عليه الامر ، أنه أودع المصرف يوما مبلغ خمسين جنيها ربحها من السباق ، ففى بحر عام واحد يستطيع أن يقتصد من مرتبه ما لو أضافه الى ذاك المبلغ لقام بنفقات الزواج ، ولكن متى يبدأ هذا العام ؟ هذا ما كان يؤجل التفكير فيه ، مستسلما لتيار الشهوات العارم ، فلم يتعود قط أن يروض من جماح شهوته ، أو ان يحد من رغباته ، أوأن يشد من ارادته . الا أنه تردد أخيرا متحيرا ، عين الى الحياة التى يلبى نداءها ، وعين الى الفتاة التى يهواها .

٣٠

وانصرم شهر نوفمبر ، فاشتد البرد اشتدادا لم تعهده القاهرة الا فى النادر وأصيب رشدى عاكف بالانفلونزا ، ولعلها أصابته أثناء عودته الى خان الخليلى فى الهزيع الاخير من الليل . ولم يكن يعبأ بوعكات البرد مكتفيا ببلع أقراص الاسبرين اذا اشتد عليه وجع الرأس ، فيزاول نشاطه المعهود لا يعبأ بشىء ، الاأن حالة المرض اشتدت عليه فى اليوم التالى فى المصرف ، فتناوبته قشعريرة . ثم شملته رعشة حتى اصطكت أسنانه ، وعراه خور أظلمت منه عيناه ، فغادر المصرف واستقل تاكسيا الى البيت ، ورقد فى اعياء شديد ومنحه **طبيب المصرف أسبوعا . واشتدت حالته ، وتدهورت صحته** بسرعة مخيفة ، وغيره هزال فبدا كانسان لازمه المرض شهرا طويلا . وأدرك أحمد ان اخاه فقد مناعته الاولى التى طالما قاوم بها التوعكات فلم يملك أن قال له :

ـ صرت كالخيال ، لان جسمك لم يعد يقاوم ما تكلفه به مما ليس فى وسعه . .

وكان الفتى معتادا أمثال هذه الملاحظة من أخيه ، فابتسم ابتسامة شاحبة وقال :

ـ هذا عارض من أعراض البرد وسوف يزول !

فقال أحمد باستياء :

ـ ولكنه ما كان يتمكن منك لولا تفريطك فى صحتك !

ولم يكن شىء يعدل به عن الدفاع عن سيرته المحبوبة فقال :

ـ ألا ترى انى لا أسهر وحدى ! وان صحبى جميعا كالبغال صحة وعافية ! ولكنها أعراض البرد وسوف تزول باذن الله ٠

وكان يعلم أنه يستميت فى الدفاع عن حياته فى لجاج ومكابرة فكف عن لومه ٠ وكان يعوده كثيرا ، ويواسيه ويشجعه ٠ وبالغ فى ذلك مبالغة مردها الى ما بات يساوره نحوه من امتعاض ونفور ، فكأنه كان يغطى المشاعر التى تخجله وتحزنه بالمبالغة فى اظهار العطف والمحافظة على مظاهر الحب ، وكثيرا ما كان يحدث نفسه بصوت مسموع قائلا : « انى أحبه كعهدى دائما ، وما يستحق منى غير هذا الحب ، ولو أنه علم بطويتى ما أقدم على ما أقدم عليه ، فهو برىء ، وهو يحبنى وأنا احبه » ٠٠ ولكن كيف يغفل عما يثور بنفسه أحيانا من الغضب والثورة ٠٠؟ وكيف ينسى انه تمنى لو أن الشاب لم ينقل الى القاهرة ؟ ٠٠ بل كيف ينسى أنه تمنى لحظة لو تخلو الدنيا من الناس والشاب فيها طبعا ؟! فهذه الخواطر وغيرها كانت ترهقه بالحزن وترديه فى الوساوس ٠ وفى آخر ليلة من ليالى اشتداد الحمى على الشاب ، حلم أحمد حلما غريبا ٠ وكان نام بعد جهد ناصب من عذاب الفكر ، فرأى فيما يرى النائم أنه جالس على فراشه مرسلا الطرف من نافذته الى شرفة نوال فى اشفاق ورجاء ، فما يدرى الا ورشدى يقعد على كرسى بينه وبين النافذة مبتسما ابتسامته اللطيفة ، فشعر باستحياء وحول ناظريه عن الشرفة الى وجه أخيه وأراد رشدى أن يسرى عنه بتظاهره بأنه لم يفطن لشىء فلم يفلح ، ثم رآه ينتفخ رويدا رويدا حتى صار ككرة ضخمة فأنسته الدهشة ما كان فيه من استحياء ، ثم أخذ منه العجب كل مأخذ حتى لم يتمالك نفسه من الصراخ اذ رأى شقيقه ـ وهو كالكرة الضخمة ـ يرتفع ببطء طائرا كأنما يلتمس سبيلا الى الفضاء خلل النافذة ، ولكن النافذة ضاقت عنه فانحشر بين جانبيها وحجب عن عينيه النور ،

وزايلته الدهشة وحل محلها الرعب ، ولكن الفتى ، جعل يضحك منه كالساخر بصوت مزعج أثار أعصابه فتولاه الغضب ، وظن الشاب يسخر منه بخدعة فنهره ولكنه لم يعبأ به واستمر فى ضحكه الساخر ، ففزع أحمد الى مكتبه وأتى بريشته وغرسها فى بطنه فانقصفت فيها ، واندفع من البطن بخار ملأ الحجرة بالغبار وأخذ جسم الفتى يتقلص بسرعة حتى عاد الى حجمه الطبيعى ثم سقط عند قدميه ، وجعل يتلوى كالسليم ، ويعض من الالم قوائم الكرسى ويصرخ صراخا موجعا ويسعل حتى تجحظت عيناه ويسيل من محجريهما الدم ، وهلع فؤاد أحمد وأطبق عليه رعب يضنى ويميت .. ثم .. ثم استيقظ عند ذاك ، وأدرك انه كان يحلم .. رباه .. تبا للاحلام ، وما كاد يفيق من هول الرؤيا حتى بلغ مسمعيه صوت كالانين يأتيه من عقب بابه المغلق ، فأرهف السمع فتبين له انه صوت أخيه ! وانه حقا يتأوه ويتوجع ، فقفز من فراشه وانتعل شبشبه ومضى على عجل الى حجرته . وهناك وجد الشاب راقدا يتأوه وأمه الى جانبه تدلك ظهره بينما يجلس الاب على كرسى قريبا من الفراش . فتساءل أحمد مروعا :

ـ ماذا به ؟

فقالت أمه :

ـ لا تنزعج يا بنى .. انه ألم الحمى وهى تفارق البدن .

وتنبه رشدى الى مجىء أحمد فكظم ألمه قليلا وقال متأسفا:

ـ واخجلتاه .. أزعجت منامكم جميعا ..

ولكنهم شجعوه ودعوا له .. وجلس أحمد جوار أمه ، وأخذ راحة شقيقه بين راحتيه وراح يدلكها بحنو، وكأنه يكفر بذلك عن اساءته اليه فى الحلم ، ومضت ساعة مؤلمة لم يكن عناء الاسرة فيها دون عناء المريض ، فلبثوا الى جانب فراشه حتى مطلع الفجر .

٣١

وبرأ رشدى مما ألم به ، وغادر فراش المرض ، ولم يكن هينا عليه أن يلزم الفراش أسبوعا كاملا وهو الذى لا تطيب له الحياة الا فى تجارب اللهو واللعب واللذات . ولذلك هاله أن ينصحه أخوه بالبقاء فى البيت والاخلاد الى الراحة ريثما يسترد قوته ، فضحك كعادته وقال كالآسف :

ـ حسبى أن ضاع من العمر أسبوع هدرا !

فاحتد الذى ضاع عمره كله وقال :

ـ أحذرك الاندفاع فيما أنت آخذ فيه . فانك تستحل شبابك للعدم كأنه معين لا ينفد . ولا تعبأ أبدا أن تنال حقك من الراحة . فأى جنون هذا الذى تطيع ؟

ولمس رشدى فى لهجة أخيه غيرته على صحته ، فابتسم ممتنا وقال :

ـ دمت من أخ كريم ، متعنى الله بقلبه الكبير .

ـ انى أرشدك لما فيه صلاحك !

فقال الشاب الشكور المحب :

ـ وهل داخلنى فى ذاك شك ؟!

ولكنه لم يعن باتباع الارشاد الذى لا يداخله فيه شك !

وفى صباح اليوم التالى رآه أحمد يستعد لخروجه الباكر ، فتولته الدهشة وسأله بانكار :

ـ ماذا أنت فاعل ؟

فقال بشىء من الارتجاك :

الى المصرف !

ـ وما الموجب للعجلة ؟
فعدل الفتى عن المداراة وقال بصراحة محزنة :
ـ أخى ، لا أكتمك أن البيت يسقمنى ٠
وعلم احمد بما يغريه حتما بالاستهانة بصحته ، فانقبض صدره وأخفى بصره فى فنجان القهوة ، ومضى الآخر الى سبيله ، وأرادت الام ـ وكانت جالسة الى السفرة ـ أن تخفف من وقع مخالفة الشاب نصح أخيه فقالت تعتذر عن سلوكه :
ـ شفاء أخيك فى الدنيا الواسعة لا فى البيت ، فلا تؤاخذه!
ولما لم ينبس بكلمة ظنته غاضبا فقالت تستوهبه ابتسامة:
ـ أليس هو ابن أمه ؟ ومن شابه أمه فما ظلم ٠ الا ترى كيف يركبنى الهم اذا لزمت البيت وحيل بينى وبين زيارات الاحباب ٠٠ ! فكلانا عدو البيت ٠
وضحكت ضحكتها الرنانة فابتسم الكهل ابتسامة لا لون لها ، وما كان شىء بمثن الشاب عن حياته المحبوبة ، فارتمى مرة أخرى بين أحضان الحب والقمار والشراب والتدخين والنساء ٠٠ ! استرد نشاطه المعهود ولكنه لم يسترد صحته٠ فلم يزايله الهزال ، واشتد لون وجهه شحوبا وبدا وكأن بقى من مرضه شىء لا يفارقه ٠ واذ كان أحمد منشغلا بنصحه كان الشاب منشغلا بالتفكير فى أمور أخرى ٠ فدخل على أخيه عصر يوم ـ قبل موعد خروج الرجل الى القهوة بقليل ـ وحياه بابتسامته اللطيفة وقال :
ـ هل تأذن لى بالتحدث اليك قليلا ؟
فرفع أحمد رأسه اليه وقال :
ـ تفضل يا رشدى ◙
وقرأ فى وجهه الجميل الشاحب أمارات الرزانة والاهتمام على غير عادته ، فعجب لامره ، وتساءل عما دعا السادر اللاهى الى الجد والاهتمام ٠ وذكر انه لم يره فى مثل تلك الحالة الا السويعات الحرجة التى تلقى فيها أنباء سقوطه فى بعض الامتحانات على عهد دراسته ٠ وساوره القلق ورفع حاجبيه الخفيفين متسائلا ، فقعد رشدى على الكرسى وقال :

ـ أريد أن أجد فى الامر فليست الحياة كلها لعبا !

ولو انه سمع كلامه هذا فى غير الظروف النفسية التى يعانيها لما تمالك أن يضحك ويقهقه ، ولكن صدره انقبض ، وحدس قلقا ما الشاب ماض الى خوضه . فقال بهدوء :

ـ الحياة ليست كلها لعبا .. هذا حق ..

فقال الشاب :

ـ أنت مرجعى عند المشورة ، وقد جئتك سائلا هل توافق على زواجى ..؟ فاضطرب صدره كما لو كان بوغت بالقول مباغتة لم تدر له بخلد . ولكنه لم يسمح لوجهه بالافصاح عن كآبته ، وتظاهر بالدهشة البريئة ، بل وبالسرور .. وقال :

ـ أجئت تتحدث أخيرا عن الزواج ! مرحى مرحى !

فضحك رشدى بسرور وقال :

ـ هى الحقيقة يا أخى .. فهل يسرك ذلك ؟

ـ يسرنى طبعا ، بل لعلنا سررنا بشىء واحد معا لاول مرة !

وتبع ذلك صمت . وأدرك احمد انه من الطبيعى أن يسأل عن العروس ، وكان يرجو أن يفتح الآخر الحديث بغير حاجة الى سؤاله ، ولكنه لازم الصمت ، فلم يجد منـاصا من أن يزدرد ريقه ويقول متسائلا :

ـ وهل اهتديت الى بنت الحلال ؟

فاعتدل الشاب فى جلسته وقال :

ـ أجل يا أخى .. كريمة جارنا الطيب كمال خليل افندى صديقى وصديقك !

ولم يفلح ما سلف من تأهب فى تحمل الطعنة الا قليلا . فيأس المتهم من النجاة لا يهون على نفسه وقع النطق بالحكم عليه . ولكنه عاذ بكبريائه وقال بهدوئه :

ـ وفقك الله لما فيه سعادتك .

ـ شكرا لك يا أخى .

ـ بيد أنى أريد ان اسألك سؤالا على سبيل الاحتياط ، فهل زودت بالمعلومات الضرورية عن الاسرة التى ستصبح

واحدا منها ؟

ـ خبرت الاسرة عن كثب ،وعرفت الفتاة معرفة شخصية!

ونكأ تصريحه جرحه . فضاعف مجهوده ليحافظ على هدوئه الظاهرى ، وقال :

ـ أذكرك بأنه اذا أعلن الخبر فالنكوص عنه يكون فضيحة !

فضحك رشدى قائلا بثقة :

ـ انتهى التقلب واستقر الرأى !

ـ هل فاتحت أحدا بهذا الشأن ؟

ـ كلا فيما عداها هى !

فخفق فؤاده خفقة عنيفة ، وشرع خياله فى استحضار صورة انفرادهما معا ، وتهامسهما بهذا الشأن الخطير ، ثم قطع تخيله بقوة ، وقال بنبرات تنطق بالرضى :

ـ على بركة الله ..

ـ اذا أكل اليك تبليغ والدى الامر ، ومن ثم نأخذ فى الخطوات المتبعة ؟

فتريث أحمد قليلا ثم قال :

ـ سأخبر أبى ، أما الخطوات الاخرى فتحت شرط !

ـ سمعا وطاعة ..

ـ ألا نشرع فيها قبل أن تسترد صحتك ، وتستعيد وزنك السابق للمرض على الاقل !

فقال رشدى ضاحكا :

ـ هذا على هين . ولن يطول انتظارنا .

ثم نهض قائما وهو يقول :

ـ أشكر لك والعقبى لك (ثم غير لهجته كمن تذكر شيئا جديدا) .. على فكره ! لماذا لا تفكر أنت أيضا فى الزواج ، أما كان ينبغى أن أبارك لك قبل أن تبارك لى ؟!

أيصارحه بما حال بينه وبين التفكير فى الزواج ؟!.. الفتى لا يدرى مما يقول شيئا ، ولذلك فهو يرميه بسهام مسمومة فى غفلة وصفاء ! وقد امتعض لتساؤله ، وخال لسان القدر يتهكم من شقائه بعد أن قضى به عليه . وقال كالمتهكم :

ـ مضى زمن الزواج !

ـ مضى ؟!

ـ دع هذا يا رشدى ، فأنت تعلم أنى امرؤ مشغول ! والله لم يجعل لامرىء قلبين فى جوفه !

ومضى الشاب يهز رأسه أسفا • واطرق الرجل ، ولاحت فى عينيه نظرة حزن عميق • واستسلام للقدر واليأس • سيتولى ـ هو ـ أمر زواج الشاب ، فلا مناص من أن يحيك كفنه بيديه• وفى ذلك ما فيه من ضروب الالم • وفيه كذلك ما فيه من ألوان اللذة والعزاء • لن يخلو على الاقل من تلك اللذة الغامضة التى تؤلف بينه وبين الالم كما تؤلف بين الفراشة والنور • وفيه لذة الاستسلام الى القضاء القهار ، وفيه لذة التكفير عن مشاعره الباطنية التى لم يرتح اليها ، وفيه أخيرا لذة لكبريائه الجريح••

٣٢

وارتدى على أثر ذلك ملابسه، ومضى الى الزهرة وقد فارقه ذاك الشعور بالاسف الذى كان يخامره كلما هم بالخروج عن عادة وحدته • واشترك فى حديث الصحاب أكثر من ذى قبل ـ اذ كان جل حواره مع احمد راشد وحده ـ واستسلم للضحك طويلا على غير عادته • وخطر له فجأة ان يشاركهم سهرتهم الاخرى التى سمع عنها دون أن يشهدها • وبدا له الخاطر مغريا فمال اليه بكل قلبه ، بيد أنه تردد كالخائف ولم يدر كيف يقدم نفسه • ولم يغادره هذا الخاطر حتى نهض القوم للذهاب الى حال سبيلهم • وكان من عادة المعلم نونو أن يمضى الى بيته أولا ومن ثم يلحق بالصحاب فى ندوتهم • فاتخذ منه رفيقا ، وآتته شجاعته فى الطريق فقال فى استحياء :

ـ يا معلم •• هلا اصطحبتنى الى الاخوان !

فصفق الرجل بسرور وصاح به :

ـ هداك الله أخيرا !

فقال بصوت خافت :

ـ ولكنى فى هذا الامر أجهل من دابة !

فقال المعلم بزهو وخيلاء :

ـ اجعلنى دليلك • وأيا ما كان فهذا الامر اسهل من كتبك

وأجل فائدة !

وعادا معا يخبطان فى الممرات الملتوية يشملهما ظلام دامس. ودخلا عمارة وارتقيا السلم الى الطابق الثالث ، وضغط الرجل زر الجرس الكهربائى وهو يقول :

ـ اذا جئت بمفردك وأردت أن يفتحوا لك فآيتك أن تضغط الزر خمس دفعات متتابعات ثم تذكر كلمة السر التى سأقولها الآن ..

وسمعا صوت عباس شفة يسأل عن القادم فقال المعلم :

ـ ملعون أبو الدنيا !

وفتح الباب ودخل احمد بقلب هياب وتبعه المعلم . وعبرا صالة الى حجرة واسعة مزدحمة بالجالسين مضاءة بنور أزرق هادىء كنور الفجر العليل ، ينبعث من مصباح ملفوف بغلالة زرقاء . فاتجهت الانظار نحو القادمين ، واستقرت على الجديد منهما حتى تعثر بالارتباك والحياء . وقد تربعوا على شلت تراصت على صورة دائرة ، ووضعت فى وسطها «العدد» كالمجمرة والجوزة والطباق . فتبادلا التحية مع الحاضرين وجلسا جنبا الى جنب واستطاع احمد أن يلقى نظرة عامة على المكان ، ويرى أخوان قهوة الزهرة ـ فيما عدا أحمد راشد ـ بين الموجودين . ثم استرعى صدر المكان انتباهه حيث جلست امرأة « هائلة » على شلتة ضخمة . وانها لهائلة حقا ، ففى جلستها كانت تطاول شخصا قائما ، عريضة المنكبين ، طويلة الجيد ، مستديرة الوجه فى امتلاء وضخامة ، واضحة القسمات ، يراوح لونها بين المصرى والحبشى أما شعرها فكستنائى مجعد شد الى ضفيرة غليظة قصيرة . واعجب ما فى وجهها عينان كبيرتان بارزتان بروزا لايبلغ القبح ، لنظرتهما حدة ولحورهما التماع . ويوحى منظرها بالهيبة لضخامتها وقوتها ، وبالشهوة لامارات الحيوانية البادية فى ملامحها ، والاغراء المنعكس عن خلاعتها . وقد وضعت على كتفيها شالا مخملا منمنما وجعلت تتفرس فى وجهه بعينيها القادحتين

وأدرك أحمد عاكف أنها عليات الفائزة التى يدعونها بمعشوقة الازواج . وقد جلس زوجها عباس شفة الى يمينها بينا جلس الى

يسارها المعلم زفته القهوجى . وسفر المعلم نونو بين الرجل وبينها بالتعارف فمدت له راحتها المخضبة بالحناء ورحبت به . وحدجه المعلم زفتة بنظرة تأنيب وقال له متضاحكا :

ـ وأخيرا عرفت أن الله حق ! لكم أنفقت من عمر فى حجرتك! وعلام ذلك التعذيب ؟!.. لا أنت متزوج ولا أنت رجل عجوز ، ولكنه ظلم الانسان لنفسه !

فقال المعلم نونو يزكى صاحبه ويعتذر عن « غفلته » :

ـ يا اخوانى ان نظرى لا يخيب وفراستى تصدقنى دائما ، وقد اقتنعت من أول نظرة بأن صاحبنا أحمد افندى «ابن حظ» ولكن أضلته الظروف عن منهله العذب حينا وانا لهادوه باذن الله

وخاف كمال أفندى خليل أن يضيق صاحبه ـ الذى وجدت دواع جديدة تحمله على ارضائه ـ بكثرة المداعبات فقال :

ـ الاستاذ أحمد عاكف يا سادة رجل مطلع ، ولكن لا ضير فى أن يأخذ حظا من السرور ، فالحياة لا يمكن أن تكون عناء متصلا ...

فلوح المعلم زفته بيده كالساخط وقال :

ـ ولماذا نقضى على أنفسنا ، وبمحض اختيارنا ، بعناء متصل أو منفصل ؟! الاستاذ موظف ذو مقام فماذا يوجب عليه أن يقرأ كالتلاميذ من غير مؤاخذة !؟ عاهدنا على ألا تغيب عنا ليلة بعد اليوم !

فابتسم أحمد كالمرتبك ، وزاد من ارتباكه ان قالت عليات الفائزة تخاطب زفته وهى تلحظ الكهل :

ـ رويدك يا معلم . كيف يعاهدك على ذلك وقد لا يطيب بنا نفسا ؟!

فتورد وجه أحمد وقال مسرعا :

ـ العفو يا هانم !

وكانوا يدعونها عادة بست عليات فوقعت .. « هانم » من آذانهم موقعا غريبا . أما الست فقالت :

ـ أهلا بك فى كل وقت

وكان عباس شفة مكبا على تعبئة « الكراسى » ثم رص الجمرات

على كرسى منها وركبه على الجوزة وقدمها الى الست . واستقرت عينا أحمد على الجوزة فى اهتمام مشوب بقلق وأشفاق ، ثم مال نحو نونو ، وهمس فى أذنه :

ـ ألا يحق لى أن أخاف هذه الجوزة ؟

فعاتبه المعلم قائلا بصوت منخفض :

ـ اذا خفتها أنت فماذا يفعل أبناؤنا !

وتوسط عباس شفة الدائرة ، وجعل يدير الجوزة من رجل الى رجل ، مقتربا منه ، حتى بلغت المعلم نونو ، فوضع الغاب فى فيه وأخذ نفسا طويلا اتصلت قرقرته حتى ملأت الاسماع ، وزفره من خيشومه قطعا من سحاب داكن ! وأخيرا رأى الغاب يدنو من شفتيه والانظار تتحول اليه ، فأطبقهما عليه وأخذ نفسا قصيرا كالحائف ونونو يهتف به « شد .. شد » ثم قال له بلهجة الآمر « ازدرد الدخان ! » فازدرده ثم زفره بسرعة وقد شعر كأنه يداتكتم أنفاسه ، ثم سعل سعلة اضطرب لهاجسمه النحيل ودمعت عيناه . وكان نونو يرقبه بقلق فسأله لما أفاق :

ـ كيف الحال ؟

فقال وهو يتنهد :

ـ أولى بى أن أبدأ بأخذ أنفاس خفيفة . ألا ترى انك مدرس قاس يا معلم ؟

فقهقه المعلم قائلا :

ـ كما تشاء ففى التأنى السلامة !

ودار عباس شفة بالجوزة خمس مرات متعاقبة ، وتصاعد الدخان من كل جانب وانعقد سحبا ، وشم احمد رائحة غريبة أثارت ذكرى قديمة ، ذكرى رائحة تشابه هذه الرائحة ، بل هى نفسها دون غيرها ، فأين شمها ومتى ؟!.. ولم يطل به عذاب التذكر ، فذكر أولى لياليه بخان الخليلى ، ليلة التسهيد اذتسربت هذه الرائحة الغريبة العميقة الى حجرته فحيرته ، ولم تكن الا رائحة هذا المخدر العجيب المخيف ، ولعلها انطلقت ليلتئذ من هذه الحجرة نفسها أو من أخرى تماثلها فى ذاك الحى العجيب الذى لا يبعد أن تكون جميع الانفاس المترددة فى جوه من هذه

الانفاس . وسر للذكرى وارتاح اليها أيما ارتياح لان التخدير كان قد أخذ يسرى فى أعصابه المتوترة فيلينها ، فابتسمت أساريره . وعاد عباس شفة الى مجلسه يستريح قليلا ، بينامضى المعلم زفتة فى تعبئة الكراسى من جديد استعدادا للدورة الثانية وقالت الست عليات الفائزة فجأة :

ـ أما هنأتم سيد عارف أفندى ؟

فالتفت اليها القوم . وقال نونو :

ـ خير ان شاء الله !

فقالت المرأة الهائلة مبتسمة :

ـ أرشده طبيب ماهر الى أقراص جديدة وأكد له انها مضمونة النجاح !

فعلا ضحك الجميع ـ أصحاب قهوة الزهرة والاخرون ـ وقال المعلم نونو موجها خطابه لسيد أفندى :

ـ أمنية قلبى أن أراك يوما رجلا مثلنا !

فقال سيد عارف كالمحتد :

ـ هذا يدل على سوء نيتك !

وسألوه عن الاقراص الجديدة ، ولكنه أبى أن يذكر عنها شيئا خشية أن تصيبها نفس

فقال المعلم زفتة :

ـ انما الاعمال بالنيات !

وكان كثيرا ما يستشهد فى أحاديثه بالحكم والامثال والاحاديث الشريفة كيفما اتفق دون مبالاة بمطابقتها لمقتضى الحال ودون أن يفطن الى شذوذ الاستشهاد عن معنى كلامه ، على انه لم يكن يتنبه الى غفلته تلك الا قلة من الحاضرين ! وضاق سليمان بك عتة بالضجيج ذرعا واشتد وجهه القبيح كآبة فقال بحنق وعنف كعادته اذا استاء أو غضب :

ـ الهدوء .. يا هوه . للغرزة آدابها !

ولاحت الدهشة فى وجه كمال خليل فسأله باهتمام :

ـ وما آداب الغرز ؟!

فقال القرد باستياء :

ـ هذه الضجة خليقة بالحانات حيث يفقد السكارى عقولهم ٠ الغرز على عكس ذلك جديرة بالهدوء والصمت ٠ فالحشيش سلطان يوجب على مواليه الخشوع والسكون ٠ بالهدوء والصمت يبلغ التخدير مداه فيصفو المزاج وتنثال على الخيال الاحلام فيظفر الانسان بحل مشكلات يومه ومتاعبه ويحسن التفكير فيها فيحلها واحدة بعد أخرى !

ـ ولكننا نجىء هنا لننسى المشكلات والمتاعب لا لنفكر فيها

ـ بئس الرأى ٠ ان الهروب من المتاعب لا يذهبها ولكنه ينسى عذابها الى حين كى تعود أفظع مما كانت ٠ حكمة الحشيش تهبنا ثقة نواجه بها المتاعب بقلب قادر على الاستهانة بها وتهوين خطبها فتذوب فى بالوعة النسيان وتمحى من الوجود

فقال سيد عارف ضاحكا :

ـ فليس هذا بكرسى حشيش ، ولكنه كرسى الاعتراف !

وقال المعلم زفتة :

ـ صدقت ، هذا حشيش القسيس ! وصدق من قال يا جحا عد غنمك !

ثم قال المعلم نونو مستنكرا وموجها خطابه لسليمان بك :

ـ وكيف يلزم الصمت من خلا من المتاعب ؟

ـ وهل يخلو من المتاعب الا حيوان !

ـ فكيف شعرت بها ؟!

فأجابه سيد عارف : لعله مالك الحزين !

ونهض عباس شفة بشعره المنتفش كالشيطان فدارت الجوزة دورتها الثانية ٠ ومحت القرقرة لغط الحديث ٠ وأخذ احمد أنفاسا أشد من المرة الاولى مستوصيا بشجاعة لا عهد له بها ، وبرغبة قوية فى الذهول ٠ وقد أعجبته فلسفة سليمان عته على مقته له ، فحاول أن يعالج حزنه العميق الذى أورده هذا المكان الخانق على طريقته لعله أن يبرأ ٠ ولكن تسلط عليه التخدير فثقلت جفونه واحمارت عيناه ومال عنقه قليلا ٠ ثم ساوره خوف مفاجىء فأدنى رأسه من أذن المعلم نونو وسأله :

ـ ألا يخشى علينا من الشرطة ؟٠٠ هب شرطيا تسلل الى الباب

وقال ملعون أبو الدنيا !؟
فضحك نونو وقال :
ـ نقول له ملعون أبوك !
وبعد انتهاء الدورة جلس عباس شفه بجانب زوجـــه الهائلة مرة أخرى وتحركت الالسن من جديد .
فقال المعلم زفتة القهوجي وهو لا يمسك عن العمل :
ـ أبشركم يا اخوان بأن هتـلر ـ حين يفتـح الله له مصر ـ سيلغى أمر منع الحشيش ويمنع شرب الويسكى الانجليزى !
فقال المعلم نونو :
ـ هتلر رجل حكيم ولا يداخلنى شـك أن الفضـل الاول فى مهارة خططه راجع للحشيش !
فسأله كمال خليل أفندى :
ـ وكيف أوصله اليه عباس شفة ؟
فقال نونو بلهجة جدية :
ـ لا حاجة به الى عباس شفة ، فالمخزن رقم ١٣ مـــلآن بالحشيش النقى !
ثم هز المعلم رأسه كالاسف وقال بحسرة ظاهرة :
ـ ألم تسمعوا بما يقال من أن اليابانيين ينشرون المخدرات بين الامم التى يغزونها ؟
فقال المعلم زفتة بنفس اللهجة :
ـ ليت الانجليز كانوا حشاشين !
ـ ضاعت خمسون عاما من الاحتلال هدرا !
وهنا نهض سيد عارف بغتة وقد ارتسم على وجهه الاهتمـام الشديد ، ولبس طربوشه كأنما يتأهب لمغادرة المكان فعجب القوم له وسألته الست عليات :
ـ الى أين يا أخانا ؟
فتخطى محيط دائرة الجلوس وهرول نحو الباب متعجلا وهو يقول :
ـ الاقراص نجحت ..
وغاب عن الانظار فى لمح البصر ، فانفجر القوم ضاحكين ،

وتساءل كمال خليل وهو يسعل :
ـ هل حقا ما يقول ؟!
فقال سليمان عته بسخرية :
ـ دعاية كاذبة كدعاية أصحاب الالمان ..
فقال نونو :
ـ سنعلم الحقيقة بعد تسعة اشهر !
فقالت عليات الفائزة :
ـ علم هذا على هين ..
وواصلوا الهزل حتى قام عباس شفة ممسكا بالجوزة فكان نذير الصمت . وفى هذه الدورة أخلد أحمد لتخدير غريب ـ وكان طول الوقت صامتا راغبا عن الكلام أو عاجزا عنه ـ وشعر بأن ارادته فقدت سلطانها على أعضائه . وقد أراد أن يحرك ذراعيه ليطمئن الى انه ما يزال متمالكا زمامه ، ولكن شعورا عميقا قويا أغراه بالعدول عن التجربة ، وهيأ له انه لا يوجد فى الدنيا جميعا ما يستحق التعب أو الحركة، وأن الرقاد والاستسلام والرضا خير ما تجود به الدنيا . ورأى القول خلل نفثات الدخان فخالهم أشباح دنيا غريبة أو سكان كوكب آخر ، ولا يدرى كيف ملأه ذاك الاحساس بالغربة ، فلذ له أن يضحك ، فضحك ضحكة طويلة واهنة شابه مطلعها التأوه وحاكى ختامها قرقرة الجوزة ، فما تمالك الجالسون أن ضجوا ضاحكين ! وانتبه لضحكهم رغم ذهوله ، فاعتدل فى جلسته ليستعيد ـ ما أمكن ـ شيئا من يقظته . وحدث عند ذاك شىء عجيب . حدث ان نهضت عليات الفائزة قائمة ، استطال ذاك الجسم الهائل فى الفضاء ، وامتد طولا وعرضا فملأ الاعين ، وكانت مرتدية روبا شد الى جسمها ليبرز محاسن مقاطعه ، ثم تحرك موكبها العظيم فسارت قابضة براحتها على طرف شالها فلاح ساعدها مختفيا وراء الاساور الذهبية ، ولما مرت أمامه ارتاع الكهل على ذهوله ، رأى الروب يتسع بعد خاصرتيها ليكتنف عجيزة لم ير مثلها فى حياته ، ريانة ناهضة مترجرجة تبرز فوق الفخذين كالمشربية ، فماصدق عينيه ! ولاحظ المعلم نونو دهشته فقال له هامسا :

ـ انتبه فالست تطلعك على السر الذى أشقى أزواج الحى ٠ ما هذه بعجيزة ولكنها كنز !

فقال احمد بصوت لا يكاد يسمع :

ـ هذا شىء فوق ما يتصوره العقل !

ـ وأكثر من هذا انها تحوى فضيلتين لا تجتمعان فهى من ناحية كالكرة المنفوخة صلابة ، ومن ناحية أخرى تسوخ فيها الاصابع لينا !

ـ هذه لغز !

ـ نسأل الله السلامة ٠

فقال الكهل وهو لا يدرى :

آمين ٠٠٠

وكان عباس شفة يسترق اليهما النظر فسأل نونو متكلفا لهجة الوعيد :

ـ فيم تتحدثان ؟

فضحك المعلم ضحكته المجلجلة وقال :

ـ نتآمر على أنفس أناث البيت !

وكفوا عن الكلام فسمع صوت المعلم زفتة وهو يتحدث فى الجانب الاخر من الحلقة ويقول لبعض المستمعين الاغراب بلهجة الناصح :

ـ ثلاثة أشياء أشير عليكم بالاكثار من اقتنائها : الذهب ، والنحاس ، والسجاد الفارسى فقيمتها ثابتة ، تبيعونها وقت الشدة أو تنتفعون بها فى تجهيز البنات ٠٠

فقال رجل معمم يدعى المعلم شمبكى :

ـ تبا للبنات وللزواج وللامهات !

فأومأ عباس شفة الى المتحدث وقال :

ـ أما علمتم بأن حرم المعلم شمبكى هجرت بيته غاضبة ؟!

فتأسف الحاضرون ، وهنا عادت الست عليات الى جلستها فسمعت العبارة الاخيرة وقالت :

ـ لماذا يا معلم ؟ أرجو الا أكون السبب !٠٠

ـ كلا يا ست ٠ زواج ابنى سنقر هو السبب ٠ أردت أن يتم

فى هدوء مراعاة للظروف ، وتأبى الا أن تزفه القيان ، فقالت لى بوقاحة : مالك على وعلى ابنائى حرام ، أما هناك فحلال !

فقالت الست عليات ضاحكة :

ـ هناك هذه هى أنا !

فاستدرك الرجل يقول مغيظا متأسفا :

ـ وقالت لى وهى تشد أطراف بقجة ثيابها « سأذكرك دائما بأنك الرجل الذى لم يسعدنى يوما واحدا من حياتى ! » ... اسمعوا يا هوه .. أهذا كلام تقوله عشيرة ثلاثين عاما !

فقالت عليات بلهجة الانتقاد المر :

ـ تبا لها ، ورحمتا لشبابك الذى انفقته عليها . اصغ الى يا معلم ، كد لها وتزوج من غيرها !

فهز الرجل رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه ثم قال مغمغما :

ـ وهل تبقت فى العمر ذخيرة ؟

ـ استغفر الله يا معلم ، انت قد الدنيا.

فقال المعلم نونو متحمسا للفكرة :

ـ نعم الرأى انه لا يؤدب المرأة الا الزواج بغيرها . وربنا أمر بالزواج من أربع !

ـ استغفر الله العظيم . لم يأمر الله بذلك ولكنه أباحه على أن نعدل !

ـ ومن قال لك أظلم ؟!

ـ صلوا على النبى . أنا رجل عجوز وما من فائدة ترجى !

ـ تزوج على بركة الاقراص الجديدة التى اكتشفها سيدعارف أخيرا !

وهنا قال المعلم زفتة متمما الحديث الذى قاطعه المعلم شمبكى بشكواه العائلية :

ـ واقتنوا خاصة السجاد الفارسية . فالذهب ربما انخفض سعره . وكذلك النحاس أما السجاد الفارسية فتزيد نفاسة مع الزمن . المرأة القديمة لا تساوى مليما أما السجادة ..

وعاجلته الست بلطمة على صدره فصاح :

ـ الضرس الباقى وقع ..

فقالت له :

ـ يا حشـاش يا مجنون نحن نتـكلم فى الزواج فما دخـل السجاد !؟

ـ لا تغضبى يا ست فالصبر مفتاح الفرج . وما دمت ترغبين فى حمل المعلم شمبكى على الزواج مرة أخرى فسأقص عليه نادرة تغريه بالزواج (والتفت الى شمبكى واستمر يقول) عاد شيخ الى بيته بعد سهرة طويلة فرأى زوجته نائمة على فراشها، وكانت تتيه عليه ادلالا بحسنها حتى كفرت عن سيئاته ، فمر بهـا الى فراشه وهو يقول بصوت منخفض « الفتنة نائمة ! » فمـا كان منها الا أن أمسكت بطرف الجبة وهى تقول «لعن الله من ايقظها !»

وشعر أحمد عند ذاك باختناق ولم يعد يحتمل جو الحجرة ، ونفد صبره ، فنهض قائما كالمترنح ، وجذبت حركته الانظار ، فسأله المعلم نونو :

ـ الى أين ؟!

فقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ حسبى هذا !

ـ هذه نهاية البداية ! وما يزال أمامنا القافية والغناء والذهول الحقيقى ..

ولكن الرجل أصر على الاعتذار ، وتحرك فى بطء وتثـاقل ، فقال المعلم زفتة :

ـ أأقراصك نجحت أيضا !

وغادر الشقة . وأمسـك بالدرابزين ونزل متـثاقلا وما زال يهبط ثم يهبط حتى خال السلم مفضيا الى مركز الارض . ولكنه انتهى الى الطريق وخبط راجعا الى حجرته بعد أن قام بأخطر رحلة فى حياته ، وكانت الساعة تقترب من الثانية فخلع ملابسه فى أعياء ، وأطفأ النور واستلقى على الفراش . ولم يسارع اليه النوم كما توقع . وتبين له أن تحت جفنيه يقظة قلقة حائرة . وشعر بقلبه يطلق خفقات سريعة قوية مضطربة خالهـا تشـيل الغطاء وتحطه . وتزاحمت الصور بمخيلته فالتبست وغرقت فى

غموض ، الا صورة واحدة غلبت ما عداها ، تلك المرأة الهائلة ، فهل يلتمس وصالها كالاخرين ؟ ولكن مهلا ، ماذا يفعل بهـا ، انها اذا احتضنته صغر وضؤل وصار كالبرغوث فى ابط الفيل كلا ما تلك بامرأة ، ان هى ألا رمز لدنيا الشهوة الساخنة التى انغرست قدماه فى شاطئها وحملقت عيناه فى عبابها٠ وتضاعفت ضربات قلبه فجف ريقه ٠ وتهيأ له أنه يهوى من عل فى فضاء لا نهائى ففزع جالسا فى فراشه ، وداخله شعور بالخوف واليأس ولبث حتى مطلع الفجر يعانى آلاما فظيعة ، جسمية ونفسية٠٠

٣٣

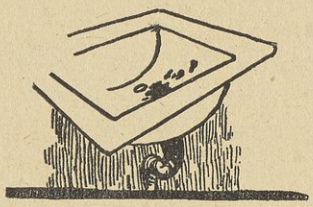

ولم يفكر بعد ذلك فى معاودة تلك المغامرة . ولم يجد فيه دفاع المعلم نونو وتأكيده أن ما حدث له من تعب انما كان مرجعه الى أنه لم يطعم حلوا بعد التدخين مباشرة ، فأعرض عن اغراء الرجل وقال لنفسه يتأسى كعادته: « الظاهر أن الطبائع العقلية ليست بذات استعداد للتمتع بهذه الشهوات » .. على انه لن يمسى بحاجة الى هذا المخدر الخطير كى ينسى شجونه ، فغدا اذا تم زواج شقيقه من الفتاة برأ هو ونسى . بيد أن رشدى ما يزال يخبط فى سبيله على غير هدى ، ولم يخفف من غلواء عبثه واستهتاره ، فلم يسترد عافيته ، بل وساءت حالته . ولم يعد يخفى على عين انسان هزاله ، واستحال شحوب وجهه صفرة ، وجعل يتناوبه سعال شديد. ثم فترت شهوته للطعام .. فهال أحمد أمره وقال له بلهجة حازمة :

ـ كأنك لاهمالك صحتك قد عدلت عن آمالك ! لماذا لم تأخذ نفسك بالاستقامة حتى تسترد صحتك ؟ لذلك استعصى شفاؤك من مرضك الاول وأصابك هذا السعال الشديد .. وما ينبغى لك بعد اليوم أن تعاود السهر أو الشراب ، فماذا أنت فاعل !؟

ولم يكابر رشدى كعادته ، لان وطأة السعال كانت شديدة عليه ، فقال بتسليم ليس من دأبه :

ـ سمعا وطاعة !

فقال المغرم بتعذيب نفسه :

ـ تعجل الشفاء يا رشدى قبل أن يستنجزك وعدك أهل الفتاة !

وأبدى الشاب المريض عزيمة صادقة ، فانقطع عن كازينو غمرة ولم يغادر البيت مساء الا لاعطاء تلميذيه الدرس الخصوصى ـ وهو واجب يستعذبه قلبه ولا يعدل به لذة ـ ولاول مرة مذ فارق صباه حاول أن يأوى الى فراشه فى الساعة العاشرة . مما دعا أحمد الى الاعجاب المطلق بصنع الحب الساحر. الأن الشاب لم يضح برحلة الصباح عن طريق الجبل على ما يقاسيه فيها من شدة البرد القارس ... لانها كانت متعة قلبه وزاد أحلامه .. وصبر على تلك الحياة المستقيمة أياما دون أن يطرأ على حالته ما يبشر بالشفاء . بل نال السعال من حنجرته فاخشوشنت وبح أخيرا صوته .. فتعذر عليه ترديد أغانيه المحبوبة . وكان عيد الاضحى قد أصبح على الابواب .. وأخذت له الاسرة أهبتها ككل عام .. فجىء بكبش التضحية وشد من عنقه الى نافذة المطبخ حيث لم يجدوا له مكانا سواه فى الشقة .. ومضت الست دولت تصنع الرقاق . وقد تشكى أحمد ـ كعادته ـ ارتفاع ثمن الخراف : وقال انه ربما تعذر عليهم ابتياع كبش فى العام القادم .. فهال أمه القول .. وقالت ضاحكة :

ـ أبصق هذه النية وطهر فاك الشريف !

وجاء العيد فى الايام الاوائل من يناير سنة ١٩٤٢ واستقبلته الاسرة ـ والحى جميعا ـ بالبشر والفرح ..وحفلت المائدة باللحوم أشكالا والوانا . ومن عجب أن رشدى لم يخرج عن نظامه الجديد فى العيد . والحق ان اعياءه لم يمكنه من اشباع رغباته .. أما أحمد فأمضى عطلة العيد فى قهوة الزهرة . ولكنه لم يذعن لاغراء المعلم نونو فخاب سعى الرجل لاستدراجه مرة أخرى الى بيت عليات الفائزة .. وهل يمكن أن ينسى ختام تلك الليلة الجهنمية ؟ .. ثم كان صباح اليوم الرابع من أيام العيد .. وفى ذاك الصباح حدث ما جعل أحمد

يذكره على الدوام . وقد استيقظ فى منتصف التاسعة ومضى الى الحمام كعادته ، فوجد رشدى مكبا على الحوض يسعل سعالا شديدا يضطرب له جسمه الهزيل . فاقترب منه حتى صار لصقه ، ومد يده ليربت على منكبه فلاحت منه التفاتة الى الحوض فرأى بقعة حمراء .. ! فتصلبت يده وخفق فؤاده خفقة انخلع لها صدره وهتف بصوت متهدج :

ـ رباه ....

ثم نظر نحو شقيقه فى ارتياع ، وكان كف عن السعال ولكنه لم يزل فى غيبوبة منه ، يعلو صدره وينخفض ويتنفس بصعوبة .. وقد احمرت عيناه ، فتريث الرجل حتى استعاد الفتى أنفاسه .. وقال بلهفة منزعجا وهو يشير الى البقعة الحمراء :

ـ ما هذا يا رشدى ؟

فرفع اليه الفتى عينين كئيبتين وقال بصوته المبحوح :

ـ هذا دم !

ـ رباه !

فتجلى الحزن فى عينى الشاب ، ثم أفلت منه زمام نفسه فاغرورقت عيناه ، وقال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ أصبت وانتهيت !

فقال أحمد وكأنه يتوسل اليه :

ـ لا تقل هذا ..

فقال الشاب بقنوط :

ـ هى الحقيقة يا أخى !

وفتح أحمد الصنبور ليغسل الحوض . وتابط ذراع الشاب .. وسار به الى حجرته ـ حجرة الشاب ـ ومضى الى النافذة فأغلقها .. وجلس رشدى على الفراش فأتى الآخر بكرسى وجلس أمامه ، ثم سأله بعد أن ازدرد ريقه :

ـ ماذا تقول يا رشدى ؟ ! صارحنى بكل شىء ..

فقال الشاب بهدوء :

ـ ذهبت أخيرا الى طبيب فقال لى ان بالرئة اليسرى مبادىء سل !

٣٤

والحقيقة أنه ظل يعانى آلاما مبرحة منذ منتصف ديسمبر • وحدث أن اشتدت عليه نوبة السعال فى المصرف مرة فاستخرج منديله ليبصق فيه فما روعه الا أن بصق دما •• ورمق البصقة الدامية بنظرة ذعر وارتياع ، ثم دس المنديل فى جيبه خشية افتضاح أمره • وغادر المصرف الى عيادة طبيب اخصائى فى الامراض الصدرية ، وجلس بين المنتظرين يقلب بصره الزائغ فى الوجوه الشاحبة والاجسام الهزيلة ويسعل مع الساعلين ، واستولى عليه القلق والانزعاج ، وتساءل ترى هل يقع فريسة لذاك المرض الخطير الذى تقشعر لذكره الابدان ؟ وكان سمع مرة صاحبا يقول ان السل داء لا براء منه ، فذكر قوله خافق الفؤاد •• ولم يكن سبق له أن أصيب بمرض عضال ، فأشفق من أن يكون ذاك الداء الوبيل أولى تجاربه القاسية واشتد به القلق فى جلسته حتى تهيأ له أن يقتحم حجرة الكشف •• ولكنه تصبر حتى جاء دوره فدخلها يقاوم جاهدا اضطرابه وانزعاجه • وألقى على أركان الحجرة نظرة عجلى خطفت العدد والالات وأخيرا الطبيب العاكف على حوض صغير يغسل يديه ، ثم انتظر واقفا •• وجفف الدكتور يديه والتفت نحوه •• كان قصيرا نحيفا دقيق الاعضاء •• الا

أنه كبير الرأس أصلعه . واسع العينين . جاحظ الحدقتين . حاد النظره . فحياه الشاب برفع يده الى رأسه ، فقال له الرجل بصوت رفيع :

ـ أهلا وسهلا .. تفضل بالجلوس .

فجلس رشدى على مقعد كبير .. ودلف الدكتور من مكتب أنيق وجلس أيضا وراءه واستخرج كراسة ضخمة وفتحها وسأل الشاب عن اسمه وصناعته وعمره .. ورشدى يجيب .. ثم حدجه بنظرة الاستفهام التقليدية فأشار رشدى الى صدره قائلا :

ـ أريد أن أكشف على صدرى .

وما كاد يتم قوله حتى انتابه سعال عنيف ، فانتظر الدكتور حتى أمسك واسترد أنفاسه وسأله :

ـ هل أصابك برد ؟ .. متى ؟

ـ اصبت بالانفلونزا منذ أكثر من أسبوعين ، وكانت حادة .. والظاهر انى استأنفت عملى قبل أن أبرأ تماما ، فلم يفارقنى الاعياء ، ثم كان هذا السعال العنيف فتدهورت صحتى ..

وأسهب الشاب فى وصف السعال وآلامه وعما فقد من وزنه .. فقاطعه الدكتور متسائلا :

ـ ومتى بح صوتك ؟

فأجاب الشاب :

ـ منذ أسبوع على الاقل ..

فأمره أن يعرى نصفه الاعلى ، فقام الشاب ، وأخذ فى فك رباط رقبته ثم خلع السترة والقميص والفانلة ، وتصدى للطبيب نضوا مهزولا .. ووضع الرجل السماعة على أذنه وجعل يتلقى بها آثار نقر سبابته على الصدر والظهر .. ولاحظ رشدى أنه كرر ذلك كثيرا على موضع فى أعلى النصف الايسر من الصدر وطلب اليه أن يرتدى ملابسه ، ثم سأله :

ـ هل بصقت دما ؟

فانخلع قلب الشاب ، وتريث قليلا ، ثم قال بصوت

منخفض :

ـ نعم .. لاحظت ذلك مرتين أو ثلاثا !

فجاء الطبيب بقنينة زرقاء وأمره أن يتنحنح بشدة ويبصق فيها ، ثم مضت فترة وجيزة ورشدى منتصب القامة ، ثقيل الانفاس ، كمتهم ينتظر النطق بالحكم وقال الدكتور :

ـ انى أشك فى وجود حالة ما فى الرئة اليسرى . وليس من الحكمة الجزم بشىء الآن ، ولكن اذهب توا الى الدكتور (...) ليصور صدرك بالاشعة وعد الى بالنتيجة .

وحذره من أن يشق على نفسه بأى مجهود .. ! ولكن رشدى لم يبرح موقفه وقد تجهم وجهه وغشيته كآبة ثقيلة . فاستطرد الدكتور قائلا :

ـ عسى أن أكون مخطئا ! ولكن حتى لو صح ظنى فالاصابة بسيطة .

ومضى الى الدكتور الآخر لتصويره بالاشعة . وانتظر أياما يعانى آلاما نفسية مروعة الى جانب آلام السعال ، ولم يكن فى الحقيقة مطبوعا على الخوف أو الوساوس والاوهام . ولكنه وجد نفسه فجأة تحت رحمة أفتك الامراض ، وأثر فيه اسم المرض تأثيرا بالغا .. ثم رجع الى الدكتور الاول ومعه صورة الاشعة . وفحصها الرجل بعناية ثم تحول اليه قائلا :

ـ كظنى تماما .. سمه خدشا خفيفا أو قذارة سطحية ان شئت .

وغاض الامل .. ولاح القنوط فى العينين العسليتين وهما ترمقان صورة الاشعة بنظرة ساهمه لا تفقه شيئا .. خدش خفيف أو قذارة سطحية ..! هل تضحى الحياة رهينة بهاتيك التوافه ؟!

وقال للدكتور بصوت حزين :

ـ فلنسمه بما تشاء .. فهل يعنى هذا الا أنه سل لا يرجى له شفاء ؟

فحدجه الدكتور بنظرة استنكار وقال بصوته الرفيع :

ـ لا يهولنك هذا الاسم ، واطرح جانبا المخاوف التى لا

أساس لها من الحق أو العلم ، واعلم ان حالتك مضمونة الشفاء اذا اتبعت ما أنا موصيك به ..

وأمسك قليلا كالمتفكر فقال الشاب باشفاق :

ـ يقولون ان هذا الداء لا شفاء منه !

فهز الرجل منكبيه باستهانة وقال :

ـ انبذ هذه الآراء .. واعلم أننى كنت يوما من ضحاياه ، بيد أنه يلزمك الغذاء الجيد جدا والراحة التامة والهواء الجاف النقى ، وكل أولئك متوفر فى المصحة ،فالى حلوان دون تردد:

ـ وكم يستغرق العلاج من الزمن ؟

ـ ستة أشهر على أكثر تقدير !

فانقبض صدر الشاب ، وأيقن ان هذه المدة تقضى عليه حتما بفقد وظيفته .

وغدا اذا ذاعت الحقيقة وعلم بها ـ الجيران ـ فقد فتاته كذلك ! فنفر من اقتراح المصحة ، وقال للدكتور :

واذا كانت هذه الشروط متوفرة فى البيت ؟

ـ أين تقطن ؟

ـ فى خان الخليلى ..

ـ هذا مكان رطب فيما أعلم ، والمصحة خير مأوى لك ، ولا تنس العناية الطبية هنا لك !

وقوى أمله فى أن يستشفى فى البيت دون أن يعلم بسره انسان فيطمئن على وظيفته وفتاته ، فقال :

ـ واذا تعذر على الانتقال الى المصحة ؟

فهز منكبيه تارة أخرى وقال :

ـ هنالك ينبغى لك مضاعفة العناية فى البيت ، خصوصا الراحة والغذاء ، فاياك وأن تفارق فراشك .. وسأصف لك العلاج الطبى ..

وفى أثناء انشغال الدكتور بكتابة « الروشتة » خطر له ـ أى الشاب ـ خاطر هام ، فتردد لحظة ثم قال متسائلا :

ـ ثمة سؤال آخر .. هل يمكن .. أعنى متى يمكن أن يتزوج من كان مريضا مثلى ؟

فابتسم الطبيب لاول مرة ثم قال :

ـ أرجو بالعناية أن تبرأ بعد ستة اشهر ٠٠ومن الضرورى بعد ذلك ان تبقى عاما كاملا تحت الاختبار ، و ياحبذا لو صبرت نصف عام آخر ٠٠

ونصحه مرة أخرى بالانتقال الى المصحة اذا وسعه ذلك ، ثم وصاه ـ اذا لم يسعه الانتقال ـ بزيارته من حين لآخر ٠٠

وعاد رشدى ينوء بكمده وكربه ٠ وكان كل شىء يبدو كحلم مزعج ٠٠وامتلأت اذناه بل دنياه جميعا بذلك اللفظ المرعب « السل » فهل يصدق ما يقوله الناس ، أو يطمئن بما قال الدكتور ؟ وهل قرر الدكتور ـ بما قال ـ الحقيقة أو أراد أن يفرخ روعه ؟ ٠٠ ولكنه صارحه ايضا بأنه كان من ضحايا المرض ، ولا يجد مسوغا لتكذيبه ، أجل ان ستة أشهر زمن طويل ٠٠ فليتحل بجميل الصبر وليتوكل على الله ٠ ٠ ولو كان حرا يفعل ما يشاء لفضل الاستشفاء فى المصحة ، ولكن دون ذلك فقدان وظيفته ٠٠ وحبيبته ٠٠ ! فما العمل ؟٠٠ ان صحته مهددة ٠٠ صحته التى لم يقدرها حق قدرها الا الساعة ٠ فلم يذكر أوقات العافية والنشاط متحسرا متأوها قبل اليوم ، ولا سبق الى ظنه أن الصحة شىء يزول أو يتغير ٠٠ ولكن ما قيمة الصحة اذا فقد عمله ٠٠ ؟ وما جدواها اذا حيل بينه وبين الفتاة التى شغف بها حبا ؟ فمن الحكمة الا يبرح البيت ، وان يتعهد نفسه بالعناية والدواء دون أن يطلع احدا على سره ٠ وبذلك يسترد صحته محتفظا بسره ووظيفته وحبيبته ٠٠ هكذا تسلسلت أفكاره ٠٠ ويسر له الاقتناع بها والحركة متوفرة ٠ وشرع فى العلاج منطويا على سره حتى أن قواه كانت ما تزال متماسكة ، وقدرته على النشاط شاءت المصادفة أن يطلع أخاه عليه ، فجرح الخفاء ! والواقع انه لم يأسف لذلك كثيرا ، لا لان أخاه قطعة من نفسه فحسب ، ولكن لان صدره بات يتصدع بسره الخطير ، فوجد فى البوح به لشقيقه ارتياحا وسلاما ، فأفضى اليه بكل آلامه ، ما عدا ما يتعلق منها بالمصحة مستوصيا بالحذر ٠٠

٣٥

وأصغى الكهل اليه فى صمت وذهول وحزن عميق ... وزايلته الحالة المضطربة التى كانت تعتور مشاعره نحو أخيه فتسبغ عليها ألوانا متضادة من الميل والنفور ، فلم يعد يشعر نحوه بغير شعور واحد لا يقاوم ، ودرت حناياه له حبا خالصا واشفاقا شديدا وحزنا مبرحا .

بيد أن ذكرى خطرت من الماضى القريب الاسيف ، ولكنه ذبها عن مخيلته بقسوة خجلا ثائرا وامتلأ صدره حنقا على الفتاة التى استثارتها !

وانتهى رشدى من قصته فتبادلا نظرة أسى وحزن وكآبة . ثم قال أحمد :

ـ هذا أمر الله ، ولن نيأس من رحمته .. فينبغى أن نصدق الطبيب فيما يقول .. فليس العهد بالاطباء أن يكذبوا رحمة بمرضاهم .. فالاصابة اذن بسيطة ، ولكن ينبغى أن نحشد لها كل ما فى وسعنا من عناية وحكمة . وان كان يدهشنى أنك لم تفض الى بالحقيقة فى وقتها .. !

فقال الشاب بسرعة وان خالف الواقع :

ـ عرفت الحقيقة قبيل العيد مباشرة فلم أرد أن ازعج أحدا .. ولكننى كنت اتحين الوقت الذى افضى فيه اليك بالامر

وحدك ..!

فقال أحمد بحزن شديد :

ـ هى ارادة الله ، فلنصبر على حكمه حتى يمن علينا بالشفاء ، وهو أرحم بنا من أنفسنا .. والآن فاخبرنى عما عزمت عليه .

فساور رشدى القلق ، ورمق أخاه بحذر وهو يقول :

ـ سأنفذ وصايا الدكتور بطبيعة الحال ، وقد أوصانى بالراحة والتغذية الحسنة وبعض الحقن !

فبدا على وجه الرجل كأنه لم يقنع بما سمع وقال :

ـ ولكن المصابين بهذا المرض يقصدون عادة الى المصحة !

فكذب رشدى مرة أخرى قائلا :

ـ لم يجد الدكتور ضرورة للمصحة !

فلاح الامل فى نظرة الكهل الواجم وقال :

ـ لعلها اصابة تافهة يا رشدى !

ـ أجل .. أجل .. هذا ما أكده لى !

ـ عسى ألا تطول اجازتك !

فعاد القلق يساوره ، وقال بصوت منخفض :

ـ ولكنى لن أطلب اجازة !

فانزعج الرجل وقال بانكار :

ـ فكيف يتم استشفاؤك .. ! اياك وأن تستهتر بالمرض مهما قيل عن بساطة الاصابة وحسبك استهتارا يا رشدى !

ـ معاذ الله أن أستهين بحياتى يا أخى ، وسترى بنفسك منذ اليوم انى سآخذ نفسى بالراحة المطلقة فيما عدا أوقات العمل ، وسأعوض ما أبذله من قواى لعملى بالغذاء المختار والادوية القوية . أما طلب اجازة مرضية فمخاطرة بوظيفتى وبمستقبلى .. !

ـ ألا تغالى فى تقديرك ؟!

ـ كلا يا أخى فاذا عرف طبيب المصرف مرضى استحال على العودة الى العمل قبل الشفاء التام . وقد يقتضى ذلك زمنا طويلا لا آمن معه ان افصل من وظيفتى .. بل الفصل

محتوم فى تلك الحال نظرا لما منحته من اجازات مرضية هنا وفى أسيوط من قبل .

فتجهم وجه الكهل واشتد عليه الضيق ، ثم قال بتألم :

ـ رباه الصحة فوق الوظيفة كيف يتاح لك الشفاء وأنت مجهد فى عملك ؟!

فقال رشدى برجاء وانفعال :

ـ لقد استأذنت الدكتور فى ذلك فأذن لى ، وهو أدرى .. وسيتم الشفاء باذن الله بغير ضياع مستقبلى ، وبغير «فضيحة»

فاشتد التأثر بأحمد وقال مستنكرا :

ـ فضيحة .. ! ليس فى الامر فضيحة .. هذا بلاء من الله .. وكل انسان عرضة للامراض الامن أمرالله له بالسلامة ، ولكنى أخاف ..

ـ لا تخف ، وادع لى ربك . . وستجد منى ما يطمئن خاطرك !

فسكت أحمد مغلوبا على أمره ، وتنهد الشاب بارتياح ، وراح يحدث اخاه بما سوف يتخذه من تدابير الوقاية . فقال له انه سيحضر حامض فنيك لتطهير الحمام والحوض كل صباح ، وانه سيقتنى أوانى خاصة لطعامه وشرابه متعللا بأنها هدية من شخص عزيز ، وأنصت الرجل اليه بانتباه .. ولاول مرة خامره الخوف والقلق .. وخشى العدوى .. وكان بطبعه هيابا موسوسا . أما رشدى فكان يتحفز لضراعة جديدة لا تقل خطرا فى نظره عما سواها ان لم تزد .. فقال :

ـ وهنا لك يا أخى أمر عظيم الاهمية ارجو ان ترعاه بالعناية التى ارعاه بها ، وهو أن يبقى ما دار بيننا الآن سرا دفينا !

فدهش احمد ، وذكر ما قاله منذ لحظات من انه سيقتنى أوانى خاصة متعللا بأنها هدية ، فغمغم قائلا :

ـ ووالدانا ؟!

فقال رشدى بحزم :

ـ لا ينبغى أن يعلما بشىء ، فلا داعى لازعاجهما ، ثم ان فزع امى كفيل بافتضاح السر !

فارتبك الرجل ، وأيقن انه مقبل على حياة مؤلمة غريبه ، فتنهد قائلا :

ـ بيدك الامر يا رشدى ٠٠ فاذا توثبت للشفاء حقا أمكن أن يظل السر سرا ٠٠ أما ٠٠

ـ لا تخف ٠٠ لم تعد الاستهانة ممكنة بعد اليوم ٠٠

وأدرك بسهولة ما يحمل الشاب على اخفاء مرضه حتى عن والديه ٠٠ فانه ليخاف أن ينمو الخبر الى مسامع أسرة فتاته فيهون عليهم بمرضه ٠٠ وتأثر لذلك غاية التأثر ، وتغلغل الحزن فى أعماق قلبه ٠٠ بيد انه خشى ان يكون الشاب قد شق على نفسه بالاستمرار فى عمله ـ على مرضه ـ ليبدو أمام الفتاة وأسرتها كالسليم المعافى ، خشى أن يؤذى نفسه فى سبيل حرصه على الفتاة ، فاستجمع شجاعته وقال بصوت كالهمس :

ـ رشدى ، اذا كنت ترغب عن طلب الاجازة كى يبقى الامر سرا ، فيمكن أن تختلق سببا نعتل به على طلب الاجازة غير هذا المرض !

ولكن رشدى هز رأسه بحدة وقال بلهجة دلت على البرم :

ـ لا تعد الى ما انتهينا منه !

فسكت أحمد ٠٠ ثم نهض بعد فترة وجيزة وهو يقول :

ـ تشدد وكن رجلا كعهدى بك دائما ٠٠ واعلم ان الشفاء رهن بارادتك ٠٠ حفظك الله ورعاك ٠٠

ورجع الى حجرته محزونا ضيق الصدر، وقد استثار الداء الخطير مخاوفه فاهتز فؤاده عطفا على شقيقه المحبوب ٠ نسى فى تلك الساعة انه كان الآلة التى طعن القدر بها آماله ٠٠ او انه الشخص الذى جرح كبرياءه وداس غروره ، ورآه على حقيقته الاخ المحب المحبوب الذى نشأ بين ذراعيه وغذى عواطف الابوة من نفسه عشرين عاما ٠ولما حانت منه التفاتة الى النافذة المغلقة التى سماها يوما بنافذة نوال تحول عنها كالغاضب ، وأبى قلبه ان يذكر الفتاة كأن استدعاءها الى رأسه جريمة لا تغتفر فى حق الشاب المريض ، فينبغى أن

تقطع هذه الكارثة المحزنة ما تخلف من أسباب الذكريات ..
وقال لنفسه : « ذاك شيء انتهى وانقضى ، والتأسف عليه وخز لعواطف الحب التى يكنها قلبى لشقيقى ، وكان يتكلم بحدة دلت على السخط والاستياء .. والحق انه كان ساخطا على نفسه ، فلم ينس أمنيته الآثمة أن تبيد القاهرة ، ولا حلمه المخيف الذى استيقظ منه على تأوهات الشاب ليلة اشتداد الحمى عليه ، رباه .. أى شيطان مقيت فى أعماقه ينفث هاتيك الاخيلة .. !

٣٦

وتوثب رشدى عاكف بحماسة لمقاومة مرضه الخطير ، وواظب على تناول ما أشار به الدكتور من الحقن والادوية ، وخص نفسه ـ فوق طعام البيت المعتاد ـ بأغذية ملحوظة الفائدة كاللبن والبيض والعسل والكبد والحمام ، وأنفق فى ذلك عن سعة • وكان يطلع أخاه على خطى كفاحه أولا فأول ليطمئن فؤاده المحب • ومضى شهر يناير جميعه ببرده القارس على حال تبشر بالخير ، فقنع من يومه بساعة سرور واحدة يمضيها بين تلميذيه المحبوبين ، ثم لا تأتى الساعة العاشرة مساء حتى يكون قد راح فى نوم هادىء عميق • وزايلت البحة صوته وخف السعال فأوشك أن يزول ، وراعه ذلك وأيقن فرحا جذلا انه يتماثل للشفاء ، ولكن هزاله لم يزل ولونه لم يسترد •• وكان يزور الطبيب كل عشرة أيام فوالاه بالنصح ووصاه بمضاعفة العناية ••

وقد كانت أيام المرض الاولى سودا •• فوقع فريسة للاوهام والمخاوف ، خامره شعور مفزع بالقنوط ،وتهيأ له أن حياته تؤذن بالوداع •• حياته التى يكن لها حبا لا يكنه لها أحد من بنيها المخلصين ، وكلما ذكر انه فى القاهرة حيثما

كان ينبغى أن يكون فى حلوان ، وانه فى عمل بينما كان ينبغى أن يكون فى اجازة ، اشتد خوفه وفزعه • بيد أن أولئك الانفعاليين لا يعرفون التردد فيما تدعو اليه أهواؤهم ، ويتخذون من عقولهم ما يتخذه الآثم من المحامى الماهر ، فاستطاع أن يقنع نفسه — حتى فى ساعات خوفه — بوجاهة الرأى الذى ارتآه ونفذه • ولما زايلت صوته البحة وسكت فيه السعال أو كاد ، غمره الارتياح ، واسترد ثقته بنفسه • وشعوره بالامان • وتعلقه بالامل • وتساقطت الطمأنينة على فؤاده المروع قطرات من السكينة والرحمة • ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى عاوده شعوره بالجسارة ونزوعه الى الاستهتار ، وألح عليه حبه العميق لمسرات الحياة ، فلم يعد المرض وخطره شغله الشاغل ، ورمق صبره وقوة ارادته بعين الاعجاب ، وذكر شهر يناير — الذى أذعن فيه لما عاهد عليه نفسه أمام أخيه — بالدهشة والاكبار ، وكأنه لا يصدق انه استطاع حقا أن ينزوى ويستقيم شهرا كاملا • ومن فرجة الامل الباسم سمع مسرات الحياة — مسرات حياته — تناغيه بهمساتها الساحرة كتغاريد البلابل فى الصباح الباكر ، فذكر فى وحدته الاخوان وكازينو غمرة والليالى الصاخبة • فتخايلت لعينيه وجوههم المرحة ، ورنت فى أذنيه أصداء ضحكاتهم المجلجلة ، ودعاؤهم له بقلب الاسد ، كنيته التى يحبها ويطرب لها ويخاف عليها عوادى النسيان • يا لهم من اخوان لا تطيب الحياة الا بهم • ما أظرفهم وما ألطفهم • وهل يمكن أن ينسى كيف انثالوا على السؤال عنه بالتليفون فى المصرف حين انقطع عنهم ؟! أين انت يا عم رشدى ؟ ما هذه الغيبة الطوية ؟ لقد كنت فى أسيوط أقرب الينا منك وأنت فى القاهرة •• الا يبقى كرسى قلب الاسد شاغرا ••؟ وحشتنا نقودك •• ! ولكم ضاحكهم ودافعهم واعتذر لهم بمشاغل هامة ! وأهاجه الحنين الى الصحاب واستفزه الشوق الى المرح واستهاته اللهفة على اللذات ، وجعل يقول لنفسه هل فى لقاء ليلة حرج ؟ هل تقتل سهرة أو تميت ؟ والحق أن هيامه بالحياة

لم يفتر بسبب الداء ، بل الارجح انه غدا أرهف حسا واعنف نشاطا وأضرم حبا وولعا ثم استحر الاغراء فانعدم التردد ، ووجد لخلاصه من عذاب الحيرة ارتياحا فراح يدندن بصوت رخيم « ما اقدرش انساك » ولم يكن ترنم بغناء منذ شهر ونصف · وعند ما أتى المساء تلفع بمعطفه وأحكم الكوفية حول عنقه ومضى الى السكاكينى ، وما ان لاحت بعينيه حديقة كازينو غمرة حتى هتف من أعماق الفؤاد « أهلا وسهلا ومرحبا » وتلقاه الاخوان بالسرور ، فاستسلم لتيارهم الجارف وأخذوا فى الحديث الماجن كعادتهم طويلا ·· ثم انتقلوا الى البهو الداخلى يدخنون ويشربون ويقامرون ·· وخاف أن يمتنع عن لذة فيثير الظنون · ورغب من ناحية أخرى أن يتناسى ـ فى يقظة الامل ـ انه يطوى فى رئته اليسرى ما تقشعر الابدان لذكر اسمه ، فدخن بسرور وشرب كأسين من الكونياك بعثت الدفء فى جسده البارد ، وقامر أيضا وان تردد قليلا لان تكاليف التداوى أرهقت ميزانيته ، ولكن الحظ ابتسم فربح زهاء الجنيهين ،وآب مسرورا وان شعر بحرارة تلتهم أنسجته ، وأجهده المشى فى الجو القارص ، وبلغ البيت فى حالة مضعضعة من الاعياء ·· وما ان أغلق الباب فى هدوء حتى انفتح باب حجرة أحمد ولاح الرجل وراءه ، فدعاه الى حجرته ، ومضى اليها مرتبكا يمشى على استحياء ·· وهتف به أخوه :

ـ ماذا فعلت ؟ ·· هل جننت ؟ أهذا ما اتفقنا عليه ؟!

فلاذ بالصمت وقد ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة تدل على الارتباك والحرج فاستدرك احمد :

ـ هذا فوق التصديق · وما دريت به حتى نبا بى الفراش · وظل نومى خفيفا قلقا حتى أيقظتنى صفقة الباب · أهذا ما اتفقنا عليه ؟

وخرج رشدى عن صمته بأن قال بصوت منخفض :

ـ أنت تعلم يا أخى أنى حافظت على الاتفاق شهرا كاملا ، ثم نازعتنى نفسى الى أن أروح عنها قليلا ··

ـ هذا كلام انسان يجهل الحقيقة أو يتجاهلها . ألا تعلم أن استهتار ليلة واحدة يهدم ما بنيته فى شهر كامل ؟

ـ ولكنى فى الواقع أشعر بتحسن كبير)

فقال أحمد بحدة :

ـ أنت تخدع نفسك ، وتقسو عليها بجهلك ، وتركك حرا خطأ كبير ، ولو كان الدكتور يعلم بما فطرت عليه من استهتار لحتم عليك أن تنتقل الى المصحة غداة الكشف عليك ..

فتجلى الحزن فى عينى الشاب ، وتكدر صفوه ، وكان الجهد قد أعياه ، فقال كالمعاتب :

ـ لا تكن قاسيا على غير عهدك !

ـ ها أنت لا تفرق بين الحنان والقسوة، فتدعونى قاسيا جزاء قلقى وسهادى واشفاقى ، فلكم تقسو على نفسك وعلى !

واشتد بالشاب الاعياء والتأثر ، فأغرورقت عيناه ، مما أسكت أحمد وحوله الى اشفاق وتألم وعدم ارتياح ، فوضع يده على كتف الشاب وقال بهدوء :

ـ حسبك تعبا وحسبى ألما فلا تبك لا بكيت ابدا . ولن أزيدك فالله وحده كفيل بأن يلهمك الصواب . ان قلبى يخاف عليك ويدعو لك فامض الى فراشك واتق الله فى صحتك !

وجعل يتساءل منزعجا ترى هل يستعيد الشاب سيرته الاولى من الاستهانة بالرغم من مرضه الخطير !؟

٣٧

واستقبلت الدنيا أيام فبراير الاولى مشفقة من رياحه العاصفة وزوابعه الباردة المزمرة ، وقد تلفعت السماء بأردية ثقيلة داكنة من السحاب الجون ، فأمست الارض ، كفرخ فى بيضة ، ترقب الربيع لتشق حجاب الظلماء عن بهجة النور وعبير الازاهر . وظل رشدى جسدا مهزولا فى قرارته ضرام لا يخمد من العواطف والاحاسيس ، وفى قلبه تمرد ثائر على الاغلال التى صفده بها المرض الخطير . وكان الطبيب أعاد الكشف عليه أخيرا وقال له ان حالة الصدر لم تتحسن ! فخاب أمله ، وتنغص عليه سروره السابق بشفاء صوته وسعاله ، لقد صبر طويلا ، وهجر الحياة التى يعشقها ، وكان يرجو ويأمل ، فمتى يتحسن اذا ؟ والادهى من ذلك أن الطبيب ألح عليه أن يجد سبيلا الى حلوان ، فهل أيس الرجل من أن يسعى الشفاء اليه فى القاهرة ؟! وما جدوى العذاب والصبر اذا ؟ وفضلا عن هذا فأخوه لا يخفى عنه عدم ارتياحه لهزاله وشحوبه ، فبات ساخطا متبرما .

وكان ذات مساء يلقى درسه على تلميذيه ، فكلفت نوال أخاها أن يحضر كوبا من الماء ، ولما خلا لهما المكان قالت للشاب بسرعة متسائلة : « ألا تستطيع ان تقابلنى صباحا كما كنت تفعل ؟.. ولو مرة واحدة ! » . فخفق قلبه خفقة السرور وقال دون تردد: متعاميا عن العقبات جميعا : « غدا صباحا ! » . ثم ذكر أخاه الذى صار سجانه فقال لنفسه : « انه سلم بضرورة خروجى

صباحا الساعة الثامنة فما يضيره لو قدمت الميعاد ثلاثة أرباع ساعة !» . ونهض مبكرا فى اليوم الثانى ، وتناول فطوره الدسم ورصد أخاه حتى دخل الحمام فانطلق الى الخارج كالهارب . ورأى فى الممر المفضى الى السكة الجديدة حبيبته تسبقه بخطاها الخفيفة مرتدية معطفها الرمادى ، متأبطة حقيبتها فطرب قلبه طربا نساه شجونه . ثم صعد فى أثرها طريق الدراسة ، فذكر كيف كان يصعد هذا الطريق فى أعقابها صحيحا معافى صافى أديم الفؤاد ، وتنهد من اعماق فؤاده متحسرا مغمغما « ما أنفس كنز الصحة!» ورفع بصره الى جبل المقطم وقد اطبقت السحب على قمته ، وكانت السماء تذكره دائما بربه ـ فدعا الله ان يأخذ بيده .

ولحق بها بعد المنعطف ، وأخذ يمناها بيسراه ، فعطفت رأسها نحوه وعلى ثغرها ابتسامة ، وقالت تداعبه بلهجة لم تخل من عتاب :

ـ أهان عليك طريقنا هذا أيها الغادر ؟

فهز رأسه متأسفا وتمتم :

ـ لعن الله البرد !

ـ كان ينبغى أن تبرأ منذ أمد طويل ، فما هذا التلكؤ !؟

فامتعض قليلا وقال :

ـ أجل . وما بقى فهو هين .. والحق ان اهمالى هو المسئول الاول !

وكانت تعلم طبعا انه انقطع عن لقاء الصباح بسبب السعال ، فلما زايله السعال تشجعت ودعته الى مرافقتها شوقا الى الانفراد به . وقد اختلست نظرة من وجهه الشاحب النحيل وقالت له :

ـ ألا تدرى ماذا تقول عنك نينة ؟

فخفق فؤاده . وخشى أن يسمع تلميحا لبقا الى مسألة « الخطوبة » ، وسألها :

ـ ماذا تقول يا ترى !

ـ قالت لى ضاحكة : ما بال استاذك نحيفا كالخيال ؟.. هلا تقبل منى وصفة للسمن !؟

وضحكت نوال ضحكة رقيقة ، فجارها فى ضحكها ، ليدارى

شعورا بالحزن غشى صدره ، وساوره القلق ، ولكنه لم ير بدا من ان يقول بلهجة تكلف بها السرور :

ـ وما حاجتى الى السمن والنحافة موضة ! أبلغيها شكرى لها وقولى لها انى طامع فى المزيد من النحافة ..

وقطبت فجأة كأنما ذكرت أمرا ذا خطر وقالت بلهجه التعنيف

ـ على فكرة يا ماكر !.. يحلو لك احيانا ونحن حول مائدة الدرس أن تداعب قدمى بقدمك متجاهلا أن قدميك منتعلتان وقدمى عاريتان !

فضحك رشدى ، وقد تورد وجهه ، وقال :

ـ نفسى فداء لقدميك العزيزتين !

ومرا عند ذاك بالقهوة المعروفة بنادى الصحراء ، فقالت له وهى تومىء الى النادل وكان يتناول فطوره :

ـ ألم تدر أن هذا النادل الخبيث فطن الى تواعدنا كل صباح فلما رآنى أسير وحدى الايام الماضية جعل يصفق بيديه كلما مررت به ويقول وكأنه يحدث نفسه : « أين أليفك يا بلبل ؟.. كل الاحبة اثنين اثنين ! » .. رباه .. لكم تولانى الحياء حتى كدت يغمى على !

واسترسلا فى الضحك مرة أخرى ، وكانا يقتربان من منعطف الطريق الذى توجد على جانبه مقبرة عاكف الخشبية . ولمحتها الفتاة فقالت :

ـ أنتم مدينون لى بمائة رحمة على الاقل ، لانى أقرأ الفاتحة لمقبرتكم كل صباح !

فقال لها مبتسما :

ـ أنت يا نوال رحمة للجد وعذاب للحفيد !

ثم امتد بصره الى المقبرة فسرعان ما خطر له خاطر مخيف كأنه شيطان انشقت عنه أرض الموتى ، هل يجرى القضاء غدا بأن تقرأ فتاته ـ وهى آخذة فى طريقها هذا ـ الفاتحة على روحه هو ؟! وانقبض صدره ، ثم استرق الى وجهها الاسمر نظرة غريبة فشعر بأنها كل أمله فى الوجود ، وبأنه اذا جاز لشىء أن يسخر من الموت ويستهين بمخاوفه فهو اتحاد قلبين متفانيين ، ووجد

دافعا قويا يدعوه الى التعلق بها ، وضمها الى قلبه ، بل الى شغاف قلبه اذا أمكن . ولاحت منها التفاتة اليه فطالعت نظرته الحالمة ، فلاح في وجهها الجد ، وسألته :

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟

فقال بصوت متهدج :

ـ لانى أحبك يا نوال .. لقد أدركت ـ وأنا أنظر الى القبور على ضوء عينيك ـ معنى القول ان الحياة الحب . وقالت لى القبور ان كل ساعة نرضى بأن تفرق بيننا جريمة عقابها ظلمة القبر وسمعت صوتا يهتف بى : لله ما احمقكم ، تضنون بالتافه من الاشياء عن العبث وتعبثون جزافا بنعمة الحياة ..

فتورد خداها ، وأضاءت عيناها الصافيتان بنور الوجد ، فلم يعودا (هو وهى) يشعران بهبات الهواء البارد المندفع من الصحراء ، وشد على راحتها وسارا صامتين ومضى يتساءل ترى كيف يسوغ أن يمسك عن ذكر « الخطبة » بعد كل ما قال .. ! وكانت تتوقع من ناحيته أن يطرق الموضوع المحبوب قبل كل خطوة تخطوها ، ولكنه لزم الصمت حتى شارفا نهاية الطريق . وتوادعا ثم افترقا ، فبطؤت حركته وهو يتابع مسيرها بنظرة استجمعت فى حنانها جميع ما فى قلبه من حب ووجد وحزن .. حتى انعطفت مع الطريق الى العباسية .. وأخذ فى طريقه الى محطة الترام ، وعند ذاك فحسب شعر بالاعياء واضطراب الانفاس ودوار يوشك أن يصير غثيانا ...

***

ولذلك لم يفته أن يحدث أخاه عن الخطبة وعما عسى أن يحدثه امساكهم عن فتح موضوعها من سوء الظن فى نفوس آل الفتاة ، ولكن أخاه ـ وكان غاضبا لعودته الى الخروج المبكر ـ لم يوافق على مفاتحة كمال خليل افندى بهذا الشأن قبل الشفاء الكامل . قال للشاب :

ـ اعتل بما تشاء من المعاذير فأنت أستاذ فى اللباقة ، ولكن لا يجوز أن نتكلم رسمياقبل أن تشفى تماما ان شاءالله .

سيكون أعلان الخطوبة مكافأة الشفاء فأرنا همتك ٠٠ !

وعجز الرجل عن اقناعه بالعدول عن الخروج الباكر والتعرض لاذى البرد ، فآيس منه وسلم الى الله سائلا اياه اللطف والرحمة ٠٠ وكان ممن يشفقون بآلام الاقربين ، فتجد الاوهام والمخاوف من صدورهم الضعيفة مرعى خصيبا للهواجس والاحزان ، فصار مرض شقيقه ـ منذ اللحظة الاولى ـ شغله الشاغل وهمه الملازم وشوكة سامة في جانب طمأنينته

وامتد خوفه الى نواحى أخرى حتى ألقى به فى النهاية فى مواجهة مشكلة من أدق المشكلات الخلقية ، لم تكن لتخطر له على بال ٠ فلم يغب عن ذهنه أن شقيقه يلتقى بالفتاة كل صباح ، وربما انفرد بها مساء وهو يجلس منها مجلس الاستاذ ٠٠٠ فاذا أغراه الهوى ـ شأن المحبين ـ بقبلة ، أفلا تتعرض الفتاة لاذى بعيد الغور ؟ آ ألا يدرك رشدى خطورة الامر ؟!٠٠ ألا يجد من ضميره وازعا ؟! ولكن كيف بمن يستهين بحياته أن يعرف لحياة الآخرين قيمة ؟ ٠٠ وتفكر فى الامر طويلا ، متكدرا مغتما ، لا يدرى كيف ينقذ من الهلاك فتاة بريئة ٠٠ وبدت حيرته ذات بواعث أخلاقية صافية ، ولم يداخله شك فى أنها كذلك ٠٠ ولا كانت تخلو فى الواقع من شعور أخلاقى عميق ٠٠ ولكنه لم ير ما عداها على نزوعه الطبيعى الى تفحص نفسه ، أو أن العين فى أحايين كثيرة لا ترى اذ ما تحب ان تراه ٠٠ فتكدر واغتم ، وافضى به الكدر والغم الى حيرة شديدة، فلا هو يستطيع أن ينمى الحقيقة الى كمال خليل لان خيانة أخيه الحبيب جريمة نكراء لا يمكن أن يجترحها ، ولا هو يستطيع أن يكاشف الشاب بمخاوفه أن يصيب مقتلا من نفسه الحساسة الرقيقة ٠٠ وعذبه التردد والاشفاق ٠ ولم يكن أبدا ذا عزيمة أو ارادة ، فنكص على عقبيه بقلب خائر وفكر مشتت ٠٠ وظلت المخاوف تطارده وتلح على ضميره حتى بلغ منه الاعيا والكلال فتساءل فى يأس وقنوط « اليست نعيبوبة المعلم زفتة خير من هذه الحياة ؟ » ٠٠

٣٨

وزادت حال رشدى سوءا ، فاشتد هزاله وشحوبه ، ولكنه بدا مستهترا سادرا كأن الامر لا يعنيه . ولم يعد يقنع برحلات الصباح فى طريق الجبل ، فكان كلما نازعه الشوق الى كازينو غمرة انطلق الى الاخوان يعربد معهم حتى مطلع الفجر ، وكان أحمد يقول له مبكتا « آتروم الانتحار ؟ » ... والحق انه انحدر فى سبيل الانتحار بلا قصد . وعجز عن مقاومة ميله الطبيعى للذات .. وأذعن للحساسية المرهفة الجديدة التى أحدثها المرض فى نفسه . وحجب العاقبة عن عينيه طبيعته الجسورة المتفائلة . فلم يفقد الامل قط .. أو لم يفقده الا لحظات عابرة وظل على عهده من الجسارة والاستهانة والابتسام . ولكنه فوجىء بعودة السعال بل عاد أعنف مما كان فى أسوأ حالاته . ثم تتابعت عليه نوباته ، وتلوث بصاقه مرة اخرى بالدم ، ولفتت نوبات السعال الموظفين اليه فى المصرف ، فساورتهم الشكوك . وأمسى عمله عديم الجدوى .. وتنبه الوالدان للخطر الذى يهدد ابنهما ونصحا له بالانقطاع عن عمله حتى يسترد صحته .. ولكنه بالرغم من ذلك كله ظل يكافح متعلقا فى جنون بمظاهر الاصحاء المعافين . ولم يستطع أحمد صبرا فدعاه يوما الى حجرته وقال له بحزم :

ـ الام تتغاضى عن خطورة الحال ؟

فسأله الشاب فى استسلام لم يتوقعه .

ـ بماذا تشير على ؟

ـ لا يجوز بعد اليوم أن تواصل عملك فضلا عن السهر والعربدة !

ـ واذا انفضح سرى ؟

فقال أحمد بتأثر شديد :

ـ ليس المرض بالفضيحة ، وللضرورة أحكام ؟

فأطرق رشدى وقد خارت عزيمته وتنهد من فؤاد مكلوم قائلا :

ـ الامر لله .. !

ونجم استسلامه المفاجىء عن الاعياء ـ لا الاقتناع ـ ولذلك ما كاد يقرر طبيب المصرف سبب مرضه الحقيقى ويمنحه أولى أجازاته المرضية حتى خارت قواه ، ورقد على الفراش صريع الضعف والسعال . وأخفى أحمد الحقيقة عن والديه ، ولكن الحالة اشتدت اشتدادا مخيفا ، ورأت الام البصاق الدامى وعلم به الوالد ، ففزعا فزعا شديدا ، وروع قلباهما الضعيفان . ودعت الحاجة الى استشارة الطبيب ، فاقترح أحمد ان يدعوه الى البيت ولكن رشدى اختار أن يذهبا اليه معا ، فارتدى بذلته بمساعدة أمه ، وقد اتسعت عليه أيما اتساع ، واستقلا عربة الى عيادة الطبيب . وصحبه أحمد الى حجرة الكشف . ولما وقع عليه بصر الطبيب ، ولم يكن رآه من أسبوعين ، قال له بصوته الرفيع وهو يتظاهر بالابتسام :

ـ ماذا فعلت بنفسك ؟

فابتسم رشدى ابتسامة باهتة وتمتم قائلا :

ـ السعال .. وضعف شديد !

وأجرى الدكتور الفحص ، فساد الصمت برهة غير قصيرة ثم قال بعد الانتهاء :

ـ كلمة واحدة لا أزيد عليها : المصحة .. !

فتجهم الوجه المصفر ، وتساءل صاحبه بصوت خافت :

ـ هل زادت الحالة سوءا ؟

فرفع الرجل حاجبيه وقال :

ـ هى الحقيقة .. ولا شك انك لم تتبع نصحى .. ولكن لا داعى للخوف اذا بادرت بالذهاب الى حلوان . سافر اليوم

ان أمكن .. وستجدنى هناك الى جانبك !

وسأله أحمد :

ـ هل تطول اقامته فى حلوان ؟

فقال الرجل :

ـ علم هذا عند الله .. ولست متشائما .. ولكن لا يجوز الابطاء ..

ورجعا الى البيت فوجد الوالدين ينتظران فارغى الصبر ، وبادر الوالد أحمد قائلا :

ـ ماذا به ؟

وعلم أحمد أن الكذب لن يجدى فقال واجما ، وباقتضاب ذى مغزى :

ـ المصحة !

وساد الصمت ، واحمرت عينا الستدولتمنذرة بالبكاء، وتمتم الوالد :

ـ ربنا يلطف بنا ..

فقال أحمد متصنعا السكينة :

ـ ليس هناك ما يدعو للقلق ، ولكن لا محيد عن المصحة !

وكان رشدى لا يزال نافرا من المصحة ولكنه لم يجرؤ على قول « لا » بعد ما صار اليه حاله ، فدعا أخاه الى جانبه وقال له بتوسل وعلى مسمع من أمه :

ـ لتكن المصحة اذا شئت ، ولكن ..

وأومأ الى النافذة ، واستدرك ..

ـ ولكن لا أحب أن يعرفوا الحقيقة !

فاشتد التأثر بالرجل . وخفق فؤاده بحزن عميق وقال :

ـ لا تخف .. فمن السهل أن نقول انك مصاب بمـاء فى الرئة أوجب سفرك الى المـ ـة !

فتساءل رشدى محزونا :

ـ وهل يجوز هذا عليهم ؟

فقال احمد :

ـ أن التداوى من ماء الرئة يستدعى زمنا طويلا ، ومهمـا يكن من أمر فالعناية بصحتك أولى بالاهتمام مما عداها ..

٣٩

ولم يضع أحمد وقتا ، فقام بالاجراءات المتبعة لالحاق شقيقه بالمصحة مستعينا بتوصية من الطبيب المداوى ، ووجد أن سريرا سيخلى فى أول مارس لانتهاء مدة علاج صاحبه ، فتقرر انتقال رشدى من ذاك التاريخ . وفى المدة القصيرة التى سبقت السفر عانت الاسرة آلاما مبرحة وكان رشدى يكابد من السعال عذابا مضنيا وسهادا متقطعا . وغرق الوالدان فى حزن ذاهل وتكدر صفوهما ، ولاحت فى أعينهما نظرة واجمة امتزج فيها الرجاء بالخوف . ووقع أحمد فريسة لهواجسه ، فانقلبت حياته غما وجزعا . وعاد كمال افندى خليل الشاب وأكد له أن « ماء الرئة » لاخطر منه البتة مع العناية .. ! ثم زارته الست توحيدة ونوال ـ ولم يكن أحمد بالبيت ـ وقالت له ان غرامه بالنحافة هو الذى أدى به الى المرض ، وتعهدت له ضاحكة ، بأن تتولى تسمينه بعد الشفاء ولم تدر نوال ماذا تقول على مسمع من الوالدين .ولم يستطع الشاب أن يديم اليها النظر . ولكن عينيه التقتا بعينيها فى لمحات خاطفة فتجاوبت رسائل الحب والشكروالحزن الصامتة، وسر رشدى بالزيارة سرورا لم يشعر بمثله منذ استسلم للرقاد .. وبعد خروج المرأة وابنتها أعرب لامه عن خوفه من افتضاح حقيقة مرضه ، ولكن المرأة المحزونة طمأنته قائلة ان مرضه سر مطوى فى صدور محبيه .

وفى صباح اليوم الاول من مارس حملت عربة الشقيقين الى محطة باب اللوق . وكان دعاء الاب آخر ما سمع رشدى

فى البيت ، وكانت دموع الام آخر ما رأى . وفى الطريق قال الشاب لشقيقه :

ـ اذا طالت مدة التداوى فصلت من عملى حتما !

فقال له أحمد بثقة :

ـ وحتى لو حدث هذا ـ لا قدر الله ـ فعودتك الى عملك مرة أخرى أمر يسير .. لا تشغل نفسك بغير الشفاء !

ثم انتقلا الى الديزل ، فانطلقت بهما فى طريق حلوان . وجلسا جنبا الى جنب . وكان أحمد صامتا يلوح فى وجهه النحيل الهم والفكر ، وكان رشدى يسعل من حين لآخر . وعجب أحمد لسوء الحظ الذى يلاحق أسرته ، فقد فقدت غلاما وها هو رشدى يصاب بالداء الخطير ، أما هو فقد نصبه الدهر هدفا للعثرات والاخفاق ! .. ولو قنع الدهر به فدية لكفاه ولكنه لا يقنع ! واختلس من الشاب نظرة فهاله هزاله ، وضمور رقبته . وذهول عينيه . وشباب النظرة اللامعة الساخرة منهما . فتنهد وقال لنفسه حسرا : « رباه .. متى تنكشف الغمة ؟ .. متى أفتح عينى وأجد من هذا الشقاء المائل الا أطياف ذكريات منقضية ! » .. ونظر الى الخارج خلل زجاج النافذة فجرت امام ناظريه الابنية والفيللات فى حشد طويل ، ثم انسابت القاطرة بين حقول ممتدة من النضرة والخضرة والمناظر الريفية الفاتنة ثم أقبلت الصحراء اللانهائية الجرداء يحف بأفقها الجبل الشامخ . فاستثار تتابع المشاهد ما بين أبنية وحقول وصحراء جرداء عاطفة كئيبة فى صدره ، فامتلأ شجنا وأسى .

وبلغت القاطرة حلوان ، فتركاها وقد نهكت الرحلة الشاب المريض ، واستقلا عربة الى المصحة . وسارت بهما تتهادى فى طريق مقفر . وتراءت لهما المصحة فوق سطح الجبل كقلعة هائلة ، فرنا اليها الشقيقان بقلبين خافقين ، وقال أحمد :

ـ الفاتحة ان ربنا يأخذ بيدك ويمن عليك بالشفاء ويخرجك من هذا المكان مجبور الخاطر ..

وانتهيا الى المصحة ، واستقلا المصعد الى الطابق الثالث ، ودلتهما ممرضة على الحجرة التى يقصدانها ، وكان بالحجرة سريران ، يرقد على أحدهما شاب فى مثل سن رشدى وفى مثل هزاله وصفرته فتبادلوا التحية باسمين . واستراح رشدى حتى استرد أنفاسه ، ثم غير ملابسه بمعونة شقيقه ، واستلقى على الفراش ، وجلس أحمد امامه على كرسى مريح . وأومأ الرجل الى الشاب المريض الغريب . وقال مخاطبا شقيقه :

ـ ستجد فى صاحبك خير رفيق،فتعاونا على قتل الوقت. وتبديد وحشة الوحدة .. حتى يأذن الله لكما بالخروج سالمين غانمين !

ومضى يتحدث مع شقيقه حينا ،ومع صاحب السرير المجاور حينا آخر ـ وقد علم أن اسمه أنيس بشارة وانه طالب فى السنة النهائية بكلية الهندسة ـ والظاهر أن الرحلة اعيت رشدى فاعتراه تعب شديد . واستلقى فى خور وخمود .. ومكث أحمد معهما حتى اطمأن على الشاب ، ثم نهض لينصرف وقد شعر وهو يضغط على راحة الشاب مودعا بدمعة تتحرك فى مجرى الدموع من قلبه ، فقرض على أسنانه ليمنعها من الصعود الى محجريه ، وغادر الحجرة . وخال فى الخارج انه رأى عينى الشاب كالمنذرتين بالبكاء وهو يسلم عليه ، فنازعه قلبه الى العودة اليه مرة أخرى ، ولكنه قاوم عاطفته ومضى فى سبيله . واخترق دهاليز طويلة تفتح عليها أبواب عنابر المرضى ، ورأى الاشباح الآدمية فى الثياب البيض الفضفاضة، فاقشعر بدنه . ووجف قلبه . وظل وهو آخذ فى الطريق الى المحطة يعاود النظر وراء ظهره الى بناء المصحة الشاهق ويتمتم بالدعاء .

وفى مساء ذلك اليوم باتت أسرة عاكف فى وجوم وكآبة وقد لاحت فى عينى الاب نظرة شادة . وبكت الام حتى دميت عيناها . وحاول احمد أن يخفف عنهما بحديث الرجاء والامل ، ولكنه كان فى الحقيقة فى حاجة الى من يخفف عنه ..

٤٠

وانتظرت الاسرة يوم الجمعة ـ يوم الزيارة فى المصحة ـ بصبر فارغ • وقر رأى كمال خليـــل أفندى على أن يصحبهم هو واسرته • وآخذت الاسرتان للزيارة اهبتهما • فابتـــاع احمد لاخيه صندوق بسكوت بالشيكولاتة ، وأعـدت الست توحيدة ـ والدة نوال ـ له كعكا عرفت باتقان صنعته • وعند الضحى ذهبوا جميعا ـ الرجال الثلاثة والسيدتان ونوال ـ الى محطة باب اللوق ، واستقلوا قاطرة الديزل • وجلســوا متقابلين • الرجال فى ناحية والنساء فى الاخرى وبذلك وجـد أحمد نوال جالسة لقاءه •• ! وتجنب •• منذ اللحظة الاولى• أن ينظر اليها ، ولم يكن رآها منذ ذاك اليوم الذى كشف له عما كشف ، بيد أن وجودها على بعد قدم منه أيقظ الذكريات وحرك الاشجان ، وخاف مغبة الاستسلام للخـواطر فتشاغل بالحديث مع كمال خليل تارة • وبقراءة الاهرام تارة أخرى • والواقع انه لم ينجح الا فى تجنب النظر اليها ، ولـكنه غلب على أمره ازاء سيل خواطره الجارف • وأنى له أن ينسى امله الخائب ! أو سخطه المر القديم على شقيقه ! أو مرض شـقيقه الذى جعل من سخطه القديم عليه جرحا فى ضميره لا يلتئم ! وهل ينسى انه خاف يوما على الفتاة من العـدوى ! وانه حام حول اتهام شقيقه بتعريض حياتها للهلاك ! كل أولئـك آلام جعلت من حياته مرتعا للنار ، حتى صدق قـوله لنفســه مرة « لقد أصيب رشدى فى صدره ، وأصبت أنا فى عقلى ! » ••

ثم تساءل ترى ماذا يخطر لها من الافكار حين يقع بصرها على شخصه أمامها ؟آ هل يثير المـا ؟ خجلا ؟ ٠٠ آلا يجـــوز أن تأسف ان لحقت العلة بحبيبها متعامية عن هذا الـكهل ؟ ولو فعلت ما جاوزت القصد ولا حادت عن الانصاف ٠ فما فائدة حياته ؟ وما وجه الانتفاع بصحته ؟ ووجد لتوه ذاك الشعور بالاضطهاد ، المؤلم اللذيذ معا ! ٠٠ وحقيقة اخرى لم تغب عنه وهى أنه مرتاح رغم تجنبه النظر اليها ٠٠! لمـاذا ياترى ؟ هل يرغب أن يمتنحن قدرته على النسيـان والتأسى ؟ أو يريد أن يشبع رغبته القديمة فى ان يريها قوته على تجاهلهـا والترفع عنها ؟ ثم افاق لنفسه قليلا ٠ فكبر عليه ان تكون تلك خواطره وهو ماض لعيادة المريض ! وبلغ منه الالم حدا تمنى معـه لو كانت الجراحة تستطيع بتر الفاسـد من النفس ، كما تبـتر الفاسد من الاعضاء !

وانتهت الرحلة ، وساروا فى الطريق وأبصـارهم عالقـة بالمصحة ٠ وقوى امل احمد ان يجد الشاب احسن حالا ـ وان لم يمض فى المصحة سوى ثلاثة أيام ـ لاخلاده الاجبارى الى الراحة ووجوده فى الجو الموافق٠وتقدمهم جميعا نحو الحجرة ، وسبقته عيناه الى السرير ٠٠ كان رشدى راقدا ٠ وقد شعر بحضورهم ، ولكنه لم يحرك ساكنا ، الا ابتسـامة خفيفـة باهتة ارتسمت على شفتيه الذابلتين وهو يتلقى تحيات القادمين الذين أحاطوا بفراشه ٠ وخاب أمل الرجل ٠ وروع لمـا رأى من تدهور الشاب ، فلم يشك ان حالته ساءت عما كانت عليه : يوم أتى به وحار فى تفسير ذلك وانقبض صـدره ، وجلس الزوار ، ووضع البسكوت والكعك على خوان قريب من السرير ولمـا رآهما رشدى قال بصوت ضعيف :

ـ أنا لا أكاد أتناول طعاما ٠٠ لا شهية لى البتة ٠٠

فسألته امه بقلق وهى تتفحصه بعينـين حاولت الا يلوح فيهما شىء من الانزعاج المستولى عليها :

ـ ألا يعجبك طعام المصحة يا رشدى ؟

ـ الطعام جيد ، ولكنى فقدت شهيتى !

فقالت الست توحيدة :

– لا تخف فهذا شأن المرض أول عهده ، وغدا تلتهم الطعام التهاما بفضل هذا الهواء الجاف النقى .

فابتسم الشاب اليها – والى نوال بالتالى لانها كانت لصقها – ثم قال موجها الخطاب لاحمد :

– كانت الليالى الثلاث الماضية شديدة الوطأة على ، اضطرب فيها نومى وتقطع ، واشتد على الالم ، ولم يكف عنى .

ولم يتم جملته ، فأدرك أخوه انه أمسك حذرا عن ذكر « السعال » فأيقن فى تلك اللحظة ان اصطحابهم أمه كمال خليل – على ما فيه من سرور – كان خطأ كبيرا ، ولكنه أراد أن يشجع الشاب فقال :

– على رأى تيزتك فهذا شأن المرض أول عهده . وستجتاز هذه الشدة بعون الله ، وتخرج منها سالما .

ولكن رشدى قال بلهجة دلت على التوسل :

– أليس الافضل أن أعود الى بيتنا ؟

ورأى احمد امه تهم بالموافقة على رغبته فبادره بقوله :

– سامحك الله ! بل قل انك لن تبرح حجرتك حتى تسترد صحتك وفتوتك ، ثم تقفل الى القاهرة مشيا على الاقدام ! ومن حسن الحظ أنى أراك متحسنا تحسنا محسوسا !

وقال كمال خليل يساهم فى تلك الكذبة المفيدة :

– أجل يا رشدى افندى انت .. اليوم أحسن حالا بلا شك !

وحدقت الام بصرها لعلها تصدق ما يقولان ، بينما راح أبوه يقول بصوته الهادىء المنكسر :

– الصبر .. الصبر يا رشدى .. وربنا يرعاك ويأخذ بيدك ...

فسكت رشدى ، ولكن على رغم . ولم يغب ذلك عن أخيه الذى يحسن فهمه وكان يعلم انه لايقتنع بغير رأى نفسه، ولا يعمل الا بمشورتها ، فأيقن انه اذا كره المصحة فلن يصبر عليها ، ولن تعود عليه اقامته فيها بنفع يذكر . وازداد

حزنا على حزن . واسترعت انتباهه حركة آتية من السرير الاخر ، فنظر اليه ، ورأى زميل أخيه جالسا فى فراشه ، فتولاه الخجل لانه نسى - فى غمر حزنه - أن يحييه ، فقال له وهو يرفع يده له بالتحية :

- كيف حالك يا أنيس افندى .. ؟ لا تؤاخذنا ..

فضحك الشاب قائلا :

- العفو يا بك .. الظاهر ان رشدى يرغب فى هجرنا !

فقال رشدى متأسفا :

- لكم أزعجت نومك .

فقال الشاب مبتسما :

- لا داعى للاسف على ذلك ، فسهر الليل لا يضايقنى بتاتا ..

فابتسم أحمد وقال :

- الظاهر انك من عشاق الليل كرشدى !

- نطقت بالصواب يا سيدى ، وها نحن أولاء يعلمنا الدهر انه ينبغى أن نقلع عما كنا نعشق ..

ودعوا لهما بالشفاء .. ونهضت أم أحمد الى الخوان ، وأتت بصندوق البسكوت ، ووضعته الى جانب رشدى وفى متناول يده ، قالت برجاء :

- هلا تناولت واحدة يا رشدى !؟

ولكنه هز رأسه على المخدة وقال بسرعة وبلهجة حازمة :

- ليس الآن .. فيما بعد !

فأخذت المرأة الصندوق أسيفة حزينة وان كانت تغالب عواطفها مغالبة صادقة ناجحة .. ولم تنس - حتى فى تلك الساعة - واجبات اللياقة ، فدلفت من سرير انيس بشارة وقدمت له بعض البسكوت . وكان أحمد يتفحص أخاه بعينين كئيبتين ، فاذا أرسل الشاب اليه بطرفه تبسم مداريا حزنه . وقد هاله ذبول اخيه واصفرار لونه . وخوره . وامارات التعب التى تعتوره . هاله ان يراه مستلما للرقاد . سجينا . وما كانت الدنيا تسعه حركة واضطرابا ولهوا . وخيل اليه

انه يقرأ فى نظرة عينيه حيرة وقلقا ، مع ما بها من ألـم واستسلام ، فأوحيا اليه أن الشاب ينطوى على شيء يريد أن يفضى به اليه ، وقوى شعوره بذلك حتى خطر له أن ينفرد به دقائق بعد انصراف عواده . ولـكنه خاف أن يضرع اليـه أن يعيده الى البيت ، فعدل عن رأيه ، وجعل يكور له قبضة يده مشجعا متظاهرا بالمزاح والاطمئنان ..

وآذن الوقت بالعودة .فسلموا بحرارة . ولهجت ألسنتهم بالدعاء . وغادروا الحجرة وكانت الست دولت آخر من غادرها بعد أن قبلت الشاب فى خديه وجبينه .. وفى الطريق لم تعد تملك اعصابها فامتلأت عينـاها بالدمـوع .. وكانت نوال تعالج دمعة لا تدرى كيف تخفيها . وظل أحمد منقبض الصدر حتى آوى الى حجرته ، ومضى يعلل نفسه بالامل ويقول انه سيجده فى الزيارة القادمة أحسن حالا مما وجده اليوم .. رباه .. متى يرد الى ما كان عليه من القوة والنشاط والنضارة؟ متى يعاود سمعه تغريده الحنون ودعابته اللطيفة وضـحكته الرنانة !

ونامت أسرة عاكف تلك الليلة على حزن وكمد كنومها ليلة الفراق .. ثم استيقظوا جميعا فى الهزيع الاخير من الليل على رنين الجرس .. وجلس احمد فى الفراش مرهف الاذنين .. فسمع الرنين متصلا كأنه يصرخ فى الغافلين . وانقض عليه خاطر جعل قلبه يرجف كابرة الجرس فقفز من الفراش وجرى الى الخارج . والتقى بوالديه فى الصالة وهما يكادان أن يعدوا عدوا نحو الباب . ولم ينبس أحدهم فقد تولاهم استسـلام يائس للاقدار . ودلف أحمد من الباب مزدردا ريقـه وأضاء المصباح الخارجى وفتح الباب .. ونظر فى الردهة الخارجيـة فلم تقع عيناه على انسان ، وكان الرنين لا يزال متصـلا .. والتفت الرجل الى والديه مندهشا مغمغمـا : « لا أحـد فى الخارج » .. واقترب من « بطارية الجـرس » ورفـع غطاءها وفصل بين الاسلاك فسكت الجرس المزعج ! وأغلق البـاب والدموع توشك أن تطفر من عينيه . وتبادلوا جميعا نظرات

حائرات . ثم هتف الاب قائلا :
ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..
وقالت الام وهى تتنهد من أعماق قلبها :
ـ أليس الاوفق أن نأتى برشدى ما دامت هذه هى رغبته؟
فقال احمد وقد وشى صوته باضطراب نفسه :
ـ يا شيخة وحدى الله ...

٤١

وعند عصر يوم الاحد وكان أحمد مجتمعا بوالديه يحتسون قهوة العصر ، جاءه البريد بكتاب ما ان رأى الظرف حتى تمتم بغرابة :

ـ هذا خط رشدى ..

وتنبه الوالدان ، وتابعت عيناهما يد الرجل وهو يفض الغلاف . وقد كتب الخطاب بالقلم الرصاص ، وبخط ردىء ـ على غير عهد صاحب الخطاب ـ وكان به ما يأتى :

٨ ـ ٣ ـ ١٩٤٢

أخى العزيز :

تحياتى اليك والى والدى .. أكتب اليك كتابى هذا وقد مضى على انتصاف الليل ساعتان .. ولا تدهش يا أخى فقد حرمت نعمة النوم الى الابد وما عاد لاى منوم من تأثير فى .. تصور انى تناولت بالامس جرعة من منوم معروف ، فلما لم تجد شيئا أعطانى الدكتور برشامة مخدرة وبشرنى بنوم ثقيل .. وها هو الليل ينتصف وتمضى على انتصافه ساعتان وأنا متيقظ مسهد . ولا نهاية لعذابى . بل لا أزال جالسا لان الرقاد ـ أو ضغط ظهرى على خشبة الفراش ـ يهيج السعال الذى اشتدت نوباته على .. فلا معدى لى عن الجلوس فى

قراشى .. وقصارى ما يمكن عمله لتهيئة الراحة لى أن أثنى مخدة وأضعها على حجرى ثم اسند رأسى اليها ..

أخى :

يؤسفنى أن أولمك او احزنك ، ولكنها الحقيقة المرة .. ولا حيلة لى فيها . ولا مفر من أن افضى اليك بالحقيقة فأنت ملاذى أولا وأخيرا . فاعلم يا اخى أنى أطلعت على نتيجة الاشعة التى صورت صدرى غداة وصولى الى المصحة ، وقد كشفت عن اصابة جديدة فى الرئة اليمنى . أما اليسرى فقد حفرت الاصابة القديمة فيها كهفا فى حجم نصف الريال ، والحالة العامة خطيرة ، واليك تقرير الطبيب النوبتجى : « عدم قابلية للاكل مطلقا . عدم النوم مطلقا . سعال نظيف . ونفس مكروش دائما .. » فلا شك انى فى طريق النهاية .. لا شك فى ذلك مطلقا .. انى أكتب اليك ودموعى تنهمر فتخفى عن ناظرى الالفاظ التى أنعى بها نفسى اليك . وكلما ذكرتكم غلبنى البكاء ..

هذه هى الحالة ، فأستحلفك بالله يا أخى الا ما وافقت على عودتى اليكم لاقضى بينكم أيامى الاخيرة حتى يوافينى الاجل . فلا تعرض عن توسلاتى هذه المرة .. وأكرر أسفى لايلامك ولكن ما حيلتى .. ؟ وعليك ألا تخبر والدى بالحقيقة .

والسلام عليكم ورحمة الله .

أخوك المخلص

رشدى

قرأ الخطاب ذاهلا .. وأعاد قراءة كثير من عباراته أكثر من مرة .. وشعر عند الانتهاء من قراءته بدوار . وانكار . وغرابة .. ولكنه لم يرفع عنه ناظريه حتى يستعيد رباطة جأشه ، فيواجه امه بشىء من السكينة يمكنه من الكذب عليها .. واستطاع بفضل تفكيره فى أمه ، ووجودها عن كثب منه ، أن ينسى نفسه الى حين فيمتلك أعصابه ، ثم نظر الى والديه فرآهما ينتظران كلمته بعينين معذبتين كمن ينتظر ـ غير معصوب العينين ـ اطلاق النار عليه ، فتكلم قائلا متصنعا لهجة

السخط والتبرم :

ـ رشدى يلح في العودة الى البيت ، فماذا دهاه ؟

فسألته الام بلهفة :

ـ ولكنه بخير !

ـ بخير والحمد لله الا انه كاره للمصحة

ـ أعده الى يا احمد . فلا فائدة ترجى من تركه فى المصحة على رغمه .

فنهض أحمد وهو يقول :

ـ سأسافر اليوم الى حلوان وآتى به .

وأعطى الخطاب الى والده ومضى الى حجرته وأمه فى أثره .

وسافر الى حلوان دون تردد او تأخير . وظل طول الطريق مشتت الفكر ، موزع الفؤاد مضطرب النفس . ولاول مرة ـ منذ أمد بعيد ـ يفكر فى الموت ـ كحقيقة ماثلة يطالع معالمها الرهيبة ويستشعر آثارها العميقة من الالم والخوف والقنوط . وتخيل المقبرة النائية التى ابتلعت شقيقه الاصغر ، فخالها تنفض عن ثغرها تراب الارض وتغفر فاها لابتلاع رشدى الحبيب الذى لا يدرى كيف تكون الدنيا بدونه .. ! وكان كلما قصرت المسافة بينه وبين المصحة اشتد انقباض صدره ، وثقلت وطأة الخوف على قلبه . رباه .. كيف يجده الآن ..؟ وما فعل السهاد به ؟ وغادر القطار على عجل والشمس تميل نحو المغيب .. وأخذ العربة الى المصحة . ثم صعد الى الطابق الثالث لا يلوى على شىء .. واشتدت ضربات قلبه وهو يقترب من الحجرة .. ودخلها وقد تركز وعيه فى الفراش أمامه .. رأى رشدى كما وصف نفسه فى رسالته جالسا فى فراشه مسند الرأس الى مخدة منكسرة على حجره ! وازدرد ريقه وهتف به :

ـ رشدى !

فرفع الشاب رأسه عن المخدة بسرعة .. وطالع أخاه بوجهه الضامر الشاحب ، وصدره المضطرب وسرعان ما لاح السرور فى عينيه .. وقال بصوت متهدج :

ـ أجئت ..! .. خذنى .. خذنى ..

فقال أحمد ليدخل الطمأنينة على نفسه :

ـ لهذا جئت يا رشدى ..

ثم التفت الى أنيس بشارة فحياه فرد الشاب تحيته وقال بلهجة جدية دلت على تأثره :

ـ مسكين رشدى .. ! انه لايذوق للنوم طعما ، وكانت ليلته الماضية شديدة فظيعة فالاوفق حقا أن يمضى هذا الاسبوع فى البيت ، على أن يعود الى المصحة فيما بعد !

فأومأ احمد برأسه موافقا وسأل الشاب :

ـ أتدرى ما هى اجراءات الاستئذان لخروجه ؟

فقال أنيس بنفس اللهجة الجدية :

ـ اسع الى الطبيب بلا ابطاء .

ولم يلق الرجل صعوبة ما ، بل ساوره الخوف والقلق لسرعة موافقة الطبيب على طلبه .

وعاد الى أخيه وحزم متاعه ، وعجز رشدى عن خلع بيجامته وارتداء البدلة ، فاكتفى بلبس الروب . وجاءوا بنقالة الى المصعد وسار أنيس بشارة فى وداعه حتى الباب الخارجى للمصحة ، وشد على يده بحرارة ، ودعا له مخلصا بالشفاء والصحة .. ورأى احمد شقيقه يستسلم لايدى حامليه بلا حول ولا قوة وقد زاغ بصره ، وبدا للعين هزاله . فذكر نضارته وحسنه . ورشاقته ونشاطه . وفكاهته وغناءه . ثم لم يملك أن يعض على شفته متوجعا متحسرا وقد شعر بقلبه ينتحب باكيا فى أعماق صدره ..

٤٢

ووجـــدا فى انتظارهما فى البيت الوالدين وأسرة كمال خليل افندى • وكانت الست توحيدة ونوال جاءتا لزيارة أم الشاب المريض ، فلما علما بأن شقيقه سافر ليـــأتى به لبثا فى انتظار وصوله • وأحدث ظهور رشـــدى أثرا عميقـــا فى النفوس فلم يحاول أحد اخفاء انزعاجه • ولكن الشاب لم يبد عليه انه ادرك شيئا مما حوله •• او انه فطن الى وجود احد • واجلس على فراشه وصدره يعلو وينخفض • مغمض العينين• والاعين محدقة به • وقد انعقدت الالسنة واصـــفر وجه الست دولت وارتعشت أطرافها • فهرعت الى فراشه • وجلست وراء ظهره لتسنده بصدرها المضطرب • وفتح رشدى عينيه بعد برهة واجالهما فى الحجرة والوجوه • فلاح فيهمـــا نور العرفان واليقظة • وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة وقال بصوت متهدج خفيض كأنما يصاعد من أعماق صدره :

ـ الحمد لله •• الحمد لله •• أنا مسرور بعودتى الى حجرتى

فدعا له الجميع وكررت الست توحيـــدة الدعاء • فابتسم الشاب وقال :

سأشفى هنا باذن الله •• لا تبرحى مكانك يا نينة ••

فقبلته المرأة فى منكبه وقالت :

ـ لن أبرحه يا رشدى •• وستشفى بأذن الله •• أن قلبى

لا يمكن أن يكذبنى !

والتقت عيناه بعينى نوال مرات . وتلقى فى كل مرة ابتسامة حلوة ضمنتها عيناها ما تكنه جوانحها من الدعاء والرجاء والاشفاق .. وتنحى أحمد جانبا دون أن تفارق عيناه وجه شقيقه ، وكلما طالع فى عينيه نظرتهما الذابلة ارتعش كيانه وقال لنفسه :

« اللهم رحمتك ! »

وقال عاكف افندى احمد – الاب – عن حكمة ..

– الاوفق أن نتركه حتى يسترد أنفاسه ويستريح ..

فخرجوا جميعا ما عدا امه .. وانصرفت الزائرتان .. وخلا احمد الى نفسه فى حجرته قليلا .. ولكن لم يستطع صبرا فعاد الى حجرة الشاب .. ووجد رشدى لا يزال فرحا بالعودة ويحادث أمه قائلا بصوته المتهدج الخافت :

– لشد ما اطمأن قلبى فرحا وسرورا ، وشد ما آلمنى جو المصحة الموحش .. لم أذق فيها النوم ولا الطعام .. ورأيت مريضا ينزف حتى غرق فى دمه .. ومروا بحجرتنا حاملين مريضا آخر الى حجرة « العزلة » حيث يودعون المرضى المشفين على النهاية .

ومن المؤسف حقا أن سوء حالتى آلم زميلى أنيس بشارة، ويغلب على ظنى انه استثار مخاوفه فجعل يبكى حزنا وفرقا. الآن .. عاودتنى الطمأنينة .

وحول ناظريه الى أحمد ، وسكت قليلا وصدره يعلو وينخفض ، ثم استطرد :

– أتعبتك كثيرا يا أخى ... معذرة ..لا تجد على لعصيانى نصحك .. أعدك بأنى سأرعى منذ اليوم صحتى .. وانى لن اخالف لك نصيحة .. واذا من الله على بالشفاء فلن استهين يوما بحياتى .

فعض احمد على نواجذه ليحبس دموعه الهائجة . وقال هبتسما :

– لا محل للوم يا رشدى .. فكل شىء بأمر الله .. وغدا

سترد الى صحتك باذن الله . وستذكر هذه المحنة كما يذكر المستيقظ وطأة الكابوس ..

فابتسم الشاب الى أخيه ارتياحا لقوله ، وسأله أن يدنى الخوان من فراشه وأن يضع عليه زجاجات الدواء .. واتى أحمد بالخوان ، وجعله فى متناول يد الشاب ، ورص علبة الكلسيوم ، وحق المنوم . والكارومين . فشكره رشدى .. ثم قال :

ـ سأحتاج الى ممرضة لحقنى بالكلسيوم يوما بعد يوم ..

فقال أحمد :

ـ سأوصى الصيدلى باحضار واحدة والاتفاق معها .. ويحسن بك أن تسكت كيلا تشق على نفسك . وربنا يرعاك ويحفظك .

وتناول الشاب جرعة من المنوم ، فاسترخت أعصابه ـ وقد نال منه أرق الليالى السابقة وأخلد للنوم ، الا أن السعال انتابه مرات ، فمزق نومه شر ممزق ...

٤٣

وجاءت أيام شدة وألم .. فغرق الشاب المريض فى غمرة العذاب . وتقطع قلب الام الذى يسند ظهره المهزول ... واستبد به الارق فلم يغمض له جفن – مع تناوله المنوم – الا ساعات معدودات فى الهزيع الاخير من الليل ، وكثيرا ما أدركه الصباح وهو قاعد فى فراشه وقد حطم السعال أضلعه .. وصدفت نفسه عن الطعام .. فاذا تجلد وتناول لقمات تقيأها فى نوبات السعال المخيف . وتعاقبت عليه نوبات هذا السعال واجتاحته بعنف فما أن تسكت عنه واحدة الا وقد أشفى نفسه على الانقطاع ، وأنذرت عروق عنقه بالانفجار . وسالت عيناه دما . فظن به الهلاك وآيستمن شفائه القلوب. الا انه بدا وكأنه يجتاز مفازة الهلاك بسلام ، لا لتحسن طرأ عليه ، ولكن لان الايام تتابعت وهو يقاوم ويجالد دون ان يسقط . ثم مضت تخف ثورة السعال ، وتنتظم ساعات نومه . وتتقبل معدته القليل من الطعام ، واستطاع اخيرا أن يرقد على جنبه .. وآذن كل اولئك بتحسن قريب فى صحته، ولكن مضى مارس جميعا وهو على حاله من الضعف والاعياء . لم يكن يستطيع مفارقة الفراش بتاتا . وهزل هزالا محزنا حتى لم يعد فى برده سوى جلد ذابل وعظم معروق . وبعث منظر ساقيه القشعريرة فى النفوس . وضمر وجهه وتقلص خداه . وغارت عيناه . وعلت محياه صفرة باهتة .. وبدا

رأسه أكبر من الواقع وعنقه رفيعا يكاد ان ينقصف من حمله ، ولاحت فى عينيه نظرة عميقة متجهمة تدل على التصبر والتجلد ، والتألم والاستسلام ، فلم تزل تعذب أحمد حتى أضنته .. كان يطالعها فى عينيه كلما عاده فلا تمحى من ذاكرته أبدا ، وكانت تحمل فؤاده المرهف جميع ما تنطق به من التألم والتصبر ، كانت تترك فى قلبه جروحا لا تندمل ، كان يطلع منها على عوالم الالم والمرض واليأس ، رباه لكم قطعت فؤاده ، وفتت كبده ، ولكم أهاجت مجارى دموعه .

وفى مرة دخل حجرته فوجده قد استوى جالسا فى الفراش ، وادلى ساقيه الي الارض ولم تكن أمه فى الحجرة ، فخاف أن يكون ذلك مقدمة لمحاولات تشق عليه ، فقال له بتوسل :

ـ أليس الاوفق ان تلزم الرقاد ؟!

فغاضت من عينيه نظرة التألم العميقة ، وحلت محلها نظرة جزع وبرم وقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـ أخى .. الا ترى كيف تمضى الايام وانا بمكانى هذا لا ابدى حراكا .. ! هكذا ألقى على الفراش بلا حول ولا قوة ، طوال النهار وأكثر من نصف الليل ، حتى يغلبنى ذهول المخدر الذى نسميه نوما .. ! اواه .. ما اضيق الحياة .. لقد سئمت هذا الفراش وضقت به ذرعا ...

فلم يدر الآخر ماذا يقول ، وألقت اللهجة الشاكية على روحه غبارا من الكدر ، فقال برقة : صبرا يا رشدى .. وما وراء الصبر الا الفرج !

ولا معدى عن الصبر أيضا .. كان يعتصر غصص الزمن الثقيل بقراءة الجرائد والمجلات ، والحديث الى أمه ـ ولم تكن تفارقه الا للضرورة ـ وأبيه وشقيقه .. وكان على ألمه وملله قد نجا من ساعات اليأس القاتل التى أوحت اليه مرة بالرسالة التى بعثها من المصحة الى شقيقه .. نجا من اليأس ، وعاوده الامل فى الحياة والرجاء فى الشفاء ولكن الالم الذى رسم فى عينيه تلك النظرة العميقة المتجهمة لقنه حقيقة الشقاء التى

ينطوى عليها قلب الدنيا . فذاق العذاب ،وشعر بأنفاس الموت الباردة تتردد على وجهه . والارجح ان الحياة تحرص على أن يعرفها أبناؤها جميعا ، الا انها تقطر حقيقتها على المعمرين وتسكبها فى افواه المتعجلين .

ومن عجيب انه لم ينس قلبه ..! فالمرض لا يمحو الحب . ربما لم يعد يضطرب به دمه ، ولكنه يحسه بروحه ويخفق به قلبه . ولكم ترف عليه الذكريات ، فتضىء مخيلته بنور وهاج، وتدندن فى أذنيه كسجع الالحان ، فيستيقظ قلبه كزهرة نفخ الربيع فيها من روحه ، وتتخايل لعينيه بروق البسمات وطريق الصحراء والعينان النجلاوان ، وتطن فى مسمعيه العهود والمواثيق . ترى ما مصير كل اولئك ... ؟ ماذا يخبىء له الغيب ؟ .. هل يمكن أن يعود الشباب والقوة والامل والحب ؟ هل يمكن أن يسعى كسابق عهده متبخترا فى رشاقة وخيلاء ؟ وان يضحك ملء قلبه دون أن يهيج سعالا قتالا .. ؟ وأن يذهب رأسه ويجىء بالترنيم والتجويد ؟ ..وأن يراه الاخوان فيتصايحوا : « جاء قلب الاسد » ؟ وأن يشبك ذراعه بذراع نوال فيقطعا معا طريق الجبل وغلالة الضباب تخفيهما عن الاعين ؟ .. هل ما يزال ثمة أمل فى أن يبتاع خاتم الخطوبة ويزف كالعرائس .. ؟ وكانت نوال تعوده مع والديها ، فتبادلا نظرات خاطفة مشوقة لم يشعر بوقدتها الا هما .. رباه ... لماذا لا يتركانهما وحدهما ولو لحظة؟ ..انه يذوب شوقا الى كلمة وداد ترطب حرارة فؤاده المحموم . وهكذا مضى شهر مارس . ولما جاء ابريل تغير الحال ، فلم يعد يرى نوال .. مضى أسبوع دون أن تزوره ، وانتصف الشهر فلم تحضر . وعاده والداها بمفرديهما ، وانتهى ابريل دون أن يراها أو تراه .. ! عاده اخوان قهوة الزهرة وأسرهم وصحاب السكاكينى وجمهور من الاقارب والجيران القدماء .. فالبيت لا يفرغ حتى يمتلىء .. الا نوال .. اختفت من حياته فجأة كأنها لم تكن حقيقة محسوسة وأملا مشوقا .. ! ولا شك أن والديه وشقيقه يشاركونه آلمه وانكاره ولكنهم لا يفصحون عن مشاعرهم رأفة به . وأبى عليه كبرياؤه أن يسأل والديها ..

لماذا انقطعت نوال عن زيارته ؟

هل عرفوا حقيقة دائه وأيسوا منه ؟ هل منعها من عيادته الخوف من العدوى ؟ ... هل أمسى شرا وأذى بعد أن كان حبيبا محبوبا .. ؟ اكذب الحب وعده .. ؟ وجعل يجتر آلامه فى صمت حتى ضاق بها فقال يوما لاحمد وقد خلت لهما الحجرة :

ـ ألم تر كيف انقطعت عن زيارتى ؟

وعرف أحمد من يعنيها بقوله .. وتظاهر بعدم الاكتراث وقال :

ـ حذار من الفكر ! أنت فى نضال من أجل الصحة فلا تضعف مقاومتك بنفسك !

فاستطرد قائلا وكأنه لم يع ما قال الرجل :

ـ أبشع شىء فى هذه الدنيا جفاء صديق بغير ذنب .. أو ان يكون ذنبه ان الصحة جفته !

ـ لا تبال شيئا ولا تستسلم للافكار السود !

فتمتم الشاب بصوت حزين :

ـ لن أبالى شيئا ولكن الخيانة قبيحة !

وسرت فى الرجل رعدة لانه ذكر انه فاه يوما بمثل هذه الجملة . وقال يدارى عواطفه :

ـ حسبك قلوبنا فهى تحبك ولا تجفوك أبدا :

فتبسم رشدى وقال :

ـ لا أدرى متى حفظت هذين البيتين :

ما لى أرى الابصار بى جافية لم تلتفت منى الى ناحية
لا ينظر الناس الى المبتلى وانما الناس مع العافية

ـ فقطب أحمد تألما وهتف به :

ـ أترغب ان تقتلنى غما وكمدا ؟!

فقال بأسف صادق :

ـ معاذ الله .. أنت أحب الى من الشفاء !

وعاد أحمد الى حجرته وهو يقول لنفسه محزونا : « رباه كيف جفته وقد راح ضحية لها ؟! »

٤٤

والحقيقة ان كمال خليل أخذ يساوره الشك فيما قالوا عن مرض الشاب وما لبث ان افضى بشكه الى امرأته. ولكى يقطع الشك باليقين زار صديقا له فى بنك مصر وسأله عن حقيقة مرض رشدى فأطلعه الرجل على الحقيقة . وحزن كمال خليل حزنا بالغا ، لانه أحب رشدى حبا صادقا .. ووجد فيه خير زوج يمكن ان يرجوه لابنته . وهوى الخبر على الست توحيدة كالصاعقة وخيب أملها فى سعادة نوال.. وخلا الرجل بزوجه وقال لها متجهما :

ـ ماذا ترين ؟

فلاذت المرأة بالصمت اشفاقا من الجهر بالحق المؤلم ، فقال كمال افندى :

ـ لا أظن رشدى بناج من مرضه الخطير ..

فقالت المرأة بامتعاض :

ـ ربنا يلطف به .

ـ وحتى لو كتب الله له النجاة فلن يصلح للحياة الزوجية

ـ فماذا ترى أنت ؟

ـ أرى طبعا أن اصون صحة ابنتى ، فهى شبـاب غض ،

ودخولها حجرته كما حدث مرات استهتار شديد الخطورة سيء العاقبة ، فينبغي أن تعرف الحقيقة حتى لا تعيش على الاوهام أو تتعرض لعدوى مرض خبيث ندرت النجاة منه ..

فقالت المرأة بلهجة دلت على الاسف والاستسلام :

ـ الامر لله !

ودعوا بنوال ، وجاءت الفتاة غافلة عما يضمرانه لها ، وكان ينبعث من عينيها نظرة وديعة تلوح فيها الكآبة ، فطلب الرجل اليها أن تجلس قبالته على كرسى ثم راح يقول بصوت رزين :

ـ نوال ، دعوتك لافضى اليك بسر هام ، وعهدى فيك فتاة عاقلة ، والسلوك الحكيم هو ما أتوقعه منك دائما ، فاعلمى أن جارنا العزيز رشدى افندى مريض مرضا خطيرا أفظع مما يقولون ..

فاصفر وجه الفتاة ، ونفذت لهجة والدها الرزينة الى قلبها فانقبض خوفا ، وتساءلت باشفاق :

ـ أى مرض يا ابتى ؟

ـ يؤسفنى أن اصارحك بأن الشاب مصاب بالسل ، وهو مرض كما تعلمين فظيع ، ورحمة الله واسعة . بيد ان على الانسان واجبا على نفسه لا يجوز ان يفرط فيه أو يستهين به لاى داع مهما جل شأنه ، فلندع لصديقنا العزيز بالشفاء وليذكر قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

السل ..! يا رب السماوات .. ! ماذا يقول أبوها ؟ .. هل اضحى رشدى العزيز شيئا واجبا اجتنابه .. ! هل أوى حقا ذاك الداء الخطير الى صدره الحنون .. ؟ هل ضاعت الامال وتبددت الاحلام ؟ ورددت بين والديها نظرة حائرة تستحق الرثاء ، فأدركت أمها ما تعانى من ألم أجبرها وجود ابيها على مداراته ، فقالت :

ـ الله عالم بشدة حزننا وأسفنا ، وهو القادر على جبر كسرنا ، ولكن صدق والدك يانوال فحداثة سنك تجعلك صيدا سهلا لعدوى هذا الداء ، فدعينا نحن نقيم بالواجب عنا وعنك

ولندع له جميعا بالسلامة والشفاء انه سميع مجيب ..

وجعل أبوها يتفرس فى وجهها من تحت حاجبيه . ويقرأ ما تظهر وما تبطن ، ثم قال مستطردا :

ـ الآن أدركت ولا شك الباعث الذى دعانا الى مخاطبتك فى هذا الشأن ، ولا شك انك تقدرين رأيى حق قدره ، فأنا أبوك . وأخاف عليك أكثر مما تخافين على نفسك . لهذا اقول لك انه لا يجوز بعد اليوم ان تعودى المريض العزيز ، ولا عليك من هذا . ولن يلومك عليه انسان عاقل منصف . ومهما يكن من أمر فما أبالى كلام الناس ولا أقيم للومهم وزنا اذا جاء مخالفا للعقل . فما رأيك ..؟

ولم تكن تملك من الجسارة ما تستطيع معه أن تصارحه بما يدور فى خلدها ، وكان له من المهابة فى نفسها ما يمنعها من مشافهته بما يخالف رأيه ، فلاذت بالصمت حتى استحثها على الجواب ، فقالت بصوت خفيض :

ـ أمرك مطاع يا ابتى ..

ولم يكن يطمع فى أكثر من هذا .. وخاف ان أطال الحوار أن يشجعها على الافصاح عن حقيقة مشاعرها ، فنهض قائما كالمقتنع المرتاح وقال :

ـ لا خيبت لى رجاء ابدا ..

وما ان غيبه الباب حتى أحدقت فى وجه أمها وهتفت بها :

ـ كيف يكون هذا يا أماه ؟

فقالت المرأة بحزن واستسلام :

ـ لا معدى عنه يا نوال ..

فقالت بصوت متهدج مرتعش :

ـ كيف لا أعوده ؟ .. كيف أتجنبه ؟ .. هل يقوم خوف الانسان على نفسه عذرا معقولا لهجر أصدقائه فى أوقات محنتهم ؟ ... وما جدوى الصداقة والمروءة فى هذه الدنيا ؟

ولم تتم حديثها فخنقتها العبرات ، وأوشكت الام أن تتأثر لها ، ولكنها تداركت عواطفها أن ترق لها فتدفع بها الى الهلاك . فقالت بلهجة لا تدل على ذات نفسها :

ـ وما جدوى أن يصاب انسان بداء وبيل من أجل صديق لن ينتفع بمرضه فتيلا ٠٠ ؟ ان اباك حريص على صون شبابك الغض وله الحق فى ذلك كل الحق ٠٠

ـ أواه يا أماه ٠٠ ولكنى اذا ضلت نفسى بهذا العذر القبيح فلن أنتفع بها ٠٠٠ ليس المرض بالشر الوحيد فى هذه الدنيا ٠٠ فالغدر شر من المرض ٠٠ ماذا يظن بى ؟ بل كيف أدفع عن نفسى أمامه وامام الناس ؟

ـ تقولين ان اباك اجبرك على الامتناع عن عيادته ٠٠ فعلى أبيك التبعة ،وعليك الطاعة ٠ ولن يجادل انسان فى حق والد على ابنته ٠٠

ـ ما أقساك يا أماه ٠٠ سأموت كمدا ٠

ـ أفضل الف مرة ان يلعننى الناس على ان القى بفلذة كبدى الى التهلكة ٠٠

فقالت الفتاة وما تزال عيناها تسحان دمعا ساخنا حتى سدت خياشيمها وتغيرت نبرات صوتها :

ـ سيمقتنى ويحتقرنى ، وغدا اذا برأ ٠٠

وخنقتها العبرات مرة أخرى ، فقالت الام وهى تتنهد :

ـ هذا هو حظك فما حيلتنا ؟ ٠٠٠ بيد انك ما زلت على عتبة الشباب ٠ والفرص امامك كثيرة ، والله قادر على جبر خاطرك ، فلندعه ان يصون للشاب المسكين شبابه وان يعوضك عنه خيرا ٠٠٠ !

فهتفت بها منتحبة :

ـ ما أقساك ٠٠ ما أقساك ٠٠

وفرت الى حجرتها ٠ وكان الوقت مساء ٠ ٠ فدلفت من الشباك محمرة العينين ورمت ببصرها الى النافذة المحبوبة ، وكانت النافذة مغلقة ينبعث من خصاصها نور خافت ٠٠٠ وتمثل لها راقدا على جنبه تلوح فى عينيه تلك النظرة الحزينة المتجهمة ثم تمثل لها وهو يسعل ذاك السعال القتال الوحشى: لهفى عليك يا حبيبى ٠٠ وا أسفى على رقادك بلا حول ولا قوة ٠٠٠ ونظرتك التى تنم عن أفظع الآلام البشرية ٠٠ أين

نضارتك ؟ أين شبابك ؟ ٠٠ أين حديثا ؟ ٠٠ أين آمالنا بل أين نضارتنا ٠٠ أين شبابنا ٠٠ اين حديثنا ٠٠ اين آمالنا٠٠ رباه ٠٠ ما أتعس حظى ٠٠ وما أهلك دنياى ٠٠

وارتمت على مقعد تكفكف دمعها وتتنهد من الاعماق ٠ وأوهنها التأثر فانطلقت خواطرها بلا ضابط ٠ مرت حياتها مع رشدى أمام ناظريها فى مثل لمح البصر فأيقنت أنها فتاة تعسة الحظ ٠ ولم يغب عنها ما فى حديث والديها عن مرض الشـاب من يأس وقنوط ، فتولاها الذعر ، وما كانت تعرف عن الموت الا لفظه ٠ فكيف وقد تمثل لها وحشا كاسرا يتوثب للانقضاض على قلبها ! رباه ويأمرانها بألا تعوده ، ويحولان بينها وبينه بعزيمة لاتعرف الرحمة ! وتجهم وجهها الباكى وشعرت برعدة تسرى فى أطرافها فتحسست راحتها صدرها !٠٠ شعرت فى اعماقها بأنها تخاف المرض قدر ما تخافه على حبيبها ، الرقاد ، والسعال والهـزال والعذاب ٠ ثم أحست تعاسة وقنوطا وحزنا وخوفا ، ومزقتهـا الحيرة رابا اربا بين حبيبها وصحتها وسعادتها! رباه٠٠ ألم تكن تحيا فى دعة وطمأنينة وأمل مشرق ؟!٠٠ فما الذى أوجب هذا الشقاء وهذه التعاسة !

ولدى عصر اليوم التالى عادت من المدرسة فوجدتهم قد نقـلوا حجرتها الى حجرة أخرى بعيدا عن نافذته ، وأنه حيل بينها وبين رؤية ذاك البصيص من النور ٠٠

٤٥

ولم يعد رشدى الى ذكر نوال. وأعجب أحمد لصمته وتساءل ترى أيعانى آلامه وحده أم انه يتناسى باستهانة واحتقار . ودعا له مخلصا ـ وهو المبتلى ـ بالنسيان وراحة القلب . ولم يكن من الممكن استكناه باطن الشاب من محياه ، لجمود ملامحه وتجهم نظرة عينيه العميقة الحزينة وملازمته حالا من الكآبة لا تكاد تزايله . فظل أحمد متحيرا مشفقا . وشاركه الوالدان حيرته واشفاقه . ولم يكن الامر يعنيهم من ناحيته العاطفية ، ولكنهم خافوه على الصحة المتهالكة التى تجاهد فى سبيل الحياة ، خصوصا وأن مضى الايام قد بعث فى النفوس الامل بعد أن أوشكت أن تشفى على اليأس . ولو سألت عن بواعث الاستبشار لما وجدت غير كرور الايام وتعود الحال ، أما رشدى فلبث عاجزا عن مغادرة الفراش ، كالنضو هزالا يستثير الذعر والاشفاق، وظل لونه مصفرا مشربا بزرقة ، ولم يخف عنه السعال الا قليلا

وفى النصف الاول من مايو جاءه طبيب المصرف، ليعيد الكشف عليه وليجدد له الاجازة حسبما يرى وفحصه الرجل فحصا سطحيا ثم قال له :

ـ أظنك تعلم أن أجازاتك القانونية تنتهى فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ !

أجل كان يعلم ذلك ، ولكنه كان كأنه يسمع به لاول مرة . فقال بصوت خفيض :

ـ حقا ؟! نعم ٠٠ أعلم ذلك ٠٠

فقال الطبيب بغير مبالاة :

ـ فأيامك الباقية من الاجازة منتهية لا محالة قبل الشفاء بزمن طويل ٠ وعليه فلا مناص من فصلك من خدمة البنك ابتداء من ٣١ مايو سنة ١٩٤٢

وكان صوت الدكتور يقع من سمعه موقعا غريبا ، فتساءل بصوت أشد ضعفا :

ـ ألا يوجد ثمة أمل فى الشفاء قبل انقضاء المدة الباقية من اجازتى ؟

فهال الطبيب السؤال وقال بانكار :

ـ هل تتصور انه من المستطاع أن تبرأ وتسترد قوتك ووزنك الطبيعى فتستأنف عملك فى بحر عشرين يوما ؟!٠٠ هذا محال٠ أمامك عام استشفاء على أقل تقدير ٠٠

فسهم رشدى كالشارد ، ثم أطرق كئيبا محزونا٠ أما الدكتور فأعطاه « استئمارة » نص بها على انتهاء اجازاته فى ٣٠ من مايو سنة ١٩٤٢ ، وعلى انه يعتبر مفصولا ابتداء من ٣١ من مايو سنة ١٩٤٢ ٠ اذا لم يعد الى عمله قبل ذاك ٠ وقال له بلهجة دلت على انه يريد الانصراف سريعا :

ـ وقع من فضلك بامضائك على هذه الاستئمارة للعلم ٠٠

وذكر أخاه أحمد كأنه يستغيث به فى تلك الساعة الحرجة ! وردد عينيه بين الطبيب وبين الورقة فلم يغب عن ناظريه ما بالرجل من نفاد الصبر ، فعراه الارتباك وتناول قلمه ووقع بامضائه بيد مرتعشة ٠ وغادر الدكتور الحجرة فجاءت أمه متطلعة اليه بوجهها الذى نال منه الاعياء والهم كل منال ، فقال لها بصوت مبحوح متهدج :

ـ أماه ٠ وقعت الآن بامضائى على أمر فصلى من عملى !

فخفق قلب المرأة خفقة عنيفة ، بيد انها تداركت نفسها فلم تستسلم لعواطفها أن تضاعف من اشجانه ٠ وقالت باستهانة :

ـ أهذا ما جعلك تتكلم بهذه اللهجة الحزينة ؟! يا بنى ٠ ان الله أكرمنا بانقاذك من الخطر الداهم فلا ينبغى أن نغفل عن ذكره

وشكره ، وليهن بعد ذلك كل شيء ، فلا يحزنك الامر ، فانك اذا فقدت عملك اليوم واجده غدا ان شاء الله ..

ولكنه قال بنفس الصوت المتهدج المبحوح وكأنه لم يع شيئا مما قالت :

ـ قضى الامر وخسرت وظيفتى ، وضاع الماضى والمستقبل

فقالت المرأة وهى تعض على نواجذها دافعة دموعها :

ـ رشدى ، لا تأس ولا تحزن ، وغدا تنكشف الغمة بأمر الله ورحمته ، فترد الى وظيفتك أو الى خير منها والله لتبسمن بعد عبوس وليصدقنى قلبى ..

ولكنه لم يكن يصغى اليها ، وتاهت عيناه فى آفاق مجهولة فغابت أمه عن ناظريه ، وراح يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـ ما أفظع المرض !.. حقا ان ألمه لشديد ، وعذابه لمروع . يجعل القوة عجزا ، والشباب شيخوخة ، والامل قنوطا . يقعد الناهض ، ويعطل العامل ، ويقبح الحبيب . اضاع مستقبلى ، وأطفأ نورى ، وأوهن عظامى ، وأفقر يدى . اللهم أكفهم شر المرض .. أللهم أكفهم شر المرض .

وانفلت زمام المرأة من بين يديها فأجهشت فى البكاء . وقالت بصوتها الباكى :

ـ هلا رحمتنى يا رشدى !

فقال بحدة :

ـ الله لا يريد أن يرحمنا ..

وبعد ظهر ذاك اليوم ـ وبعد عودة الوالد من مسجد الحسين واحمد من الوزارة ـ حدث الرجلان رشدى حديثا طويلا يهونان به من أثر ما وقع ، ويؤملانه خيرا منه ، حتى بدا فى النهاية أنه يعيرهما أذنا واعية ويتأسى بما يقولان . ورأى أحمد ان نفقات التداوى ستضحى ، بل أضحت بالفعل ، أكثر مما تحتمله نقود الشاب التى انكمشت الى ربع مرتب وستنقطع بعد حين ، وأنه لن يغنى عنه ما عسى أن يعينه به من مرتبه المثقل ، فقال له :

ـ رشدى . أنت الان خير حالا مما كنت فى الماضى القريب ، وأظنك تحتمل البقاء فى المصحة ، أفلا يحسن بك أن تنتقل اليها

لتظفر بجو وعناية لا يتوافران لك هاهنا ..

فقال الشاب وقد اقشعر بدنه لتذكر المصحة وعهدها :

ـ ليس فى طوقى الان أن أعود الى الدرجة الثانية ، ومحال أن أرضى بالانتقال الى عنابر الدرجة الثالثة .

ـ أليست عنابر الدرجة الثالثة بخير من حجرتك هذه هـواء ودواء ؟!

فهز رأسه الذى بدا كبيرا جدا بالنسبة الى عنقه الرفيع وقال:

ـ الحياة هناك فظيعة ، وأحوال المرضى مخيفة ، كفاك الله شر المرض ..

فلم يزد احمد كلمة واحدة . وعند المساء ، وكان رشدى وأمه كعادتهما يراوحان بين الحديث وبين سماع الراديو المترامى اليهما من المقاهى المحيطة ، قدم المذيع طبيبه الذى كشف عليه أول مرة ـ الى الجمهور « .. يلقى عليكم محـاضرته الاولى عن السـل » فارتعشت أمه لسماع الاسم الذى يقض مضجعها ، أما رشدى فانتبه بعناية وارهف أذنيه ، ولم يكونا وحدهما اللذان يرهفان أذنيهما فى تلك الساعة ، فالاب فى حجرته رفع رأسه عن القرآن ومال برأسه نحو النافذة ، وغاب احمد عن حديث الصحاب فى الزهرة ليلقى بانتبـاهه كله الى الراديو خافق الفـؤاد . وتكلم الدكتور عن تاريخ كشف ميـكروب المرض . والادوار التى يمر بها ، ووصف كل دور باسهاب، ثم تكلم عن مسألة زواج الناجين من الداء ، وما ينبغى أن ينتظره أصحاب كل دور من أعـوام ، واقترح فى النهاية ان تنشىء الحكومة للناجين من الدور الثـالث قرى فى صحراء حلوان تكون بمثابة معازل يقضون فيها شطرا من أعمارهم أو العمر كله . أصغت الاسرة متفرقة الى المحاضرة ، فأخفت آلام عينيها الدامعتين ، وتنهد الاب وعاد الى كتابه ، أما أحمد فبكى قلبه وهو يتظاهر بالسرور بما يقول المعـلم نونو . ولازم رشدى الصمت ، ومضى يستعيد ما سمع ، فغمرته فجأة ذكريات حياته ، الشباب الطروب واللهو العابث والحب الساحر وصور سريعة متزاحمة من الوجوه والاماكن والربوع ، فتآكل صدره حسرة ، وهوى من ربوة الامل الى هاوية القنوط ، ونسى

وجود أمه فهتف يائسا « رباه اذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهى بهذا الداء أجلى ، فأسألك الرحمة بالتعجيل به » وارتاعت أمه ، ونظرت اليه بعتاب وهى تقول :

ـ رشـــدى !

فنظر اليها مبتسما ابتسامة حزينة وقال بلهجة تهكمية :

ـ الغالب أنك لن تفرحى بعرسى كما تودين !

ولما رآها تجهش فى البكاء ، غلبه التـأثر ، فوجم ٠٠ وقال بأسف :

ـ معذرة يا أماه ٠٠ لشدما أقسو عليك يا مسكينة ٠ حرمت عليك النوم والطعام وسودت أيامك ، وهأنذا أعذبك بهذيانى ، فاللهم غفرانك

٤٦

واستيقظ فى صباح اليوم الثانى أهدأ نفسا وأسكن قلبا ٠ ولما جاء أحمد يصبح عليه طلب اليه أن يعيره القرآن ، وأتى الرجل بالكتاب الشريف فتناوله الشاب بسرور ٠ وسأله :

ـ أليس من الحرام أن ألمسه ولما استحم منذ اشهر ؟!

فقال له أحمد مبتسما :

ـ عذرك مقبول عند الله ٠٠

ومضى يقرأ الكتاب ، ولولا خوف السعال ، لتلاه بصوته العذب ٠ ووجد فى القراءة لذة وسلاما ٠ واطمأن بذكر الله قلبه، ونسى به الحنين الى الماضى السعيد ، والحسرة على ما فات منه ، والندم على ما فرط منه فيه ٠ بل نسى به التوجع الدائم لما صار اليه حاله ، واليأس من الشفاء الذى قبض قلبه منذ أمس ، والخوف من النهاية التى تتخايل لعينيه ٠ وفر أخيرا من آلامه ومخاوفه لائذا بالاستسلام والتسليم والصبر والتوكل على الله ٠ ووجد ارتياحا فى الاذعان المطمئن الى ارادة الله وقضائه ٠ ورأى تلك الارادة الشاملة تحيط بماضيه ومستقبله فاستسلم اليها آمنا مطمئنا كما يستسلم الى صدر أمه اثر نوبة السعال ٠ومرت أيام وهو هادىء رزين ، صابر متصبر ، باش مسالم ، لا يثور ولا يغضب ، لا يشكو ولا يتذمر ، ولا يتمرد ولا يسخر ٠ وفى المرات القلائل التى أطلقت فيها زمارات الانذار لم يفارق الشقة منهم أحد ، فكانوا يتحسسون طريقهم الى حجرته فى الظلماء ،

ويلتفون حوله بقلوب خافقة وأعصاب متوترة . وأطرد الزمان في هدوء حتى وقع حادث هام ! كان مايو قد انتصف ، والوقت أصيلا ، والاب قد انطلق كعادته الى مسجد الحسين لصلاة المغرب وجلس أحمد فى حجرة الشاب يحادثه بحضور والدتهما ، فدق الجرس وفتح الباب ، واقتربت أقدام خفيفة ، ثم دخلت الحجرة امرأتان : الست توحيدة ونوال ! وحدثت دهشة لاحت أماراتها فى الاعين ، وخفق قلبا الشقيقين بعنف . لماذا جاءت نوال بعد ذاك الغياب الطويل !؟.. ان ظهورها مرة أخرى خليق بأن ينكأ الجرح الذى أوشك أن يندمل . ونهض أحمد وتنحى جانبا حتى ارتفق النافذة ، ورفع رشدى عينين أحاطت بهما هالتان زرقاوان ونطقت عيناه بالانكار ، ثم زايلته الدهشة وحل محلها امتعاض شديد فتنغص عليه هدوؤه البديع . وحدثته الست توحيدة بلهجتها المرحة ، وأكدت له أنه يتحسن تحسنا محسوسا ، أما نوال فرنت اليه بعينين مروعتين وقد أفزعها ما صار اليه من الهزال والضعف ، وغلبت على أمرها فلم تدر ماذا تقول ، ولم تزد على أن قالت بصوت لا يكاد يسمع « كيف حالك ؟! » ، ولم يرغب فى الرد عليها فاكتفى بأن رفع ذقنه وبسط راحتيه كأنه يقول لها « كما ترين ! » ولم يعد يخفى على أحد أن الشاب تغير ، وأنه اعتراه اضطراب واستياء ، وأنه يعانى ألما باطنيا حادا . وأرادت الست توحيدة بلباقتها أن تخفف من توتر الجو فراحت تتحدث وتضحك وتستثير الضحك ما وسعتها الحيلة ، ثم قالت:

ـ أبشر يا رشدى أفندى ، رأيتك فى الحلم حاملا أثقالا عابرا بها قنطرة طويلة ، فبلغت نهايتها بسلام ، وتفسيره أنك ستبرأ عما قريب ان شاء الله !

فقال رشدى بلهجة لم تخل من خشونة :

ـ فسر الدكتور قبلك هذا الحلم فأكد لى أنى لن أفارق فراشى قبل عام طويل !

فقالت المرأة بلهجة عتاب :

ـ سامحك الله يا رشدى أفندى ، هكذا أنت متطير دائما .. (وأومأت الى ابنتها واستأنفت الكلام) هذه نوال جاءت لتراك

وما منعها عنك الا انشغالها بدروسها ، ومرضها فى الايام الاخيرة وستؤدى الامتحان فى نهاية هذا الشهر ..

فقال الشاب بلا تردد :

ـ هو نفس التاريخ الذى أفصل فيه من عملى ..

فاصفر وجه نوال التى أدركت حقيقة غضبه ، وبادرت المرأة تقول بامتعاض :

ـ بعد الشر .. بعد الشر . كل شدة الى انتهاء تسير ..

ولكنه بسط راحتيه على صدره وقال بحدة :

ـ الا هذه الشدة ، فلا انتهاء لها حتى تقضى على الحياة ..

ـ مرضك يا رشدى افندى ليس بالخطير ،وستبرأ قريبا بأذن الله ...

فهز منكبيه استهانة ، وعاد يقول بحدة وراحتاه على صدره :

ـ أى مرض تعنين ؟! هاهنا سل !.. أما سمعت به ؟.. سل سل .. انه يأكل صدرى ، ويسيل مع ريقى دما .. انه مرض خطير فظيع ، شديد العدوى ، فحذارا ..

واشتد به التأثر ، وغلبه الانفعال ، فضرعت اليه أمه ان يسكت . ورجت الضيفتين أن يصحباها الى حجرة الاستقبال معتذرة عن حدة الشاب بمرضه . ولما خلت الحجرة الا من الشقيقين ، قال احمد بحزن :

ـ ليتك لم تستسلم للغضب !

ولكنه قال له بانفعال شديد :

ـ والله ما تستحق اشفاقك يا أخى ! ان الخيانة قبيحة . وهذه الفتاة هى سبب الكارثة التى حلت بى كما تعلم يا اخى ، لولاها لتداركت خطر المرض ودفعت الاذى عن حياتى . ولكن تعلقى بها هيأ لى مداراة المرض حتى انتهيت الى ما ترى ..

واستوى جالسا وقال وما يزال منفعلا :

ـ لماذا خاطرت المرأة العجوز باصطحابها الى ؟.. المرأة الماكرة ترمى بنظرها الى بعيد ، فترى الشفاء محتملا كالموت ، وتأخذ الحيطة لكل احتمال . ولكنى يا أخى لن أفكر فى الزواج : واذا كتب الله لى الشفاء فسوف أتعهد بنيانى المتهالك بالعناية الواجبة

فعلى أحسن الفروض لن يبقى من عمرى الا شيخوخة حقيقة بالرعاية الحكيمة . أخى : لى فى المصرف مقدار من النقود كنت ادخرته لزواجى فسأسترده وأشد الرحال الى حلوان ، وهناك أضع نفسى تحت رحمة المقادير حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . غدا اسحب لى النقود بنفسك ، وابتع لى ثيابا ولوازم ، وسأكون بالمصحة قبل نهاية هذا الشهر ، وعلى الله الجبر ..

٤٧

وفى ضحى اليوم الثانى ـ الجمعة ـ نفذ أحمد مشيئة أخيه ، فاسترد وديعته من المصرف ، وابتاع له بيجامتين واثيابا داخلية وبعض اللوازم الثانوية ، وعاد الى البيت ظهرا مسرورا بما قر رأى المريض عليه من الانتقال الى حلوان. ولما دخل حجرة الشاب رآه يدخن سيجارة ، فانزعج انزعاجا شديدا ، وكان أقلع عن التدخين منذ ظهور المرض ، فارتبك لمرآى القادم ، وابتسم ابتسامة ارتباك وخجل . وهتف به احمد وقد نسى المشتريات الجديدة :

ـ من أعطاك هذه السيجارة ؟.. ماذا تفعل بنفسك !

وألقى على أمه نظرة ملؤها الاتهام . فقالت المرأة تدافع عن نفسها :

ـ ألح على يا أحمد ولم ينفع اعتراضى ، فما سكت حتى فاز بطلبته ..

وقال رشدى دون أن يترك السيجارة :

ـ لا تؤاخذنى يا أخى . نازعتنى نفسى الى التدخين فجأة فلم أستطع مقاومتها ..

فقال أحمد بامتعاض شديد :

ـ ولكن هذا هو الجنون عينه.

فقال الشاب كالمعتذر :

ـ سيجارة واحدة لا تؤذى . لكم هى لذيذة ! دعنى آخذ أنفاسها فى طمأنينة ..

ودخن سيجارته فى سرور عجيب ، ثم قال :

ـ لا تغضب يا أخى فهى آخر سيجارة ، والان هات ما عندك من الثياب الجديدة ..

وبعد الغداء بقليل اعتراه اعياء شديد ولم يطمئن الى الاضطجاع فجلس فى الفراش مادا ساقيه مسندا ظهره الى وسادة منكسرة، فبدا ساقاه كخطين ، واشتد اصفرار وجهه وشابته زرقة خفيفة ولاحت عيناه متسعتين مكحلتين بهالتين سوداوين ، وارتسمت على الحدقتين نظرة غريبة . غير نظرة الحزن الاولى ، كأنها ترمى الى شىء بعيد لا تراه الاعين . وجاءه أحمد يجالسه ساعة العصر قبل أن يمضى الى قهوة الزهرة ، فقال له رشدى :

ـ أذاهب الى الزهرة ؟!.. سلامى الى الصحاب لكم يشوقنى أن أسهر ليلة فى السكاكينى بين اخوانى ..

فقال أحمد بتأثر :

ـ ستبرأ ان شاء الله وتعود الى اخوانك ولياليك !

فقال الشاب بانكسار :

ـ هل يمكن أن أبرأ حقا ؟!.. انظر الى ساقى ، هل تعودان مرة أخرى الى هيئة السيقان البشرية !

ـ وما يكون هذا فى قدرة الله العظيمة ..

فهز رأسه ، ثم قال لاخيه بلهجة الناصح الامين على غير مألوفه:

ـ ارع صحتك دائما بعين اليقظة ولا تتهاون بها أبدا ..

ثم أطرق لحظة قصيرة واستدرك قائلا وقد تغيرت نبرات صوته:

ـ المرض كالمرأة يلتهم الشباب ويبدد الامال ..

وتساءل أحمد ما بال أخيه يتكلم هكذا ؟.. ونظر اليه بانكسار ، فاستدرك الاخر :

ـ وميكروبه يعمل فى الخفاء حتى اذا تمكن من فريسته قضى عليها.

ـ رشدى ! ماذا تقول ؟!

ـ أجلو لك الحق قبل الفراق فعسى الا أراك بعد اليوم

فقال الرجل بانزعاج :

ـ كيف لا أراك يا رشدى ؟

فتنبه قليلا وقال وكأنما عاودته سخريته المرة :

ـ أليس من المحتمل ان يذهب صبرك فتعاف المرض أو تنشغل بدروسك فتنسانى فى حلوان ؟!

فهتف به أحمد متألما :

ـ سامحك الله ٠ سامحك الله ٠٠

فحدجه بنظرته الغريبة الغائبة وسأله :

ـ لماذا لا يحرقون المرضى فيريحوهم ويستريحوا منهم ؟

فصاح به الرجل :

ـ رشدى ! كيف تتكلم ؟

فلزم الصمت لحظة قصيرة ، ثم قال بأسف :

ـ لعن الله المرض ، الله يكفيكم شر المرض ٠٠

وانزعج أحمد انزعاجا كبيرا ٠ وعادت أمه بالقهوة ، فاحتسى قهوته فى سكون ، وخاف أن يعود الشاب الى كلامه المزعج ، ولكنه لم ينبس بكلمة ، فارتاح ارتياحا خفيفا ، وحسب أنه استرد حالته الطبيعية : وجعل يسترق اليه النظر ، فهاله تراخيه ٠ ولون وجهه ٠ ومنظر ساقيه ٠ وحدث نفسه متحسرا : أهذا أنت يا رشدى !٠٠ تبا للمرض ٠٠

وذهب الرجل الى القهوة متأخرا عن موعده ، وكان يجد فيها بعض الراحة لاعصابه المتوترة ، ونفسه المحزونة ، فمكث بها حتى منتصف العاشرة ، ثم عاد الى البيت ، ومر بحجرة أخيه ، فوجده قد تعاطى المنوم واضطجع فى طلاب النوم ، ولكنه لم يكن نام بعد فرد تحية القادم قائلا :

ـ مساء الخير ٠٠ هل عدت ؟

فقال أحمد وهو يتفحصه بعينيه :

ـ أجل ٠٠ كيف حالك ؟

ـ الحمد لله ٠٠ كيف شاى الزهرة ؟

ـ كعهدك به

فقال بصوت لم يكد يسمع :

ـ هنيئا ٠٠

وتركه لينام ومضى الى حجرته ، وخلع ملابسه ٠ كان منقبض الصدر متوتر الاعصاب ٠ وترامت الى أنفه رائحة نتنة فازداد

صـدره انقباضـا واعصـابه توترا ، ترى هـل للهواجس التى تضطرب بها أعماق النفس رائحة تشم ؟! وحاول أن يغيب عن أفكاره ساعة بالقراءة • ثم نهض لينام •فلم يغمض له جفن حتى مضت ساعة طـويلة من الافكار والوسـاوس • واسـتيقظ فى الصباح الباكر على حركة فى البيت فتنبهت حواسه ، ونظر فى الساعة فوجدها الخامسة • فتسـاءل ما الذى أيقظهم فى هـذا الوقت المبكر ؟! وغادر الفراش ، وانطلق الى الخارج يساوره قلق وخوف • وقبل أن يخطو خطوتين فى الدهليز المفضى الى حجـرة رشدى انفتح باب الحجرة بقوة وبدت أمه على عتبته وقـد رفعت ذراعيها فوق رأسها كمن يستغيث ، ثم هوت براحتيها على خديها تلطمهما بعنف وجنون •

٤٨

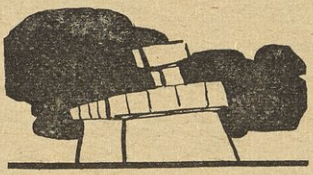

وكان يوما فظيعا مروعا . سارت قافلته فى هول من الالم والعذاب والشجن . وان أحمد ليذكره ساعة ساعة لان ذكرياته السود حفرت فى فؤاده كما حفرت فى فؤادى الوالدين البائسين .. فساعه دخوله الحجرة : سار متثاقلا بقلب كسير وعين مذعورة لما ينتظر أن تراه ، ومد بصره نحو الفراش فرأى رشدى راقدا وقد سجته أمه بالغطاء ووالده واقفا على كثب منه دامع العينين منكس الرأس ، فاقترب من الفراش وحسر طرف الغطاء فرآه كالنائم لم تتغير منه هيئة ولا لون ، وهل ترك المرض للموت شيئا يغيره ؟! وانحنى عليه فلثم جبينه البارد ثم أعاد الغطاء كما كان ، واستسلم لبكاء غزير تجمعت أبخرته فى قلبه يوما بعد يوم تنفثها الآلام حتى تكاثفت فى برودة الموت فسحت دمعا فياضا ..

وموقفه فى حانوت بالغورية : يبتاع كفنا ، ويذكر ما ابتاع له بالأمس من ثياب الدنيا . انتقى له أجمل الالوان لما عهده فيه من حب الاناقة ، وجعل ينظر الى يدى البائع ، وهو يقيس القماش ويقطعه ثم يلفه ، بانكار وذهول .

ثم ذهابه الى مركز الصحة لاستخراج تصريح بالدفن ، سأله موظف بعدم اكتراث « اسم المتوفى ؟ » فأجابه وهو يود الايسمع صوت نفسه « رشدى عاكف » ثم قال لنفسه بذهول « رشدى عاكف مات ! أفظع بها من حقيقة ! » وسأله بنفس اللهجة الباردة

« عمره ؟ » فأجابه « ستة وعشرون عاما » فسأله « المرض ؟ » فسماه والغضب يضطرب فى جوانحه ، وهل ينسى ما فعل بالشاب المنكود ؟ هل يمكن أن ينسى منظر الساقين والعنق ؟.. لون البشرة !.. قسوة السعال؟.. ثم تسلم الورقة التى لايمكن أن يغيب رشدى فى باطن الارض الى الابد الا بها ، ومضى شاكرا! وقد أحدث عدم اكتراث الموظف والدكتور ثورة فى صدره على وشائج الانسانية جميعا ، كيف يلقى الموت بعدم اكتراث وهو أفظع حدث فى الدنيا ! هل يمر يوم دون أن يرى نعش محمولا على الاعناق !؟ فكيف يمرون به مر الكرام كأن الامر لا يعنيهم ؟! كيف لايرى كل فرد نفسه محمولا فى هذا النعش ؟ !

ثم مرتزقة الموت ، جاءوا تباعا يحملون أدوات الغسل والنعش براقة أعينهم قوية سواعدهم، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع سرور التاجر بالربح المرتقب ، فلم يروا فى جثمان رشدى الا سلعة ..

ثم النعش يتهادى على الاعناق فى حلة الشباب البيضاء ، وملأ عينيه منه وهو يسير فى انحرافه المعروف تتبادله الايدى والمناكب ، ووضع الطربوش عليه مستويا وكان صاحبه يميله الى اليمين فيوشك أن يمس حاجبه فعل المختال بشبابه المدل بجماله . لله ما أوفى أصحابه ، لقد بكوا حتى احمرت أعينهم ، وبكى كمال خليل افندى ، أما احمد راشد فجمد وجهه ولم يبن ، ولم يرتح أحمد لمنظره ولا لوجوده بين المشيعين ، كذلك تجنب النظر الى المعلم نونو الذى أيقن انه لا يمكن ان يشاركه عاطفة لما طبع عليه من استهانة بالاحزان وابتسام للكروب ، وسار الاب وراء النعش مباشرة فى حزن حفظ الايمان عليه وقاره ، وبلغ التأثر بأحمد منتهاه حين بلغت الجنازة طريق الجبل ، الذى يعلم من أمره ما يعلم ، الطريق الذى شهد رشدى عاشقا صباحا بعد صباح . والذى جرى فيه الفتى وراء هواه مستهينا بمرضه الخطير فاشترى قلبه بصدره ، ثم خسر الاثنين معا . رباه هل يشهد الطريق على خيانة الرفيق ؟.. هل يفضى اليه بأن التى رأى الفتى المسكين ينتحر من أجل حبها خافت عدواه ونبذته نبذ النواة ؟!

ثم بدت المقبرة فى ثوب قشيب ! فرشت أرضها بالرمل ، واصطفت عند مدخلها الكراسى ، ودار بها السقاة وفغر القبر فاه كأنه يتثاءب ضجرا من المأساة المعادة ، ووضع النعش على الارض وكشف الغطاء ، ورفع رشدى ملفوفا فى الكفن الذى اختاره له بنفسه ، واطبقت عليه الايدى ، وغابوا به فى جوف الارض ، ثم صعدوا بعد قليل من دونه ، وبلا رحمة حثوا عليه

ونضحوا الماء عليه كأن غلته لم ترو بعد . وهكذا غاب عزيز وانتهت حياة ! بين انتباهة عين القبر وغمضتها يغيب حبيب الى الابد فلا تغنى عنه الدموع ولا الحسرات . ورجعوا جميعا وقلوبهم شتى ، الحكمة التى أوجبت بالامس أن يكون رشدى محبوبا توجب اليوم أن يصير نسيا منسيا ! البيت كئيب ، والوالدان ذاهلان ، وقد كوم رياش حجرة الراحل وأغلق بابها . ولما أوى عند منتصف الليل الى حجرته ، انثالت عليه الفكر ، حتى تنبه الى شىء فى الجو ، يا عجبا ما زالت الرائحة الكريهة تزكم أنفه .. رائحة الموت المخيفة ! وفى صباح اليوم الثانى وجد انها ما تزال تنبعث فى الجو ، فتهيأ له أنها ربما كانت متصاعدة من الممر المفضى الى خان خليلى القديم ، ففتح النافذة ونظر منها ، فرأى على الطوار كلبا ميتا وقد انتفخت بطنه وتشنجت أطرافه ، فصار كالقربة وأكب عليه الذباب ، وأدام النظر قليلا ، ثم تحول عن النافذة بفؤاد مكلوم وقد امتلأت عيناه بالدموع ..

ثم كانت أيام قاسية مرة . أما عاكف افندى الاب فقد راح يداوى بالايمان جرحا داميا . وأما الام فقد ذهلت فى حزنها عن كل شىء حتى الايمان ، بل قالت تخاطب ربها فى وقدة الالم : « ما ضر دنياك لو تركت لى ابنى ! » ثم قالت لزوجها بحدة «هذا حى شؤم ، جئته على كره منى وما احببته قط ، وفيه مرض ابنى وفيه قضى .. فدعنا نهجره بغير أسف !» ثم انثنت الى احمد قائلة « اذا أردت ان ترحم أمك حقا فابحث لنا عن مقام جديد » كرهت الحى وأهله جميعا . وضاق احمد به صدرا كذلك ، ولكن كيف السبيل الى سكن جديد والقاهرة قد ناءت بسكانها ، ولم يأل

جهدا فوصى زملاءه جميعا بالبحث عن سكن فى أى موقع من القاهرة بل جعل يروض حزنه الاليم بالاضطراب فى الشوارع القريبة والبعيدة بحجة البحث عن مسكن خال . وقد لاحظ المعلم نونو سهومه وكآبته فأكثر من ممازحته وجذبه الى احاديثهم ، حتى دعاه مرة الى بيت الست عليات ، ولكن الكهل أبى وظل مغبر الجبين .

٤٩

وتلى وقت حافل بالاحداث الحربية الهامة ، فانسحب الجيش الثامن من جسر الفرسان ، وفى النصف الثانى من يونيو سقطت طبرق فى يد الالمان ، وتهامس الناس بخطر الغزو وتناول الصحاب فى الزهرة ، الاخبار بتعليقاتهم المعتادة ، فقال سيد عارف بسرور :

ـ لن يقف زحف رومل هذه المرة ..

فسأله الاستاذ احمد راشد بلهجة المتهكم :

ـ يا من تحبون الالمان هل تحسبون أنهم اذا دخلوا مصر يدخلون بسلام أم أن دون ذلك حربا ضروسا تقتلع كل قائم ؟!

فأجابه المعلم زفتة باستهانة :

ـ وماذا لنا فى البلد مما يخاف عليه ؟ فليحزن السادة الذين لا يعرفون ان الدنيا فانية !

وقال المعلم نونو :

ـ لا أملك الا روحى وأرواح أبنائى وهى جميعا ملك لله تعالى ولا سبيل لرومل عليها الا بأمره ، وقد وقت لها آجالها قبل أن يخلق رومل بملايين السنين ..

ثم ضحك نونو ضحكته المجلجلة واستدرك قائلا :

ـ نذرت الى الله ، لو جاء رومل وأنا على قيد الحياة ، لادعونه الى سهرة ببيت الست عليات ليشهد أن المدفع المصرى فوق المدفع الالمانى ..

وجعل أحمد ينقل الى والديه ما يقوله الناس ، ويحدثهما بأخطار الغزو وما يتوقعه الكثيرون من اشتداد الغارات الجوية ، وكأنما أراد أن يلهيهما عن حزنهما ولو باثارة خوفهما !

وعاد أحمد ذات مساء الى البيت ، وكان انقضى على وفاة رشدى أربعة أسابيع فوجد أمه بانتظاره ، وبادرته قائلة :

ـ زارتنى نوال بعد عصر اليوم !

وخفق قلبه لذكر الاسم ، وأمسكت يداه عن فك رباط الوقبة وسألها مندهشا :

ـ ولماذا جاءت ؟!

فقالت الام :

ـ قابلتنى فى ارتباك شديد ، وما أن التقت عينانا حتى انتحبت باكية ، وقالت لى بصوت متقطع ونبرات مختنقة «أنا أعلم بسخطك على ، بل بسخطكم على ، ولكم العذر ، ولكنى مظلومة ، مظلومة والله يا تيزة ، منعونى من زيارته ، وحالوا بينى وبين رؤيته ، وفرضوا على رقابة شديدة ، وأبوا أن يصغوا الى توسلاتى أو يرحموا دموعى ، وما كنت لافعل هذا بنفسى أبدا ، ومع ذلك لم أذعن ولم آيس حتى اضطرت أمى تحت ضغطى الشديد أن تصطحبنى معها فى غياب أبى ، فجئنا معا ذاك اليوم الذى لا أنساه ولن انساه ما امتد بى عمر ، آه يا تيزة ، ألقى على يومئذ نظرة واحدة ، تنطق بالاحتقار والزراية ، فقطعت قلبى المكلوم البرىء ، أدركت أنه ناقم على ، كاره لى . لكم تألمت ، ولكم أتألم . ولكنه سيعلم الحقيقة يوما ما ، ويعلم أنى ما بغيت عليه ولا خنت عهده ...»

أصغى أحمد اليها بفؤاد خافق وصدر هائج جياش ، ثم سألها :

ـ أتقول الحق يا ترى ؟

فتفكرت المرأة قليلا ثم قالت على مهل :

ـ سمعتها تتكلم باخلاص ، ولا أدرى لماذا تحمل نفسها عناء

الكذب بعد أن انتهى كل شيء ، فيغلب على ظنى أنها صادقة ، بيد أن مقتى تضاعف لاهلها الدون ..

وخلع الرجل ملابسه متفكرا . وقد مال الى تصديق الفتاة كأمه ، وارتاح لذلك ، ولكن وأسفاه قضى رشدى نحبه يائسا من حبه يأسه من الشفاء ! فيالهما من حبيبين تعسين الميت منهما والحى ! وأهاجته الذكريات فاستثارت أحزانه ومضى يقول لنفسه « اللهم غفرانك ، ألم يكن الاوفق أن تختارنى وتعفو عن أخى ! فحياتى الخائبة لا تستحق الوجود ، وحياته الناجحة كانت أهلا للدوام ، اللهم غفرانك ! » وأحس في تلك اللحظة داعيا باطنيا يدعوه الى ارتياد حجرة الفقيد المغلقة . وكانت نفسه نازعته الى ذلك مرات ثم يعدل اشفاقا ، أما هذه المرة فلم يستطع أن يغفل عن نداء الداعى ، وهزه الشوق والحزن ، وما عتم أن مضى اليها والسكون شامل وقد أخلد والداه الى النوم . ولما اقترب من بابها انقبض صدره وفاض به الحزن . ثم ادار الاكرة ، وعبر مدخلها متثاقلا ، وأضاء المصباح الكهربائى . وألقى على الحجرة المهجورة نظرة شاردة ، وقد ملأت رائحة التراب أنفه ، فرأى كوما من الاثاث ومكتبا تراكم عليه الغبار فأحاله ، وكل شيء يدل على الوداع . رباه لماذا ولج هذه الحجرة وما جفت دموعه بعد؟! وأجال عينيه بها فى حزن بالغ ، فجذبهما درج المكتب الاوسط ، فذكر أن هذا الدرج يحوى مذكرات رشدى و « ألبوم » صوره ! وأملى عليه قلبه أن يحتفظ بهما فى حجرته ما دام الاثاث عرضة للبيع اليوم أو غدا ، ففتح الدرج واستخرج كراسة المذكرات والالبوم ونفخ عنهما الغبار ، ثم ألقى على الحجرة نظرة وداع وغادرها كأنما ما جاء الا ليأخذ الالبوم والمذكرات . ووضعهما على مكتبه ، وطفق يديم النظر اليهما باهتمام وحزن . وفتح الالبوم عن أولى صحائفه فرأى صورة كبيرة لرشدى تمثله واقفا ويداه فى جيبى بنطلونه ، ما أجمله وما انضره !.. وسرعان ما طرقت ذاكرته صورة الكلب الميت الذى كدر جوه يومين كاملين ! فتاكلت نفسه حسرات .. ولم يمض فى استعراض الصحائف احتراما لاسرارها وتناول كراسة المذكرات دون أن تحدثه نفسه بالتطفل على مكنونها ،

بيد أنه لم يقاوم رغبة فى فر صفحاتها الاخيرة ، فجرى بصره على بعض رءوس النبذ التى تكون خاتمة المذكرات . فقرأ « حب جديد » .. « طريق الجبل » .. « حديث غرام » . « آمالنا » . حتى مر بصره بهذا العنوان « القبلة القاتلة ! » فخفق فؤاده بعنف شديد ما معنى هذا العنوان ؟!.. ألم يردده فى بعض هواجس حزنه يوما ؟! وكان مؤرخا فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٢ أى أول عهده بالمرض ، فلم تكن ثمة قوة تستطيع أن تعدل به عن قراءته ، فقرأ وصدره يضطرب ويجيش بالعاطفة :

الاثنين ١٢ من يناير سنة ١٩٤٢

رباه !.. أنا من اليوم وحتى يشاء الله شخص غريب ، فى صدره أذى للناس ، أنفاسه تهدد العباد ، برج متداع من الميكروبات الفتاكة . لعبت لعبة خطيرة كيلا تضيع نوال من يدى . اللقاء مبذول ، ولكن حذارا ، نوال محرمة عليك ، محال لمسها ! قبلتها التى كانت شفاء للنفس حرام حرام . لشدما تنكرنى وتعجب لشأنى ولعلها تسائل نفسها ما له لا ينتهز فرصة خلو الطريق كما كان يفعل ؟ هل شبع من شفتى ؟ أترى فتر حبه ؟.. كلا يا حبيبتى لم يشبع من شفتيك ولا فتر حبه ، ولكنه يخاف عليك ، ويصون فاك من الهلاك المبين ، ليس الذنب ذنبى ، فقلبى كعهدك به ولكن دونه صدرا عشش فيه عدو شرير أخافه عليك وأعيذك منه .. »

أغلق أحمد الكراسة . وجعل يذرع الحجرة وكأنه يترنح من شدة الصدمة ، ثم ارتمى على الفراش وهو يصك جبينه براحته ويهتف « رباه . لكم ظلمته .. ولكم اتهمته بالباطل ! » . وأحس كما لو أن منشارا ينشر قلبه فأن أنينا موجعا ..

٥٠

وتصرمت الايام الباقية من يونيو ، وجاء يولية بقيظه الفائر وظلت الكآبة ناشرة رداءها على البيت الثاكل ، ولم تفتر همة أحمد عاكف فى التنقيب عن مسكن جديد ، رحمة بوالدته ،ولانه هو أيضا ، ضاق بالحى صدرا • وقد خلفت الصدمة فى أعصابه الرقيقة آثارا عميقة ، فعاوده بعض أرقه القديم ، وتلبسته حال من القلق النفسى بات معها سريع الانفعال سريع التأثر ، كثير المخاوف مستسلما للحزن • والتقت فى صدره الجياش أحزان الماضى والحاضر • وتوجس خيفة مما يخبئه المستقبل ومما عسى أن يلده من الاحزان والآلام • وقال لنفسه ، وهو يذكر والديه: ان سعادتنا بأحبائنا اليوم مرتهنة بالدموع التى نسكبها على فراقهم غدا ، وطفق يردد بيت أبى العلاء :

ومن لم تبيته الخطوب فانه سيصبحه من حادث الدهر صابح

فلم تكن أعصابه مما يعين على تحمل غير الدهر وآلام الحياة ، وأوشك أن يقع فريسة لمرضه القديم ، ولذلك صدقت رغبته فى هجر الحى • وفى ذاك الوقت كثر اطلاق صفارات الانذار ليلا ونهارا ولكن لم تضرب المدينة كما حدث فى سبتمبر • ثم تحرجت الحالة الحربية بتوالى تقدم قوات المحور ، فعبرت الحدود المصرية ، وتوغلت فيها ، حتى جاوزت مرسى مطروح التى كانت تعد أهم خط دفاعى عن مصر ، ثم استولت على فوكه والضبعة ، وبلغ التحرج منتهاه بتقدم القوات المعادية الى العلمين !•• تخايلت الاسكندرية لاعين الغزاة وتهامس الناس بأن الضرورات الحربية

تنذر بتحويل الوطن الى خرائب تنعق فيهاالبوم ، ومستنقعات يرعاها البعوض.

وفى مساء اليوم الذى بلغت فيه قوات المحور العلمين اجتمع الصحاب بقهوة الزهرة كعادتهم ، فتلاقوا بالبشر والسرور ، وملأوا الجو برنين ضحكاتهم . لم يفكر أحد منهم فى الهجرة أو فى تخزين بعض المواد الغذائية ، ولاشغل أحد نفسه بتقدير الحالة التى تنشأ عن الغزو والحرب فى المدن ، أو كانوا يتمثلون هذه الحاله مازحين ضاحكين كأن الامر لا يعنيهم ، ولسان حالهم يقول : « الامر لله وليحدث لنا ما يحدث للناس جميعا ! » . ولم يختلف أحمد عاكف عنهم فى شىء ، بيد أنه وجد فى الاجتماع بهم ـ ذلك اليوم ـ لذة مضاعفة ، كأنه وجد فى مجتمعهم الصغير ملاذا من القلق العام الذى أخذ يساور النفوس . لم يخل قلبه من خوف وقلق ولم يخل من سرور ، كان يفكر فيما يحتمل أن يحدث فينقبض صدره ، ثم تتمثل له تلك الحالة التى يختلط فيها الحابل بالنابل وتمحى التبعات وتنهار القيم فيجد فى أعماقه شعورا بلذة خفية تعكسها أعصابه المتوترة ، كأن ذاك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد أحزانه وآلامه ، وسيمحو فيما يمحو من اثار الماضى آثار ماضيه ..

قال سيد عارف بلهجة المتثبت مما يقول :

ـ اسمعوا آخر الاخبار .. قسم رومل جيشه جناحين ، وجه الاول نحو الاسكندرية وهبط بالثانى صوب الفيوم ..

وقال أحمد راشد :

ـ سمعت أن الاسكندرية تضرب بالقنابل من الجو ومن البر حتى هجرها أهلوها الى دمنهور ..

ـ هل انتهى الانجليز حقا ؟

ـ انهم يحرقون أوراقهم ويرحلون نساءهم ..

ـ متى يبلغ الالمان القاهرة ؟

ـ غدا أو بعد غد ..

ـ الا اذا ساروا بجيشهم المظفر شرقا الى السويس ..

ـ سمعت من ثقة أن جنود الباراشوت يهبطون جماعات فى

الحقول ..

وتساءل المعلم نونو :

ـ ما عسى أن يفعل أحدكم لو هبط عليه جندى من أولئك الجنود وأمره أن يدله على موقع حربى ؟!..

فأجاب سيد عارف فورا :

ـ أمضى به الى شقة سليمان بك عتة وأقول له « هاك السفير البريطانى » !

فهتف به سليمان عته محنقا :

ـ أولى بك أن تستوهبه بعض الاقراص اللازمة لمرضك !

وقال المعلم زفتة :

ـ أما أنا فأسوقه الى شقة عباس شفة وأريه اضخم « طابية » فى مصر ..

فقال أحمد عاكف داهشا :

ـ أليس لهذا المزاح من نهاية ؟ ألا تعلمون بأننا مهددون بهجر ديارنا وربما قذفوا بنا الى بعض القرى القذرة .

فصاح نونو :

ـ ما أحلاها عيشة الفلاح !

فسأل أحمد راشد :

ـ ألا تخافون الموت ؟!

فقال المعلم زفتة :

ـ أعطنى عمرا وارمنى على رومل ..

وقال المعلم نونو باهتمام مصطنع :

ـ الحق فيما قال أحمد أفندى . الالمان شياطين ، وهم اذا هجموا على بلد انتشروا فى كل مكان ، وتخفوا فى كل زى . فلا يبعد أن نرى غدا ألمانا معممين أو فى ملاءات لف .. ووالله انى لاخاف أن أفتح الصنبور لاتوضأ فيخرج لى مع الماء غواص ألمانى

وبغتة أطلقت صفارة الانذار !

كانت الساعة السابعة مساء ، فهبوا جميعا قائمين واختفت البسمات من وجوههم ، وهرعوا الى طريق المخبأ . وخاف كثيرون أن تحدث غارة عنيفة مدمرة كالتى تسبق الهجوم ، وذكروا

الاسكندرية والسويس وبور سعيد، بل ذكروا وارسو وروتردام! وبعد دقائق قلائل عج المخبأ باللاجئين . وجلس أحمد مع والديه وقد شمل الجميع قلق وخوف ، وكأن الام قد كبر عليها ذاك الحرص على الحياة منها فدمعت عيناها . ومر ثلث ساعة فى ذعر واضطراب وانتظار هو التعذيب عينه ، ثم انطلقت صفارة الامان ودهش الناس ، ثم لاح فى أعينهم السرور والارتياح ، وهتف بعضهم « استكشاف .. استكشاف ! » وهتف آخرون « اقتربت الطيارة من حدود منطقة القاهرة ثم عادت أو غيرت اتجاهها ! ». وتحرك التيار صوب باب المخبأ . وخرج مع الخارجين . وعلى بعد قريب من مدخل المخبأ رأى نوال متأبطة ذراع شقيقها الصغير محمد !.. والاثنان يضحكان ويوسعان الخطى نحو العمارة .. خفق قلبه لمرآها أو لذكراها . وظل هنيهة يتبعها مقلتيه حتى غيبها المنعطف ، ثم انقبض صدره ورانت عليه كآبة ، وأحنقه ضحكها وأغضبه فكأنه فاجأها متلبسة بجريمة نكراء ! وبلغ منه التأثر مبلغا لم يستطع معه العودة الى القهوة قبل أن يروح عن نفسه قليلا بالمشى ، فمضى الى شارع الازهر على مهل . وأخذت نفسه تسكن وتهدأ ، حتى عاودته حالته العادية بأسرع مما كان ينتظر ، بل أنحى على نفسه باللائمة لغضبه ، وأنكره ، ما الذى أوجب غضبه ؟! ماذا أثار ثائرته ؟.. أهو ضحكها ؟ يا عجبا !.. وهل حسب أنها تظل باكية الى الابد ؟! ألم يضحك هو مرات سواء فى الوزارة أم فى القهوة ؟!.. ألم يجر الابتسام على شفتى أمه نفسها فى بعض الاحيان ؟! فلماذا لا تضحك نوال ؟ وماذا يغضب من ضحكها ؟! حقا انه النسيان ، ذاك الدواء المر الذى يعقب العزاء ويستوجب الحسرة ، العزاء عن آلامنا والحسرة على أنفسنا . نقول نسينا والحمد لله وهى سنة الحياة ، فيهتف بنا هاتف : ولسوف تنسون وأسفاه وهى سنة الحياة ! وتنهد من الاعماق . ثم خطر له خاطر ليس بالجديد عليه ، ولكنه كان يروغ منه ، يشفق من مواجهته ، بيد أنه قال لنفسه هذه المرة « حتام أهرب وأتجاهل ؟ ألا يخلق بى أن أواجه الحقيقة وانعم النظر ؟ أمازلت أحب نوال ؟ لماذا يخفق فؤادى لمرآها ولذكراها ؟ »

وتفكر مليا ـ وهو آخذ فى مشيته المتمهل ـ ثم حدث نفسه مرة أخرى وقد تورد وجهه الشاحب خجلا كأنما اطلع على سره الناس جميعا « حب ، فوقه غضب ، فوقه حزن ، فوقه ذكرى مروعة • فلكى أخلص الى هذا الحب ينبغى أن أدوس كرامتى وذكرى أخى وهو المحال • بينى وبين الحب أخى وكبريائى ، والحياة أهون من أن أمتهن فى سبيلها هذين العزيزين ! » • كل هذا حق فهو يحب نوال ، ولم يزايله حبها أبدا وان حجبته الالام كثيرا ، ولكن محال ان يعترف لهذا الحب بغاية ، فدون ذلك ما هو أقوى من الحب نفسه • ولكن حتام يمكث على كثب من النار وهو محموم ؟!

للمؤلف

القاهرة الجديدة

رادوبيس

كفاح طيبة

خان الخليلى

زقاق المدق

السراب

بداية ونهاية

همس الجنون

٥١

وفى أواخر أغسطس اهتدى أحمد عاكف الى شقة خالية بضاحية الزيتون ، فى بيت يملكه موظف بادارة الحسابات بالاشغال ممن كانوا يعلمون برغبته الملحة فى الانتقال ، وكان يسكنها موظف اضطر الى فسخ عقدها لنقله الى احدى البلدان ، فدعا صاحب البيت أحمدوحدته بشأنها وتم الاتفاق بينهماسريعا على أن يتم الانتقال فى أول سبتمبر موعد اخلائها. وسرت الاسرة بقرب الرحيل عن خان الخليلى وذكرياته السود ، على رغم أنها ترحل عنه مهيضة الجناح ، وقد ألم بالاب ضغط دم نغص عليه عزلته ، ونال الحزن من الام فأصابها بالهزال وأغاض مرحها وألبسها ثوب الكبر ، بيد أن أحمد – على حزنه – رأى فى الافق نجوما تخفق . تحدثوا فى تلك الايام عن انصاف المنسيين من الموظفين ، وباتت الدرجة السابعة قريبة المنال ، وكان دائما يستهين بالوظيفة والموظفين ، ولكنه سر فى باطنه بالترقية المنتظرة ، وسره أيضا أنه سيصير رئيسا على أربعة غير ساعى بريد الوارد ، ونوى صادقا أن يجعل من عهد « رئاسته » فتحا جديدا فى حياة الادارة الحكومية يضرب فيه المثل الاعلى للرئيس « العالم الحكيم » !.. ثم من يدرى بعد ذلك بما يخبئه الغيب ؟ فأمامه فى الحكومة خدمة طويلة تناهز العشرين عاما ، وعسى أن

يرقى درجات أخرى ؟ وعسى أن تحسن الحكومة الاختيار ولو أخيرا !.. وليس هذا كل شيء . فقد حدث أن اصطحب أمه الى المسكن الجديد ليعايناه ، وهنالك دعاهما صاحب البيت الى شقته فاحتسى معه القهوة فى حجرة الاستقبال ودعيت والدته الى حريم الرجل ، وعند عودتهما معا أثنت أمه على زوج صاحبه وشقيقته ، وقالت عن الاخيرة انها « أرملة فى الخامسة والثلاثين ، على أدب وجمال » .. ونشط خياله ! أرملة فى الخامسة والثلاثين ، على أدب وجمال يحويهما بيت واحد ، وهو عزب فى الاربعين ، وزميل شقيقها ، ولا فارق فى السن من ناحيته ينفر ، ولا شباب غض من ناحيتها تتيه به عليه ، والظاهر ان الحياة لا تريح من الامل ، وهل يعلم الغيب كله الا الله ؟.. بيد أن هذه الاحلام لا تتفق ورباط رقبته الاسود !.. رباه ، ما لاحلامه تحلق فى غير حياء ؟ ولا يبعد فى تلك اللحظة أن تكون نوال تسترق النظر الى أحمد راشد مثلا ، وهكذا تسير قافلة الاحياء لا تلوى على شيء كأنها لم تفقد بالامس القريب من كان يحل منها بالمكان المرموق . حياة صماء قاسية كالتراب ولكنها تنبت الامل كما ينبت التراب الزهرة اليافعة . حزن أحمد حزنا شديدا ، ولكن لم يكن من الامل مفر ..

وأخذوا للرحيل أهبتهم ، فلفت الابسطة ، وفكت الدواليب والاسرة ، وجمعت الاوانى والكتب وقطع الاثاث ، واعتزم المسير غدا ...

عند عصر ذلك اليوم وفدت نسوة العمارة لتوديع الاسرة الراحلة ، وكان أحمد لا يزال فى حجرته ، وجاء فيمن جاء منهن الست توحيدة ونوال ، وجلسن جميعا فى الصالة الخارجية لانها المكان الوحيد فى البيت الذى كان صالحا للجلوس وقتذاك . ولبثت الست توحيده ونوال بعد انصراف الزائرات . وجاء موعد ذهاب أحمد الى القهوة ليودع صحابه ، فلم يجد بدا من المرور أمام الزائرتين ، ولكن السيدة نهضت قائمة عند ظهوره ومدت له يدها وهى تقول :

ـ كيف أنت يا أحمد أفندى

فسلم عليها فى ارتباكه المعهود وهو يقول بصوت خفيض :

ـ الحمد لله يا سيدتى . شكرا لك ..

ونهضت نوال لنهوض أمها ، فتحول اليها مادا يده كذلك ، والتقت يداهما لاول مرة ، فسرت فى بدنه رعشة ، فلم ينبس بكلمة ، ولم يرفع عينيه .

وقالت السيدة :

ـ مازلت اعتذر لوالدتك عن سلوكنا ، ولعلك تقيم لنا العذر يا أحمد أفندى ووالله لقد كان المرحوم عزيزا علينا أثيرا لدينا وربنا يعلم ..

فقال الرجل المرتبك المضطرب :

ـ كلنا نقيم لكم العذر ، وللضرورة أحكام يا سيدتى .

ودارت المرأة بلباقة حول ذاك الموضوع . وشكرت أحمد لادبه وحسن تقديره للامور ، ثم استأذن الرجل فى الانصراف وسلم على السيدة ، ومد يده لنوال مرة أخرى ، وفى هذه المرة ، واليدان مجتمعتان ، خطف من وجهها نظرة بعينيه الخجولتين ، ثم اتجه نحو الباب . كانت أول مرة تلتقى العينان عن قرب، ولم يكن نظر فيهما منذ مداعبات النافذة والشرفة على عهد الامل الاول فخال أنه طالع فيهما ما كان يطالع من صفاء وحنان وتطلع ، فدق قلبه وهو يحث خطاه وطرفت عيناه فى هياج عصبى . ربما كان موقف الوداع المسئول وحده عن كل ذلك ، فالوداع يستثير حتى عطف أولئك الذين لا يعطفون فى غيره من المواقف ، وهكذا اعتذر لضميره ، بسيكولوجية الوداع هذه ، عن انفعاله وتأثره وخطفه النظرة ، خاصة حين خطرت على فؤاده ذكرى رشدى ولاحت لعينيه صورته المحبوبة وكأنها تبسم اليه فى عتاب ، وراح يحادثها بلهجة حزينة مؤثرة « معذرة يا رشدى ، انه الوداع وأنت أعلم بالوداع ، وانه الالم وأنت أخبر بالالم ، ولن تجد منى بعد الان ما يستحق عتابك » . وبلغ قهوة الزهرة ، والله وحده يعلم متى يتاح له أن يغشى قهوة الزهرة مرة أخرى ، واستقبله الصحاب استقبالا حافلا يليق باللقاء الاخير ، وأمسكوا عما كانوا آخذين فيه من أسباب الحديث ليفرغوا لوداع الجار العزيز . وقال

له المعلم نونو متسائلا :
ـ أتنسانا يا ترى ؟
فقال أحمد وهو لا يدرى ان كان يصدق فى قوله أم يكذب :
ـ معاذ الله يا معلم ..
وقال المعلم زفتة :
ـ ولكن الزيتون هذه بلدة بعيدة لا يبلغها طالبها الا بالقطار !
فقال أحمد مبتسما :
ـ ما كان لقطار أن يمنع صاحبا عن صحبه ..
ثم قال عباس شفة وهو يرفع حاجبيه كمن يتذكر أمرا هاما :
ـ أنا أعرف الزيتون كما أعرف خان الخليلى . مضى زمن كنت أسافر اليها مرة على الاقل كل اسبوع فأرجع بأحسن أنواع الحشيش
فابتسم أحمد متسائلا :
ـ فهل أرجو أن أراك كثيرا ؟
فقال عباس شفة بلهجة نمت على الاسف الشديد :
ـ تلك أيام خلت : لقد زجوا بالتاجر فى السجن ومات فيه وأعربوا جميعا عن أسفهم لفراقه ، وأثنوا على أسرته اجمل الثناء ، وترحموا على فقيدها ، حتى سليمان عته نفسه قال كلمة طيبة . وفاض قلب أحمد بمودتهم فى تلك الساعة ، سواء من يحبه منهم كالمعلم نونو أم من يمقته كالاستاذ أحمد راشد،وعجب لقلبه الذى يأسف على ترك أى شىء ـ وان طال برمه به ـ ساعة الوداع ، ثم عاودوا حديث الحرب كعادتهم ، وذكروا توقف الهجوم الالمانى عند العلمين ، وكان من رأى أحمد راشد أن المحور خسر موقعة مصر ، أما سيد عارف فقال بلهجة اليقين أن هتلر أمر رومل بالتوقف ليجنب مصر ـ قلب الاسلام النابض ـ ويلات الغزو ، وانه لولا رحمة الفوهرر لكان الالمان فى القاهرة منذ شهر . ولبث بينهم مستمتعا بسمرهم ومزاحهم حتى انتصفت العاشرة فودعهم الوداع الاخير . وسلم عليهم واحدا واحدا . وتقبل تحياتهم شاكرا ، ثم قفل الى البيت .
وفتح النافذة وأطل على الحى . كان البدر ـ بدر نصف شعبان

يتألف نوره السنى فى سماء أغسطس الصافية ، والنجوم من حوله تزهر باسمات فى اشفاق كأنما ترثى لادلاله بشبابه الذى علمت منذ الازل أنه لا يدوم . وقد اكتسى الحى بغلالة فضية بددت وحشة الليل ، وأضفت على الاركان والممرات سحرا .

الليلة نصف شعبان ، ودعاء شعبان يتصاعد من النوافذ القريبة ، وذاك صوت غلام يهتف بصوته الرفيع « اللهم يا ذا المن ولا يمن عليه يا ذا الجلال والاكرام » والاسرة تردد الدعاء وراءه . بيتهم صامت وحده !.. وتساءل عما عسى أن يتوجه به من دعاء الى ربه ؟.. وتفكر مليا . ثم رفع رأسه الى البدر المنير ، وبسط راحتيه ، وغمغم بخشوع « اللهم يا خالق الخلق ، ومدبر كل شىء ، تغمده برحمتك الواسعة ، وأسكنه فسيح جناتك ، وألهم والديه الحزينين الصبر والسلوان ، وأنزل على قلبى السكينة والسلام ، واكتب لى فيما يستقبل من الايام عزاء عما سلف (وهنا وضع يده على قلبه) فلشدما تحمل هذا القلب من ألم ، ولشدما تجرع من خيبة ! » .

هل يذكر يوم أقبل على هذا الحى وفى النفس شوق الى التغيير؟ لقد حدث التغيير وأحدث دمعا وحسرة ! وها هو ذا رمضان مقبلا فيا للذكرى . أيذكر كيف استقبل رمضان العام الماضى ؟.. أيذكر موقفه من النافذة الاخرى فى انتظار آذان المغرب وكيف رفع البصر فرأى ؟!..

وجرى أمام ناظريه التاريخ الذى كتبته الليالى متتابعات حتى هذه الليلة بمداد الامل والحب والالم والحزن .

وهذه الليلة الاخيرة . وغدا يبيت فى دار جديدة ، فى حى جديد ، موليا الماضى ظهره ..

الماضى بما أحدث من أمل وما خيب من رجاء ...

فالوداع يا خان الخليلى ...

نادى القصة

يقدم لك فى أغسطس القادم

يوسف السباعى

ليزيح الستار عما

وراء الستار

الكتاب الذهبى

العدد الثانى ـ يولية ١٩٥٢

يصدره نادى القصة

عن دار روز اليوسف

١٨٠ شارع سعيد

تليفون ٧٨١٣٨ ـ ٧٨١٣٩

الثمن ١٠ قروش

الاشتراكات

مصر ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة

الخارج ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

رئيس التحرير المسئول : سعد الكفراوى خليل

4104

حديث الشهر

هذا المؤلف

لم يسبق له النشر على نطاق واسع ، أعني أنه لم يتعود النشر فى الصحف الذائعة ولم يطبع من أي من كتبه اكثر من ألف أو ألفين فهو والحال كذلك قد قصر أدبه على الأدباء أو خاصة القراء . وكنت اذا ما قرأت له ثم تحدثت الى الناس فى اعجاب عما قرأت تملكني الضيق عند ما أجد البعض لا يعرفه ولم يقرأ له .. وكنت لا أملك الا التعريف به والارشاد عن مؤلفاته فى حدود النطاق الضيق المحيط بى وان كنت أتمنى في قرارة نفسي أن أعرف به كل الناس وأرشد الى مؤلفاته كل الناس .

واني لأشعر بغبطة وأنا أجد نادي القصة قد حقق لى الأمنية فقدم اليكم عشرات الآلاف من هذا الكتاب وعرف به من لم يعرفه منكم . وأشعر أن النادى قد حقق بذلك بعض رسالته وهي تقديم الأدب لعامة القراء وتيسير قراءته لأكبر عدد ممكن منهم . بل خلق جيل جديد من القراء لم يتعود القراءة من قبل .

واني لأشعر بغبطة أيضاً . وأنا أجدكم قد مددتم لنا يداً للعون والترحيب .. ولتناول الكتاب الأول فى لهفة وشوق .. فجعلتمونا نحس أن مجهودنا لم يذهب أدراج الرياح . . وأننا نستطيع المضى واياكم قدماً لنحقق كل أهدافنا . لقد أشعرتمونا حقاً أننا أصدقاء فى ناد ولسنا تجاراً فى سوق .

شكراً والي اللقاء .

يوسف السباعى

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 014490096

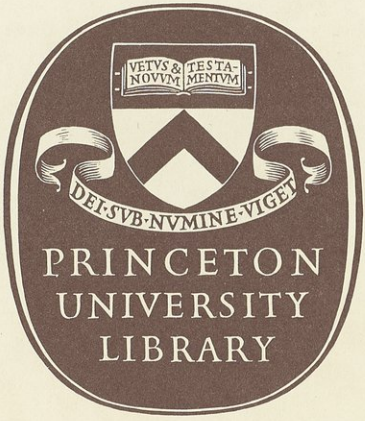
VETVS & NOVVM TESTA-MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
Nov.-Dec. 1988
We're Quality Bound